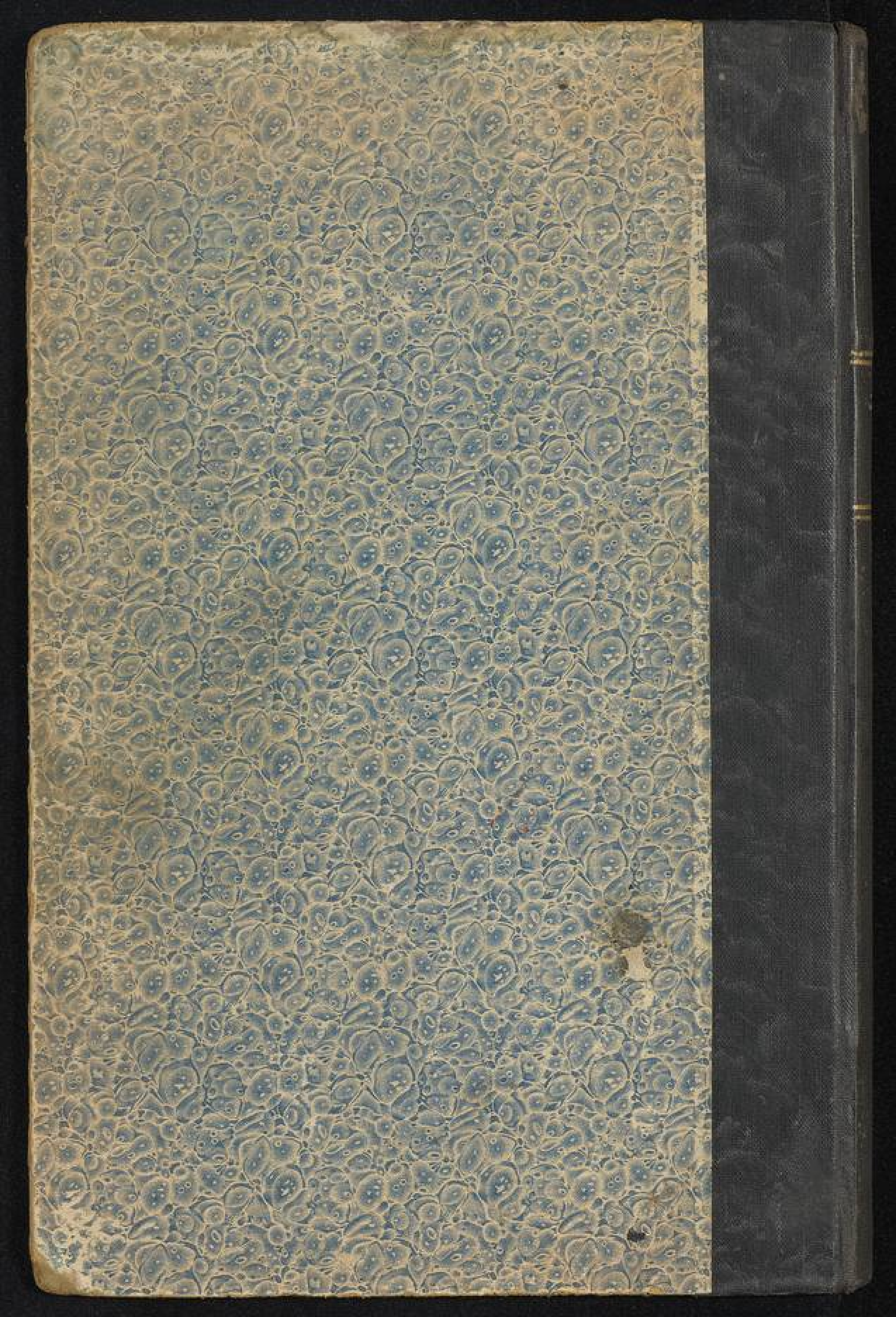


شهيرات النساء في العالم الاسلامي

بقلم

صاحبة السمو الاميرة المصرية الجليلة قدرية حسين

تعريب

عبد العزيز امين الخانجي

الطبعة الاولى

١٣٣٤ هـ — ١٩٢٤ م

الناشر

حسين حسنين

صاحب المكتبة المصرية بشارع العشماوي بمصر

طبع بمطبعة السعادة

اهداء الكتاب

الى حضرة صاحب العزة شريف بك صبرى مدير عموم البلديات .

مولاى .

هذا كتاب جمع حوادث بعض الشهيرات من نساء السلف مما جادت به قريحة صاحبة السمو الاميرة الجليلة قدرية حسين وفقنى الله الى اتمام تعريبه ونشره فى عهد ادارتكم ورعايتكم لقسم البلديات الذي شرفتنى الايام بأن أكون عاملا من عماله وجنديا من جنوده ، فكان من الحق أن أتشرف باهدائه الى مقامكم الكريم، لا مزدلفاً ولا راغباً فى نوال أو عطاء وإنما مدفوعاً بعاملى التقدير والاخلاص ؟

المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

الهادى الى سواء القصد وباسم أنبيائه المرسلين والهداة المخلصين وطلاب الاستقلال والحرية المجاهدين، فى كل عصر ومصر أتقدم الى قراء العربية في مصرنا المحبوبة وفى الامصار العربية الأخرى، بهذا الكتاب الذي وفقنى الله الى تعريبه . وأنا قبل كل شيء لا أجد مناصاً من الاعتراف بتشجيع المشجعين من أبناء قومى عند ما أقدمت على ترجمة رسائل الاميرة قدرية حسين أمد الله حياتها ومتع العالم الشرقى بثمار أفكارها ولولا ثقتى بتقديرهم لمجهود هذا العاجز الضعيف وعطفهم عليه في جميع ما ترجمه لما أقدمت على هذا العمل الذى أظننى دونه

وما أظننى فى حاجة الى أن أعرف قراء هـذا الكتاب عن مؤلفته وسابق جهودها وفضلها فما هي بالسيدة المجهولة عندهم وتاريخ حياتها الادبية معلوم مشهور لدى الناس أجمعين .

الاميرة قدرية حسين كاتبة تتمشى فى كتابتها مع روح العصر، مع كثير من التربية الدينية الشرقية، وهى تشترك فى مجهوداتها مع روح الديمقراطية الاسلامية الحديثة . يتبين ذلك من خواطرها ومن مقالاتها ورسالاتها التى كان لقراء العربية نصيب

وافر مما عربته لهم وهي تكتب باللغتين اللتين تحسنهما : التركية والفرنسية، وتكاد لا تملن عما تكتب الا اذا تنبه له بعض الادباء .

ويقضى على واجب الادب أن أذكر أن المرحوم ولى الدين بك يكن كان فى مقدمة الذين تنبهوا الى رسائلها القيمة فعرب لها كتاب خواطرها (نه لرم) وأسماه (ماهو وما هى) غير انه لم يطبع وكنت إذ ذاك ملازما للخزانة التركية أمد الله فى حياة صاحبها استاذى البحاثة سعادة احمد زكى باشا فعثرت بين نفائسها على طائفة صالحة من كتب سمو الاميرة وبادرت الى تعريب خواطرها دون أن أعرف أن المرحوم ولي الدين بك يكن سبقنى الى ذلك .

وقد كان سعادة زكى باشا من أول المشجعين لى على المضى فى تعريب كتب الاميرة رغبة فى نشر مآثر الامراء والاميرات من البيت الملكى الكريم واننا لنسجل هنا بيد الفخار والاعجاب خطبته التى ألقاها على اعضاء المجمع العلمي المصري فى شهر رجب عام ١٣٤٠ الموافق مارس ١٩٢٢ فانها خير كلمة نصدر بها مثل هذا الكتاب وسيراها القارىء بعد كلمة الاميرة وفقنا الله جميعا الى مافيه خير البلاد ؟

القاهرة في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٤٣

عبد العزيز أمين الخانجى

﴿ كلمة الاميرة ﴾

اجتمعنا معشر أهل التوحيد تحت اللواء المحمدى المبارك، نازلين عند قوله عزوجل : (إنما المؤمنون اخوة) ، فرفعنا ستور الجنسية وأزلنا حوائل القومية فأصبحنا جميعاً منذ ذلك اليوم بنعمة الله اخوانا ، أسرة واحدة ، تجمعهم فكرة واحدة فما أجمل هذا النداء الالهى الذي ضمن لنا السلام والوئام !

أميزنا عند الله أكثرنا استقامة لقوله الجليل (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) فيالله من جمال هذا الدستور الذى يغرى الامة بمكارم الاخلاق !

البلاد الآهلة بالاسلام هى وطننا الدينى . والعلم الاخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث هو لواؤنا الملى . لنا ماض مجيد ينحدر حتى أعماق أربعة عشر عصراً ولنا تاريخ مملوء بالعظائم، وقد كانت لنا حضارة تزرى بحضارة الرومان ، ولنا ذكريات طيبة تبعث في النفس الطمأنينة مضت علينا أيام رأينا فيها شمس المعارف تشرق فى ديارنا فأبصرنا بنور العلم ماحولنا ووقفنا بقدرة الفن على كل حال وشأن لنا فيا للسعادة

لم نثبت في موقفنا ، لم نتمسك بأهداب العلم ، تلك فرصة سنحت لم نقتنصها — فيا للحسرة ! . . . .

غربت شمس المعارف فى شرقنا وبزغت فى غربهم فأمسينا فى ظلام دامس وعشيت أبصارنا عن ماضينا حتى كدنا ننسى

تاريخنا المجيد فيا للأسف ! . . .

تعكس مرآة ماضينا صوراً شتى لرجال التاريخ ولعظائم الاعمال عندنا كما تشهد بذلك الآثار الباقية في أيدينا مما هو محفوظ في مكاتب الشرق والغرب ، فالاسفار مشحونة بذكر عظمائنا وحوادث ايامهم ووقائع ازمانهم وفي نشر تلك الوقائع وعرضها على أنظار القوم عظة بالغة وعبرة فائقة يرينا كيف كان حالنا وما صرنا اليه في يومنا ! . . .

لا أريد لقومي أن ينظروا الى الغرب نظرة سطحية، تريهم الاشياء على غير حقيقتها، كمن يرى الاشباح البعيدة عنه على غير حجمها الطبيعي . لا أرى لقومي أن يروا في الغرب كل شيء ، مستسلمين اليه في كل شأن ، بل أردت أن أذكرهم بمجدهم السالف وعظمتهم الماضية وأن يعتقدوا بأن حق تحصيل العلوم لا يسقط بمضي الزمن . أردت لهم كل ذلك ليتشبهوا بعظماء الرجال من ماضيهم الزاهي المشرق ، فانهم بذلك يجلون أنفسهم ويرفعون من قدر ذواتهم ويتذوقون معنى الحياة

بهذا الدافع الانساني قام في ذهني أن أجمع حوادث الشهيرات من نساء السلف وتراجم أحوالهن ، مستعينة على ذلك بالمآخذ المهمة والمراجع الموثوق بها ، فأوصلني البحث الى تراجم أحوال الكثيرات من النساء ممن اشتهرن بالفضل والكمال

فى أصقاع مختلفة من البلدان الاسلامية سواء من العرب أم من الترك أو الهند أو جاوة أو العجم الى غير ذلك .

لابد للانسان أن يجنى ثمار ما يبذره من بذور الخير إن قليلا وإن كثيراً وقد يصل الى ما يريد بالجد والسعى . بهذه الروح ، داومت تتبعاتي وأبحاثى حتى صيرنى البحث والاستقراء الى وقائع ذات بال ، لنساء كن مثال الفضيلة ، جديرات بالتقدير ، لعبن أدوارا هامة فى التاريخ الاسلامى . وسيكون هذا الجزء – هو أول الاجزاء – بمثابة مقدمة مباركة للأجزاء الاخرى التى عزمت على اصدارها . اثنتان من بطلات هـذا الجزء من أمهات المؤمنين وهما : والدتانا السيدتان خديجة الكبرى وعائشة الصديقة ، رضى الله عنهما زوجتا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخر الكائنات توجت بهما هذا الجزء تبركا وتيمنا بسيرتهما الطاهرة ، ولأن لهما حق التقدم على غيرهما من كل الوجوه

الثالثة بنت خليفة وأخت خليفة وأعنى بها العباسة بنت المنصور وأخت الرشيد . والرابعة أول ملكة فى الاسلام ، وأعنى بها الملكة المصرية شجرة الدر ، تلك التى قرىء اسمها على المنابر فى خطب صلوات الجمعة . فهذا الأثر الذى شرعت فى انجازه مدفوعة بعامل الخير قد تم لغاية حميدة وما أطلبه من الجزاء أن يكون له بعض الاثر فى نفس أمتي ومن الله التوفيق .

صفحة من مظاهر العبقرية (١) العلمية فى مصر

لما كنت من أعضاء العائلة المصرية الكبرى ومن أعضاء هذا المجمع العلمي المصري الجليل فانى بهذين الوصفين أشعر فى هذه الساعة بارتياح يخالج نفسى وبابتهاج يتملك وجدانى هاتان العاطفتان تدفعان بى الى تحية وتهنئة الامراء الصميمين الذين تحدوهم عبقريتهم الى استخدام ما آتاهم الله من وسائل شخصية والي استثمار مواهبهم الخاصة ليجعلوا أنفسهم أيضاً من أمراء العلم والعرفان .

لاجرم أنهم ، اذا سلكوا هذه الجادة ، يعيدون لنا تلك السيرة المجيدة التي امتاز بها الشرق فى عصره الذهبي ويكون من ورائها أكبر الخيرات وأعم البركات لذياكم الشرق فى إبان نهضته الحاضرة .

نعم فقد امتازت دول العرب والاسلام بطابع خاص ، وهو أن الخلفاء والملوك وأركان بيوتاتهم وأمراء حكوماتهم كانوا أولا وقبل كل شيء من الشعراء المجيدين وثانياً وعلى الاخص من العلماء المبرزين والفنانين المبدعين . ومنهم فوق ذلك من يزداد

(١) نشرت فى جريدة الاهرام بتاريخ مارس ١٩٢٢

ارتفاعه فى بعض الاحيان بتنازله لممارسة الصنائع اليدوية حتى يحذقها ويبرع فيها . هكذا ارتقت طبقات الامم الاسلامية في مختلف الديار والبقاع حتى وصلت الى المثل الاعلى الذي يحدثنا عنه التاريخ بما فيه من العجب العجاب . ولو شئت أن أسرد بعض الاسماء التي تتوارد على صدرى وتتجارى فى خاطري لطال المقال وضاق المجال ولرأيتم المطربات المرقصات مما طلبه لنا سادات الشرق فى أيام عزه واستقلاله بأمره من مجالى المفاخر وغرر الآثار . بيد أن المقام لايحتمل الجولان فى هذا الميدان لذلك سأثب امامكم وثبة بعيدة المدى بحيث تترك ورائي تسعة قرون كوامل وأقف بكم لحظه واحدة فى دائرة مدينة واحدة هى هذه المدينة الجميلة التى ازدهرت فيها الحضارة العربية على عهد الفاطميين وبنى أيوب والمماليك والخديويين . فأبعث بتحية ممزوجة بخالص الاحترام والاجلال الى روح السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغورى . تحية يرسلها أحد الاحياء الآن الى رجل فارق الدنيا منذ نيف وأربعة قرون . تحية تحدوني اليها فى هذا المقام ثلاثة عوامل من الاعتبارات ، فى كل منها عبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

فأما أولها فلان السلطان الغوري قد أحسن الى القاهرة باقامة أثر مجيد له مكانة فاخرة بين العمائر الأثرية الوطنية ، بل

هو بمثابة الدرة اليتيمة فى فن العمارة العربية البديع بل هو محراب لشتيت الفنون الجميلة فى الاسلام . ذلك المحراب هي المدرسة المعروفة الآن بقبة الغورى وهو الذى انتهت الى القرار فيه خزانتى الزكية التى جمعت فيها طائفة كبيرة مما أنتجته العقول والقرائح في مضمار الآداب العربية وحضارة الاسلام، تلك الخزانة التى وفقنى الله لوقفها على أبناء وطنى وطلاب العلم أيا كانوا ، وأصبحت لانصيب لى فيها سوي ما يكون لأى فرد من أبناء الامة المصرية وخادمي المعارف على الاطلاق وكان الفضل فى الوصول بها فى خاتمة المطاف الى هذا المحراب لصاحبي الدولة رشدى باشا وعدلى باشا هنالك ألقت عصاها واستقر بها النوى وأصبحت والحمد لله فى أمان من عادية الزمان وعبث الانسان

هذا ، وقد كان الغورى الذى بلغ الثمانين من رجالات العلم والادب . نعم كان من أهل الدراية والعرفان ، بكل معنى الكلمة وبكل ما ينطوى تحت هذا الوصف من المرامى — والمقاصد . ذلك انى منذ عشر من السنين ، أسعدنى الحظ فاكتشفت لهذا السلطان المصري تأليفاً فى النسب النبوى الشريف ، مرتباً على أسلوب فنى بديع ومرقوما بطريقة هى آية فى حسن الصنعة والجمال . عثرت عليه فى الخزانة الشاهانية العثمانية بسراى طوب قبو بالقسطنطينية فسارعت لنقله بالتصوير الشمسى ولاتزال

جلالة الملك فؤاد الاول



صاحب الفضل الاكبر على النهضة العلمية الحديثة فى مصر

زجاجاته السلبية محفوظة بخزانتي الزكية ومعها صورة السيف الذى كان يتقلده السلطان الشجاع وهو غير المحفوظ بدار الآثار العربية نعم أن هذا التأليف الصغير لا يكفي للاشاعة بذكر الرجل وجمله في مصاف العلماء ولا للتنويه به واطراء عمله في ندوة مثل المجمع العلمي المصرى، لولا أنه أنشأ في القاهرة أيضا مجمعاً علمياً كان نسيج وحده وفريداً في نوعه ولا يزال كذلك على ما أظن لقد كان ذلك المجمع متنقلا. فيعقد جلساته تارة في القصر وتارات في المدينة أعني في احدى القاعات المفتخره التي كانت تزدان بها القصور السلطانية في قلعة الجبل أو في الساحات المقصورة على مدارسة العلم بهذا المسجد أو بذياك الجامع بين أرجاء القاهرة. وكان الغورى سقي الله عهده وطيب ثراه يشترك في الجلسات بصفة عضو بسيط من اعضاء ذلك المجمع العلمي المصرى البحت المحت المحض ويساجل زملاءه من علماء الامة ورجالاتها في المناقشات ويبادلهم الآراء في مختلف المسائل والمعضلات. انني لا ألقي الكلام على عواهنه ولا أرسله جزافا. بل هاهي محاضر ذلك المجمع شاهد عدل على صدق ما أقول. فقد نقلتها بالتصوير الشمسى بالطريقة الايجابية في جزئين ضخمين أحضرتهما الى دار الكتب، وهي تحدث الباحث والمسترشد بما كان للبراعة المصرية من الخطر العظيم قبيل انطفاء نبراسها ودخولها في خبر كان

ذلك ان الجد العاثر قضى بان يكون السلطان الغورى رحمه الله آخر ممثل للاستقلال المصرى ؛ اذ بعد سقوط دولته (التي انقرضت معها تلك الامبراطورية العظمى التي شادها المماليك الامجاد) خيم الظلام على مصر وعلى ساكنى مصر فتوالى على بلادنا بجور مثلث من الجهالة والانحطاط والانحلال مدة ثلاثة قرون طوال . فقد خسرنا كل شيء : المكانة السياسية ، والرخاء المتجري والوحدة القومية . انطمست معالم العلم ومعاهد الادب ورسوم الفنون ودور الصناعات . فلقد سبى الفاتح العثمانى جميع علمائنا وفنانينا وكتابنا وشعرائنا وصناعنا وأعياننا وكل من كانت حيثيته ظاهرة وشخصيته بارزة من بياض الناس وقادهم وراءه الى القسطنطينية فى اغلال الاسر وقيود الاستعباد

مصاب لوحل بأمة أخرى لبادت أو كادت . ولكن الروح المصرية ، روح الفراعنة ، روح العرب لم تمت ، وهى لن تموت ! العم قد تولاها فتور أعقبه همود نخمود فجمود . ففي ثنايا هذا نسبات العميق الطويل ، كانت السريرة القومية يعتريها شيء من التشنج فتنتفض حيناعن الدهر فتتنبه ثم تتيقظ . يدب فيها شيء من عوامل الحياة أو شيء يقرب من مظاهر الحياة ، ولكن الى أمد قصير . ثم تعود الى الرقود . فقد يتاح لمصر من الطواغيت (وهم لعمري قليل) من يمنحه الله شيئا من الفطانة والرصانة

محمد على الكبير



مجدد مصر الحديثة ومعيد الحياة اليها

فيعملون على اذكاء القريحة المصرية . حينئذ نرى النيل ووادية يستنيران بشعله ضئيلة من النور أو قبس خفاق من النار، ولكن هذا اللهيب لايلبث أن يعتوره الانطفاء ، وان كان على كل حال يبعث وميضاً من البوارق النورانية في تلك الليلة الليلاء التى دامت ثلاثة قرون فنرى فى خلالها مشاهد وقتية تتجلى فيها اليقظة القومية . على هذا المنوال ازدانت القاهرة بالجامع البديع الذى شيده محمدبك ابو الذهب بالقرب من الازهر ووضع فيه خزانة كتب حافلة قد أخنى عليها الدهر فتفرقت شذر مذر وذهبت بها العوادى فلم يبق لها أثر اللهم الامجموعة الخشبيات التى لم يكن فى الامكان اختلاسها الابعد تفكيكها بحيث لاتعود منها فائدة لغاصب أو مسترق . وبهذه المثابة تجلت اليقظة الوطنية فى مصر مرة أخرى واخيرة فى ايام الامير رضوان الكبير صاحب القصبة المعروفة باسمه الى هـذا العهد وهي التى لاتزال الخيام والستور تصنع فيها على الطراز العربى الآخذ بالابصار . ذلك الامير رضى الله عنه كان ممن يجلون الادب وأهله ويعرفون قيمة العلم ويغدقون النعم على أربابه فقامت سوق المعارف في حكومته ثم انقضت بعد ذهابه الى ربه موفور الحسنات ، راضيا عنه

هاتان هما البارقتان الوحيدتان اللتان اذكرهما الآن في خلال ذلك الرقاد الطويل . وفيما خلاهما توالى ديجور الظلام الكافر .

لاح نجم جديد فاستضاءت به الآفاق وانتعشت برآه الارواح والابصار . ظهر محمد على الكبير . هو أحق انسان بان يوصف بانه مجدد مصر الحديثة ومعيد الحياة اليها . اذا ذكرنا اسمه خطر على ابالنوا اسم احمد بن طولون واسم يوسف صلاح الدين : ثالوث مجيد كان له الفضل واليه يرجع الفخار من اقالة مصر الاسلامية من عثرتها لم يكن محمد على الا رجل عمل مع أمية لازمته الى ما قبل وفاته بقليل من الاعوام فهو الذى زين مصر منذ مائة واربعين من السنين بتلكم المعاهد العلمية التى قضى الجد العاثر بأن يصبح اكثرها الآن وهو فى حيز العدم ، واأسفاه !

نعم ، لم يكن محمد على من لفيف العلماء ولكنه أحسن الى مصر بما هو خير وبما هو اكثر مما اتحفها به من سبقه على الاريكة من الملوك العلماء . كان سقى الله عهده يقرب ابناء مصر ويخصهم بكرامته ورعايته ويغدق عليهم العطايا والانعامات . كان يتعهد بنفسه تربية القريحة المصرية ويستثير النبوغ الوطنى ، نعم كان يستثير النبوغ الوطنى . فمن ذلك انه كان دائما يختار رجلا من ابناء البلاد لوظيفته ويضع واحداً منهم بجانب استاذ من كبار الاساتذة الذين يستقدمهم من الخارج لبث العلوم الحديثة والمعارف العصرية على ضفاف النيل ثم يخابل لاولئك المعيدين بما

يمده لهم من لوائح الكرامة الموفوره والحظوظ الممتعة أو من وسائل التنكر والارهاب لكى يخلفوا بحق واستحقاق أولئك الاساتذة الاغراب الذين قد أغراهم بالهيل والهيلمان الى الوفود على ساحته ولكن الى زمن موقوت والى ميعاد معين معلوم فكان بهذا الاسلوب ذى الحدين أكبر معوان على تقدم التعليم الاهلى وباللغة العربية . والشواهد حاضرة في الاذهان فلا حاجة للاطالة بذكرها

انى أكرر القول وأعيده بان محمد على لم يكن من العلماء . لكنه أنجب لمصر بطلا قوميا تباهى به الامم وتثبت لهم انها أهل لاحراز المعالى فى جميع ميادين الحياة الحرة ، وأعنى به القائد الاكبر الافخر ابراهيم باشا الذى طبقت شهرته الآفاق والذى قال أبونا رفاعه بك رافع في مدح أبيه الامجد حيث قال

فى كفه سيفان سيف عناية   والشهم ابراهيم سيف ثانى

نحن لا يعنينا الآن الاشارة الى ماجناه ابراهيم من ثمر الوقائع اليانع بالنصر من ورق الحديد الاخضر وانما نذكر ما يناسب موضوعنا من ان هذا الجندى الباسل كان أيضا فى طليعة كتيبة العلماء المحققين وانه كان من أفرادها المستنيرين الذى دلهم حب الكتب والغرام بها . فلقد جمع فى أسفاره الكثيرة شيئا كثيرا من الاسفار النفيسة عربية وتركية وفارسيه وكان على كل سرخد



القائد الاكبر الافخر ابراهيم باشا

كل واحد من هؤلاء المحاريب هذه العبارة (ملك ولى النعم الحاج ابراهيم باشا سر عسكر الخ . أو والى جده الخ .) أوغير ذلك من الالقاب ، بحسب المناصب والاوقات لكن الجد العاثر والحماقة قضيا بأن ورثته المباشرين آثروا ان يحتفظوا بما خلفه من الفدادين وأن يتخلصوا بثمن بخس دراهم معدودة من تلك الكنوز التى أورثها القرائح والافهام . فتفرقت هذه المجموعة النفيسة شذر مذر بل طارت على أجنحة الرياح الاربع

تلك الجناية تجددت مع الاسف مرة ثانية فى حضن القاهرة منذ خمس عشرة سنة تقريبا على أثر وفاة المأسوف على شبابه الامير محمد ابراهيم

ولقد لاذت طائفة من كل هاتين المجموعتين بدار الكتب السلطانية فى القاهرة وبالمكتبة البلدية فى الاسكندرية ودخل بعضها فى حرز صاحب هذه الصحيفة وفى أمان صاحبه المفضال وصديقه الجليل احمد تيمور باشا وذهب الكثير الى الخارج جريا على السنة التميسة التي قضى بها الجد العاثر على ما كان فى مصر المستقلة من خزائن الكتب العامة والخاصة ، وما كان اكثرهما !

ان الفتح العثمانى والحملة الفرنسوية التى أعقبته بعد قرنين تقريبا قد جرد كل منهما مصرنا الاسيفة من كنوزها العلمية



صاحب السمو الملكي الامير عمر طوسون

التى لاتقوم بثمن ثم تلاهما دور الاوربيين والامر بكيين فاستنزفوا ولا يزالون يستنزفون الى اوطانهم (وحكومتنا لاهية) معظم ما قد بقى مختفياً أو متخلفاً بوطننا من تلك الثروة العقلية الاهلية ليس فى قوانيننا ما يحول دون استمرار هذا التيار الجارف. لقد حان والله الوقت لايقافه بان ينتهى الامر بدولتنا المصرية (ولو بعد خراب البصرة) لحماية الثملة الضئيلة التى قد تبرز من مكامنها حيناً فحينا، كما فعلت بطائر الايبيس (أبو قردان) على الاقل. لقد حان والله الوقت لقيام حكومتنا الاهلية بما يلزم من وسائل التشجيع لحفظ الثمالة المصرية لمصر كما تعمل حكومات القوم فى اوربا للاحتفاظ بالزائد والفائض. لقد حان الوقت والله لان تستمع حكومتنا الوطنية لمن يناديها فتحتذي مثال فرنسا وانجلتره وبلجيكا وايطاليا فى صدار تشريع خاص بهذا المعنى يمتنع معه أو يتعذر خروج هذه الكنوز الى ماوراء البحار. هل من سميع ؟ أم هل تذهب هذه الصرخة بلا صدى فى الوادى، ويصح عليها قول المعرى: ولكن لا حياة لمن تنادى ؟

صحيح انه قد فات الاوان ولكني أتمثل بقول الفرنسيين الذي معناه ان «الامهال خير من الاهمال» فلعل حكومتنا الاهلية تنتهى فتبتدي فى أن تقتدى بما فعله الامجاد من نسل ابراهيم البطل الوطنى الذى عادوا لجمع الكتب القيمة ثم لم يكتفوا بذلك بل هؤلاء



صاحب العظمة السلطان حسين الاول

نحن نراهم تدرعوا بالعلم وأصبحوا لايتهيبون منازلة الاقران فى ميدان العرفان . وها بعضهم يعرضون بضاعتهم ورشحات اقلامهم وعصير عقولهم على رؤوس الاشهاد دون أن يقعدهم خوف التباحث والانتقاد . وأمامنا المثل الباهر فى هذه الحفلة الزهراء هذا المثل يذكرنا بما رأيناه فى ساحة الجمعية الجغرافية الخديوية منذ عشر سنوات . فقد قام فيها الامير ابراهيم حسن فأتى بالانكليزية والفرنسية خطبة ممتعة جامعة عن رحلته في جزيرة سرنديب (وأخشى ان أقول سيلان فى الظروف الحاضرة)

واذكر عمه ولا أنسه : فلقد أقام الامير ابراهيم حلمى أكبر وأفخر أثر لمصر والسودان، ذينك التوأمين اللذين لا يفترقان ولا ينفصلان بل تلك الوحدة هى كما يقال فى عرف القضاء (وولاة لا تتجزأ) ، اذ أتحف العلم بكتابه الوافى بذكر جميع المؤلفات التى تكلمت بكل لغات الارض عن وادى النيل من منبعه الى مصبه وهذا القاموس يقع فى جزئين ضخمين باللغة الانكليزية .

وأين الجنس اللطيف؟ أليس له اثر جميل فى هذا المعترك الذى تدور عليه حياة الامم الناهضة ان الاميرات المصريات يشاركن اخوانهن في هذه النهضة الشريفة التى ترمي الى تجديد الحياة العلمية فى مصر العزيزة على كل من الصنفين ، المولى ، ورب البيت : ان أعطر هذا النادى بذكرى الاسم المحبوب لدى جميع القلوب ، الذى



صاحب السمو الامير الجليل محمد على

له في كل النفوس مهابة ووقار . لقد أسميت بهذا الوصف سيدتي الاميرة (قدرية حسين مد الله في حياتها) : فقد جادت قريحتها الوقادة وانبعثت نفسها الممتلئة حنانا على الشرق وأهله بكثير من المصنفات، وكلها والحق يقال آية في بابها . يعرف ذلك ويشهد بصحته الكثيرون الذين قرأوا ما دبجه يراعها بالتركية والفرنسية ولقد كان لقراء العربية نصيب من التمتع بهذا السحر الحلال فقد ظهر في عالم المطبوعات ترجمة بعض الشيء من هذه الآثار على يد صديقي وزميلنا الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى يد تلميذي النجيب عبد العزيز الخانجي أفندي

هذا ولست أراني مفتئتا على ما امتاز به من التواضع رجلان من رجالات مصر المعدودين قد شرفا هذه الحفلة الجامعة . إن الامير الكبير محمد على قد أتحف الآداب العربية بأربعة من مؤلفاته التي ضمنها أسفاره في مشارق الارض ومغاربها . كتبها بقلم لا تستهويه أساليب التصنع والصناعة ، بل جعلها كمرآة صادقة لما دار في خلده وتملك نفسه وطرق وجدانه فجاءت تناجي القارىء بغير واسطة وتجعله شريك الامير الكاتب في حله وترحاله كأنما نشهد معه ما وقع عليه نظره ونتأثر بنفس ما تأثر به لبه وفي خلال ذلك روحه تشاطر روحنا في كل سطر مما خطه يراعه . ذلك لعمري لانه يكتب عن الشعور الذاتي والاحساس الشخصي



صاحب السمو الملكي الامير يوسف كمال الدين

وليس بناقل ولا بمترجم عن غيره لان ذلك الغير يكون أكثر علماً وأبعد نظراً ولكن له نفسانية وله مزاج يخالفان ماعليه القارىء الذي يخاطبه ممن كان صنوه فى اللغة والوطن والمشاعر والعواطف. ولقد طبع الامير رحلاته طبعاً ملوكيا ووزعها بسخاء على أصدقائه والمعجبين به وهم والحمدلله كثيرون . وها هو قد ناب بقلمه السيال وقلبه الفياض عن سميه الافخم وجده الافخر

تلك الخطة الحميدة قد سلك سبيلها القويم الأمير الجليل صاحب الايادي البيض على الفنون الجميلة العربيه ونصيرها الاكبر فى مصر فقد تولى الامير يوسف كمال طبع ما خطه يراعه بالعربية أيضا عن حوادث رحلته في كتاب لم يسعدني الحظ بالاطلاع عليه ولكنه ابتدع طريقة جديدة جميلة فى اسداء الاحسان الى المحاويج من قومه فأهدى الاربعمائة نسخة كلها الى ملجأ الحرية ذلك المعهد الخيرى الثابت الذى لم نصل رحمه نحن معاشر المصريين مما يضمن له القيام بالمهمة الانسانية التى أخذها على عاتقه لايواء نفر من بنى وطننا قد مسهم الضر وساورتهم البأساء وسيبيع الملجأ هذه النسخ وينتفع بثمنها كله لتخفيف بعض الآلام عن الانسانية المعذبة . وحينئذ يتاح للجمهور أن يعرف مزايا الامير الكاتب بعد أن سمع بمهارته فى مصايده الملوكية وبعد انه استظهر فضائله الجمة على الفنون



سعادة العالم البحاثة الاستاذ احمد زكي باشا

ان كنت المعت بهذه الكلمات الى هؤلاء الغر الميامين ونوهت بذكرى ذلك السلطان الجليل أعنى به السلطان الغورى (سقى الله عهده) فما ذلك الا لأنى أتخيل في حدود الافق منظراً خصيباً عما فيه الخيرات والبركات كمثل ذلك السائح الذى أعياه السفر فى قفر ليس له نهاية ، حتى اذا خارت قواه وخانه الجلد وأخذ يستسلم للقدر الغاشم ويستعد للموت الزؤام ، إذا به قد لمح على مد البصر روضة غناء بل واحة فيحاء يكتنفها البخار ويعلوها الغمام فيسرى فى نفسه الامل ، تتجدد قواه ، يعاوده شيء من الحياة . حينئذ تراه يضاعف المجهود كأنما نشط من عقال . فيهرع مهطعاً ويهرول مسرعاً وقد شدت أهدابه بالاجفان الى ذلك المطمح الغالى ، الى الحياة ! واذا به وهو حافة الينبوع الصافى الزلال ، تظله الاشجار وتتساقط عليه الاثمار .

فأين نحن اليوم ؟

— على مقربة من المرحلة التى سيعاودنا فيها ما كان لنا من الحرية والاستقلال

هاكم أربعة قرون ونصف قرن بمثابة البرزخ بين الغوري الاخير وبين جلالة الملك فؤاد الاول ! أربعة قرون ونصف قرن كانت بمثابة الهوة التى حفرتها يد الجد العاثر بين آخر سلطان لمصر المستقلة وبين السلطان الاول لعهد الاستقلال الذى ترنو اليه مصر

ونرجو أن تستعيده صحيحاً صريحاً وحقيقياً تاماً

ان مولانا جلالة الملك فؤاد الاول فى سجل الاستقلال الجديد قد توافرت لديه الوسائل التى توطد دعائم المركز السياسى الجديد تلك الوسائل هى الرجال النابغون من أمته المتفانون في الاخلاص لوطنهم ولاريب أن الذى بوأه الله مقعد ابن طولون وصلاح الدين والغورى ومحمد على لم يهمل العنصر المستنير الفكر لان الدول الجديدة انما تقوم بالرجال الافذاذ . وسيرى بجانب أمته عناصر عالية فى نفس بيته الكريم فيستفيد منها أجل الفوائد فى العمل الذي نحن مقدمون على مواجهته

فسلاماً سلاما على هذا العهد الجديد الذى نرى فيه أمراء البيت الملكى واقفين بجانب ابناء الامة وواضعين يدهم فى أيديهم (ويد الله من فوقهم) ليضمنوا الفوز الكامل للمطمح الذى ترمقه مصر الخالدة وليوطدوا بهذا التعاون الخصيب قواعد الاستقلال العلمى والفكرى في وقت واحد مع الاستقلال الاقتصادى والسياسى لتعود مصر الى سيرتها الاولى على عهد الفراعنة والفاطميين والايوبيين والمماليك الامجاد . والسلام عليكم ورحمة الله

احمد زكي باشا

- ١ -

السيدة خديجة

الناشر
حسين حسنين
صاحب المكتبة المصرية بشارع العشماوى بمصر

﴿مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر﴾

الفصل الاول

مسكين انت أيها الشرق ... انك لمظلم الجوانب ، قاتم النواحي في كل شأن من شؤنك ، تمر عليك الاعوام والاحقاب فتزداد حاجتك الى النور.

أيليق بأهل التوحيد ، بالقوم الذين يشع نور الاسلام من جوانب قلوبهم أن يطفئوا مصابيح العلم في ديارهم ، أيحسن بهم أن يدعوا دورهم وربوعهم في ظلام دامس وأن يفرّطوا فيما كان لهم من شرف الحال وجلال القدر ؟

كان المنتظر منهم أن يزيدوا الشعلة الكامنة في نفوسهم ضراماً لتشرق بأنوار العرفان وتسطع بأضواء العمران ولكن هيهات .. أضاعوا منزلتهم الأولى ومكانتهم السابقة في حلقات العلم وميادين الأخلاق .

كان لهم صرح ممرد من المجد والفخار ولكنهم أهملوه ولم يعملوا على تثبيت دعائمه . بل أخذوا يهدمون بأيديهم صرح سعادتهم ثم بدأوا بعد ذلك يتقهقرون عن ميدان العمل والنشاط خطوة فخطوة

أجل لقد فقد الشرق شخصيته الاولى ونسي كيانه وماضيه فتدهور غافلا من مصيبة لأخرى ، متسكعا في دياجير الظلام الى

أن هوى ، فهوى مجد الاسلام على أثره فى وهدة السقوط
كان التدهور مدهشاً خطيراً ، ارتعدت له أعصابنا وتولتنا من
أجله عوامل الارتباك . فتشتتت الآمال والرغبات وانقلبت
المشاعر والتأثرات رأساً على عقب .

لا نرتقب اليوم مدداً ولكننا لا نرضى أن نحيا بلا أمل .
فأين نجد السلوى ؟ وفى أي خزينة من خزائن الكنوز الخالدة
نعثر على الامل ؟ وبأى متاع مبهج مضىء نروح عن النفس
ليذهب عنها الحزن ؟

أية طريق نسلك ؟ أنمشى فى التجدد من طريق الفناء أم
نعود الى ذكريات أيام السعادة لنلمس وجه الحياة ؟

أنعمت النظر كثيراً فى هذه المسائل وقتلت الوقت بحثاً
ودراسة ، لاننى لم أشأ أن أبقى تحت عبء الضربة التى لحقت أمتى .
أردت أن أمسح عن نفسى غبار الايام المتداولة والاحقاب
المتطاولة فأخذت فى البحث والتنقيب - كما هو الواجب على
مسلمى عصرنا - عن وجوه الامل والتسلية حتى عثرت على ضالتى
المنشودة بين صحف الماضى .

فها أنذا أبدأ اليوم بهذا الواجب نحو العالم الاسلامي ، أبدأ
بتصوير ما عثرت عليه من وجوه التسلية والامل فى طيات تلك
الصحف لتكون دروس عظة واعتبار .

أول وجه من تلك الوجوه التي أتشرف اليوم بتصويرها هي الناصية الاولى التى أشرقت بنور الاسلام ، هي أول نجمة تلألأت في شرف سمائه ، فكانت نجمة الخير والامل ، نجمة البركة والفيض ! هي أمنا أم المؤمنين ، السيدة خديجة الكبرى

أما الاتصال بتلك الشخصية العالية والانجذاب الى جلالها في مثل هذه الايام السوداء لما يغمر جوانب النفس بما تصلها من أشعة البهجة والايناس . وعلى القارىء أن يدرك مايخالجني من المشاعر ، وما أكون فيه من طوفان معنوى وأنا أسرد لقرائى تلك السيرة الطيبة المملوءة بمعنويات خالدة .

سيدة النساء خديجة الكبرى ، نموذج من أطهر نماذج الاسلام وأعظمه خطراً وأجله شأناً، ومع ذلك فترجمة حياتها المباركة مبعثرة في صحف شتى وكتب عديده من كتب السير . ولذلك أرى أن التصدى لذكر سيرتها العبقه وشرح خلالها العطرة بالتطويل والتفصيل ، من دواعي الشرف لانها تاج فخارنا .

ادركت سيدة النساء أواخر عهد الجاهلية وكانت من أشرف نساء قريش نسباً وأوفرهن مالا وأرجحهن عقلا وأصبحهن وجهاً ، تجمع في تلك النفس العالية كل مزية مشرقه وخصلة باهرة (١) . أبوها (خويلد) من أشراف قريش ورجالاتها البارزة . أما أمها

(١) روضة الاحباب

(فاطمة) فيتصل حبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة وبذلك أصبحت ام المؤمنين أقرب الزوجات المطهرات الى الرسول نسباً .

كان لها مكانة سامية بين قومها لصباحة وجهها وجمال نفسها خطبها لاول مرة (عتيق بن عابد) فتزوجته ثم مات عنها فتزوجت شريفا آخر هو (ابو هالة) ، وولدت منه بنتا اسمها (هند) الا أنه لم يعش طويلا وترملت مرة ثانية (١)

ظلت ام هند فى نضارة الشباب (٢) تحف بها اسباب الرفاهة والعز ، تقطن منزلا فخما ذا طابقين وحولها العبيد والجوارى فترمقها الانظار وترمق ماهي فيه من عز ورفاهة ويتكاثر حولها

---

(١) علمنا من المراجع التاريخية التى كنا نستعين بها اثناء تعريبنا للكتاب أن السيدة خديجة تزوجت مرتين : تزوجت عتيق بن عابد المخزومى وتزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وولدت من هذا الاخير ولداً سمته هنداً على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور أحياناً اسماء الاناث، فهند هذا هو ربيب النبي صلى الله عليه وسلم أخو فاطمة الزهراء لامها عليها السلام قد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنه ابن اخته الحسن بن على حديث وصف النبى صلى الله عليه وسلم المشهور فى الشمائل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ماوصف به النبى صلى الله عليه وسلم وقد قتل مع علي كرم الله وجهه يوم الجمل

(٢) روضة الاحباب

طلاب يدها من أعيان قريش ووجوهها فترفض كل طالب من غير ان تفضل احداً على احد وقد كانت بعيدة النظر عالية الهمة ترسل اموالها فى تجارة الى الشام فى مواسم معلومة فتشترى ما يروق لها من امتعة الهند واليمن وسائر الامصار لتبيعها بالربح الجزيل ، فكان الداخل اليها يراها ترفل فى حلل فاخرة من منسوجات الهند ، ربة دار مؤثث بالرياش الجميلة والمقاعد الفخمة المطعمة بصنوف العاج والابنوس والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة فى تلك الايام

هبت عاصفة من عواصف الاضطراب فى نفس السيدة خديجة على أثر حلم رأته ذات ليلة ، فقد رأت فيما يراه النائم شمساً عظيمة تهبط الى منزلها من سماء مكة فيغمر ضوءها ما يحيط المنزل من أماكن وبقاع :

قامت من نومها مضطربة هائجة وسارعت نحو دار ابن عمها (ورقة بن نوفل) وقد كان حبراً عالما بتأويل الاحلام وتعبير الرؤيا وما كادت تفضى اليه بقصة رؤياها حتى أخبرها ووجهه يتهلل بشراً أن تلك الانوار علامة مجىء خاتم النبيين ودخولها المنزل ، أى دار بنت عمه خديجة دليل على أنها تتزوج منه .

للقارىء أن يتصور مبلغ التأثرات النفسية التى علكت ذلك القلب النقى الطاهر

اصبح خاتم الانبياء بعد هذه الحادثة محور آماله ومحط أفكارها . بدأت تفكر فى حلمها الجميل وتنتظر بكل ما اوتيت من صبر وجلد ، هذا النبي المعظم . وبينما نساء قريش مجتمعات فى عيد لهن بالكعبة الشريفة اذ تمثل لهن رجل من اليهود فلما قرب نادى بأعلى صوته :

— يانساء أهل مكة قد قرب ظهور خاتم النبيين فمن منكن ستكون زوجته ؟

فكذبنه ورمينه بالحصى وكانت بينهن خديجة فلم ترمه كما فعلن انما ظلت فى مكانها واجمة لا تستطيع حركة من كثرة ما انتابها من ضربات القلب .

رأت ما عملته النساء الاخريات فاجتهدت أن تملك روعها اذ كانت ترتعد ويرقص قلبها الطاهر وهى تفكر فى آمالها واحلامها .

هل ادرك النسوة اضطراب أمنا السيدة خديجة ، وهن ترمين الرجل بالحصى ؟ انها لبشارة عظمى ، أحلتها من نفسها العالية مكان الاجلال . انها لبشارة كبرى رأت العالم من ورائها فى طرفان من الانوار والاشراق

الفصل الثانى

لمحمد بن عبد الله ، أمين قريش وفخر الكائنات منزلة سامية فى نفس عمه ابى طالب ، تفوق مكانة أولاده . الذين من صلبه . كان يجالسه ويؤاكله ويأنس به كل الانس .

وهما فى مجلس من تلك المجالس ومعهما عتيقة اخت ابي طالب وعمة النبى وقد فرغوا من طعام العشاء ، فقام الامين الى شأن من شؤونه واذا بعمه يلتفت الى اخته يقول لها مدفوعا بعوامل الاعجاب والتقدير

ـ لقد شب محمد وصار رجلا وآن له أن يتأهل فماذا ترين فى ذلك ؟

فأجابت ؟

ـ انه فقير وخديجة مثرية تتاجر بأموالها وتؤجر أناسا يخرجون بتجارتها الى الشام فليتها تعطيه بعض المال فيتاجر به ويعمل على نمائه حتى تتوفر لديه نفقات العرس

فاستصوب العم هذا الرأى فاستدعي ابن اخيه وقال له :

ـ هاهى ناقتى أهبك اياها يا محمد وليتك تتقدم الى خديجة انها تفضلك على غيرك وترسلك مع رجال ركبها الى الشام فتؤب الينا رابحا[1] .

---

(١) روضة الاحباب

أما الامين فكان جوابه لعمه:

ـ اذا شاءت خديجة أرسلت تطلبني:

فادركت العمة من حوارهما أن محمداً لن يسعى في الامر بنفسه لما هو عليه من عزة النفس ولذلك عولت على أن تقوم هي بما يكفل النجاح. وقد تم لها ما ارادت، اذ أن خديجة ما كادت تسمع ما دار بين العم وابن اخيه حتى تذكرت رؤياها وداخلها سرور خفي لا تعلم مصدره. خيل اليها أن محمدا الامين هذا، هو خاتم النبيين فأجابت سؤال عتيقة وشفعت ذلك بطلب ارساله اليها.

عندما توجه الامين اليها كانت فى حلة أنيقة وعلى أريكة بديعة، فتحادثا طويلاً ولم يخرج من عندها الا على قبول منه بالسفر ورضى منها باعطائه ضعف ما تعطيه لغيره.

اغتبط النبي صلى الله عليه وسلم بحسن وفادتها له وجميل مقابلتها ونقل الى عمه مادار بينهما من الحديث فأجابه.

ـ أبشر برزق عاجل ساقه اليك المولى

المقابلة الاولى بين أمين قريش وفاضلة قومها خديجة كان لها أثر كبير فى نفس أمنا ام المؤمنين فقد امتدت الجاذبية الى قرارة نفسها فأحكمت عرى قلبها بسلوك السحر والدهشة. فملامح النبي وأطواره وكلماته السحرية العذبة نفذت

خلال قلبها الطاهر وألقت عليها وحي الحب الخالص كما تلقي الشمس أشعتها الاولى من خلال النوافذ وقت الصباح .

اشتهر النبي في ذلك العهد بصباحة الوجه وكرم الاخلاق وأدب النفس فاينما سار وحيثما أقبل قالوا «هاهو محمد الامين» (١) ولم يكن ذلك خافياً على السيدة خديجة فقد كانت تسمع عن أدبه الجم وجماله الرائع ولكنها في مقابلاتها الاولى له وهي تحادثه وتحاوره وتتملى من مشاهدة طلعته البهية انجذبت اليه بكليتها وتبطنت اعماق قلبها باحساسات خفية توحي اليها أنها أمام شخصية بارزة وأن الرجل الماثل أمامها بنظراته الحادة التي تأسر القلوب وتأخذ بمجامع النفس هو العظيم المنتظر ، خاتم الانبياء والرسل . (١)

نرى خديجة بعد ذلك تدعو عبيدها ومواليها لتعطيهم التعليمات والاوامر بشأن ركبها المسافر للشام ثم تعطف على مولاها ميسرة وقد كانت تثق به ثقة شديدة وتركن اليه في مسائلها الخطيرة فتوصيه بالامتثال الى محمد الأمين في أوامره والنزول عند رأيه أثناء الطريق (٢)

تهيأ الركب للسفر وأعد القوم معداتهم فالتحق النبي صلى الله عليه وسلم بهم في اليوم المقرر فسافروا على الطائر الميمون ووجهتهم

---

(١) الامير محمد علي

(٢) السيرة الحلبية

دمشق الشام . وقد حدث ما أثار اعجاب القوم واستفز دهشتهم ذلك أنهم رأوا غمامة تظلل رأس سيد الكائنات كلما اشتدت حمأة القيظ فتجعل طريقه برداً وسلاماً . فتهامسوا فيما بينهم عن سر ذلك وحكمته وهم الذين يقطعون الطريق ونيران الشمس تلفح وجوههم وتؤذى جسومهم . ولقد كان النبي متلطفاً معهم مقبلا عليهم بجميع ماطبع عليه من رقة الشمائل وكرم الاخلاق فافتتنوا به ايما افتتان . أما ميسرة ، مولى خديجة ، فكان لايدرى كيف يصنع ليجامل عزيز مولاته

أجل لقد سحر القوم بتلك الاخلاق الفاضلة وجذبهم الى نفسه العالية ونفذ الى خلال افئدتهم بمعنويته المشعشعة الباهرة ، حتى بدأو بسذاجة فطرتهم وصفاء قلوبهم ، يلمسون من خلال أطواره وحركاته ، ميزة خاصة لاتوجد فى غيره من الرجال .

كان لايزيد اذ ذاك عن الخامسة والعشرين ، لكنه كان اذا تكلم خلته شيخاً دربته الايام وحنكته التجارب ، وعندما وصلوا فى طريقهم الى مقربة من موقع يقال له (سوق بصرى) اناخ الركب ليستريح من وعثاء السفر فانتحى النبي صلى الله عليه ظلال شجرة[١] قريبة من موقعهم وجعل يجيل نظره فيما حوله متأملا متفرجا فتركه ميسره ليزور بعض معارفه فى المدينه وبينا هو فى الطريق

---

(١) السيرة الحلبية

اذا براهب من تلك الجهة يدعى نسطورا اقترب اليه وحياه سائلا عن الشخص الجالس تحت ظلال الشجرة فقال :

ـ من قريش من اهل الحرم فاجاب الراهب :

ـ لا ينزل تحت هذه الشجرة الا الانبياء . أفي عينيه حمرة ؟

ـ نعم

فهرول الراهب نحو النبي وهو يردد قوله

ـ ليتني ادرك وقت نبوته

وعند ما اقترب منه تأمله طويلا ثم عاين النقطة التي بين كتفيه وهي علامة النبوة وقفل بعد ذلك الى صومعته مسحوراً مأخوذ اللب على اثر ما وقف عليه وما تحققه من ان فتى القوم المتفيء ظلال الشجرة هو خاتم النبيين المنتظر .

***

ثم نرى النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحادثة الهامة منهمكا في تجارته منصرفا الى بيع ما بين يديه بدراية ونشاط يعودان عليه بربح طائل فوق ما كان يرجو ويؤمل

لم تكن هذه المرة الاولى في تجارته بل سافر قبلها مرتين في تجارة ومعه عمه ابو طالب ، الا أنه لم يربح فيها قدر الذي ربحه هذه الدفعة : فسر من فوزه سروراً عظيما حيث علم أنه يعود الى خديجة التي تلطفت معه كثيراً بربح وافر يقوم لديها مقام الذي

أسدته اليه ، فأسرع بالعودة الى مكة ليزف اليها هذه البشرى ، غير أن الابل كانت قد أنهكها السير واصبح اثنتان منها لا تقويان على الاستمرار مع الركب فلا مناص من الاناخة ريثما تستعيدان قواهما فأسقط في يد ميسرة ولم يدر ماذا يصنع لانه أراد التعجيل بالعودة حيث كان يرى انهم تأخروا كثيراً عن ميعاد عودتهم .

رأى النبي وهو يراقب القوم بسكون وهدوء ، ماهم عليه من ارتباك وقلق ، فقام نحو الابل ووضع يده الطاهرة على الناقتين التعبتين وقرأ بعض الادعية وما كاد ينتهي من دعائه حتى انتفضتا متأثرتين بمغناطيسية خارقة للعادة ودبت فيهما(١) روح النشاط ، سارية في تلك العضلات المنهوكة سريان النار في الهشيم وعاد الركب الى المسير بعد أن عاد النشاط الى الابل وسار القوم في طريقهم هادئين واجمين مطرقين ، وقد بهرتهم تلك المعجزة وسدت عليهم طرق التفكير . ماذا عساهم يقولون عن رجل يظهر مثل هذا الاعجاز ؟ ماذا عساهم يرون في رجل يزيل الاوصاب والمتاعب عن الاحياء بكلمة صالحة ينطق بها فمه ؟ انه الكمال المجسم ، انها القدرة تفوق قدرة البشر

رأوا منه مالا يصدقوه لوحدثهم به محدث . رأوا بأعينهم معجزة بهرت نفوسهم فأيقنوا تمام اليقين أن الشاب الذى

---

(١) السيرة الحلبية

رافقهم طول طريقهم بشخصيته البارزة ، خارقة من خوارق قريش .

كانت الاصالة ظاهرة فى تلك الشخصية العالية ، بارزة تتجلى فى سكونه وحركته ، فاينما سار وحيثما أقام اجتذب القلوب وسحر النفوس بنظرات فياضة ووجه مشرق ومزايا قل أن تجتمع فى انسان .

أدرك القوم من أهل الركب ، بأخلاقهم الصافية ونفوسهم الفطرية مافى احواله وأطواره من ميزة ظاهرة ، واعتقدوا أنه لايشابه احداً من الناس فى صفاته وأخلاقه وأنه خارقة من خوارق قريش . الى هذا الحد انتهت مداركهم ولوكانوا من ذوى البصيرة لعلموا أن رفيق طريقهم لم يكن خارقة من خوارق قريش وحدها وانما هو معجزة العالم بأسره ، هو من اختاره المولى لتبديد ظلمات الجهل المتكاثفة تحت سماء ذلك العصر ليصل بالناس الى الهدى ونور العلم والارشاد

عندما وصل القوم (وادى فاطمة) طلب ميسرة من النبى صلى الله عليه وسلم أن يتقدمهم الى خديجة فحث مطيته نحو مكة فلما وصلها سار توراً الى دارها . أماهي فكانت قلقة لغياب القافلة طول تلك المدة فتوسلت الى مولاتها نفيسة (١) أن تصعد معها

(١) علمنا من المصادر التى بين أيدينا أنها صديقتها وهى لعلى بن أمية

الى الطاق الاعلى من الدار لتحدثها وتسرى عنها بعض ما لها من القلق والاضطراب . ولما اشتد بها القلق قامت الى النافذة ترقب الطريق وتتأمل فيما حولها وبدها على مقعد بديع الصنع نظرت طويلاً الى المنفذ المؤدى الى مكة فلاحت لها فى الافق نقطة سوداء لم تتميزها فى بادىء الامر ، تقترب نحو مكة ثم تبينتها جيداً فعلمت أنها مطية يعلوها مسافر تقترب نحو دارها فادركت أنه الامين . وقد لفت نظرها وهى تتأمل قدومه ، غمامة تظلله مسرعة معه ولم يكن فى السماء وقتئذ سحب أخرى سوى تلك الغمامة التى لا تفارقه أينما توجه لتقيه حرارة الشمس فأثار المنظر مكامن الدهشة والاستغراب في نفسها الطاهرة .

وبعد ان وصل اليها النبى صلى الله عليه وسلم وافضى اليها بشرى ربحها الجزيل ، علا وجهها البشر والايناس وطلبت منه ان يعود اليها بميسرة فعاد ثانية الى مطيته يحثها نحو وادى فاطمة وقامت هى الى سطح دارها لتراقبه سائراً فى الصحراء والغمامة فوقه تنشر ظلال السلام حوله ، تقف ان وقف وتسير إن سار . ولما وصل ميسرة حكي لها ماراه من البراهين والكرامات (١) وما تعرفه فى صحبته من البركات مع حسن السمت والهدى والدل وبما قاله الراهب عنه فما لبثت ان تاهت فى بحار التفكير وكما لج

(١) السيرة الحلبية

بها الفكر انتقلت من حال الى حال .

ما شاهده ميسرة وقصه عليها آيات بينات على انه الرجل المنتظر ، الخالد الذى سيرفع من شأن العصر . وشهادة الراهب والسحابة التى رأتها رأى العين ، امور زادت من أفكارها وآمالها حتى أصبح ذلك الوجه المبارك المشرق لا يغيب لحظة عن أنظار خيالها . أما شبح تلك الشخصية الكبيرة فقد غمر لبها وقيد روحها بسلاسل الجاذبية الى ان استولى على عرش قلبها النبيل .

كانت تناهز الاربعين ، أى انها قطعت مرحلة لا يستهان بها فى طريق الحياة ولكنها مازالت فى نضارة الحياة ، عليها مسحة من الجمال . وكان اثر جاذبيته منذ المقابلة الاولى بليغاً راسخاً لم تتمكن من محوه والتملص من قيوده وقد زاد احتكاكها به أثر هذا الاحساس شدة ، كلما تقابلت معه بعد ذلك ، الى ان كان يوم عودته من الشام فاذا بتلك العاطفة وذلك الانجذاب قد تعمقا فى القلب ، وتشبثا فى الروح فتحولا الى حب شديد

لقد فتن الرسول الهادى ام المؤمنين بلطفه وشخصيته النافذة واخلاقه العالية ، فوهبته قلبها وتعلقت نفسها الطاهرة بسلك محبته بكل مافيها من قوة وجلد وما كادت يدها تصل الى هذا السلك النورانى حتى اهتز كيانها بقوة غريبة وانقلبت حياتها الهادئة الساكنة الى سلسلة من الايام ، حلقاتها دوائر الآمال والاحلام .

الفصل الثالث

جلست أم المؤمنين ذات يوم تغامر بحاراً من التفكير[1] والتأمل ، ثم انتفضت فجأة ونادت مولاتها نفيسة وقد تمكن منها الشوق الشريف كل التمكن ، وأخبرتها أنها سترسلها الى دار محمد ابن عبد الله فسألتها عن سبب الرسالة فأجابت

- لتعرف هل له ميل للزواج أم لا ؟

فقامت على أثر ذلك تزور محمداً في بيته .

جاءت نفيسة هذه ابن عبدالله وبعد حديث قليل قالت له :

- ما يمنعك أن تتزوج ؟

فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة . فاجابته :

- فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟

فلما سمع النبي ذلك أجابها،

- ومن هذه التي تصفينها !

فأجابته في الحال :

- خديجة بنت خويلد

فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

---

(١) روضة الاحباب

- وهل يصح مثل هذا الأمر ؟
- ماعليك انك لو قبلت أعدك باقناعها

قالت له ذلك وصمتت تنتظر ماسيبدو منه ولكنه ظل ساكتا لايجيب. فرجعت وقد رأت منه هذا الحال، تحمل الى سيدتها بشرى القبول.

كانت ميمونة النقيبة فى رسالتها فالله يعلم كم أجزلت السيدة خديجة كرامتها !... لقد نزلت هـذه البشرى برداً وسلاماً على قلبها فسرعان ماعينت موعد العقد فى الحال وارسلت نفيسـة الى دار الامين ثانيا، تخبره بالحضور اليها فى اليوم المعين فقبل الرسول ذلك مسروراً وبدأ الطرفان منذ ذلك اليوم فى معدات العرس.

كانت السيدة خديجة وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتقابلان قبل يوم الزفاف وقد استأذن الرسول ذات يوم عمه فى الذهاب الى دار خديجة فأذن له، ثم أرسل وراءه مولاته عتبة لترى ماذا يفعلان وفيم يتحادثان ؟ فتعقبته امتثالا لامر مولاها وكان النبي قد وصل قبلها، فأخذت السيدة خديجة يد الرسول صلى الله عليه ووضعته على صدرها فوق قلبها الخافق ثم قالت له بتأثر

- بأبى وأمى أنت اقسم أنى لا أفعـل هذا لريبة أو لسوء وانما اطلب من المولى أمراً أرجو أن يتحقق وهو أن تكون

نبيه المرسل واذا اختارك الله لهذا الامر الجليل عرفتَ قدري ورفعتَ شأني ودعوتَ الى الله من أجلي ... فكل ما أطلبه من الله هو أن يجملك لي .

فأجابها سيدنا محمد بقوله :

- والذي نفس محمد بيده لاتذكرن جميل صنعك معي اذا تم لك ماتشتهين واما اذا كان رسوله المختار غيري فانك تصلين الى غرضك ان شاء الله مادمت تفعلين كل هذا في سبيل الرسول

هذا مادار بينهما من الحديث نقلته عتبة الى مولاها ابي طالب كما رأته وسمعته .

الفصل الرابع

أقبل القوم من بنى هاشم يوم الاملاك - وهو يوم العقد - وفيهم كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم ، محمد بن عبد الله ، يحف به عماه ابو طالب وحمزة (١) فنزلوا من بنى عمهم اكرم منزل وأسناه ؛ حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو بن أسد ، عم السيد خديجة . وبعد ان اكتمل عقد اجتماعهم قام ابو طالب بن عبد الله ، سيد قريش وامامها فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ؛ وضئضىء معد (٢) وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمنا ، وجعلنا حكام الناس . ثم ان ابن اخي هذا ، محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل ، وأمر حائل وعارية مسترجعة . وهو والله بعد له نبأ عظيم . وخطر جليل ، وقد رغب اليكم رغبة فى كريمتكم خديجه ، وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشا (٣) . »

---

(١) السيرة الحلبية

(٢) ضئضىء الشيء معدنه (٣) النش عشرون درهما وهو نصف

ثم قام على أثر ذلك ابن عمها ورقة بن نوفل وهو الذى فسر لها رؤياها الجليلة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ماعددت. فنحن سادة العرب وقادتها . وأنتم أهل ذلك كله . لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم. فاشهدوا على معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله[1] . »

وكان ورقة فى موقفه هذا ، ينطق بلسان عمرو بن أسد ، عم خديجة فالتفت اليه ابو طالب وقال:

- ياورقة ادع عمها يشاركك فى العقد

فنهض عمرو بن أسد فقال :

« اشهدوا على معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد »

وهكذا صادق القوم على زواج النبى صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد . وكان الرسول جالسا بجانبها أثناء العقد فلما انتهت الصيغة طلبت اليه أن ينحر جزورا من

الاوقية ويروى انه اصدقها عشرين بكرة

(١) ويروى أنه انتهى من خطبته بقوله وقد جهزتها باربع مائة مثقالا ذهبا.

البكرات التى أصدقها عمه ابو طالب مهراً فذبح احداها فى الحال وأطعم القوم وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنين .

أما الرسول صلوات الله عليه فقد افعم صدره سرور حتى أن أبا طالب عند مالاحظ حالته الروحية حمد المولى كثيراً



الفصل الخامس

سعادة يالها من سعادة، تلك الحياة الطيبة الصالحة التى أمضاها النبي الهادي، فخر العالمين، مع سيدة النساء خديجة ام المؤمنين.
كانت خديجة فى بيتها مع زوجها الجليل، فخر الكائنات المثل الاعلى فى الموادة والموادعة والمواناة والترفع عن الكلفة وبذل المعونة، تقوم باداء واجباته وقضاء لوازمه بجلال خاص بها، وتجتهد فوق ذلك كله، بكل ما آتاها الله من ذكاء وفطنة وبكل ماجبلت عليه من شفقة ورقة أن تجمل أيام حياته بلذة ساحرة وأنس لا مثيل له.

كان النبي صلى الله عليه وسلم فى نظرها، شخصا فذا، يستحق العبادة والتقديس وما كانت تشاهده فيه من درجات الكمال يزيد من قدر صفاته النادرة ومزاياه الجمة رفعة. هذه الحالة الروحية دفعتها الى بذل النفس والنفيس فى سبيل مرضاته وما فيه سعادته وان تبدد بيدها الكريمة ماقد يتلبد في سماء حياته من سحب الهموم والاكدار

ان الاخلاق الفاضلة والصفات الحسنة الفطرية التى امتاز بها الرسول فى تلك الايام، فى بيئة عم فيها الجهل والميل مع الاهواء، لما يلفت الانظار ويستهوى الالباب

كان نبينا المعظم المثل الاعلى والمعجزة الكبرى في نظر الجميع، وليس في مقدور امرأة متوسطة الذكاء أن تشارك مثله في الحياة تقطع معه مراحل العمر

ولقد كان رسولنا الهادي ومرشدنا الاعظم موفور الحظ، سعيد الطالع، اذ رزقه الله امرأة كخديجة ذات شخصية عالية تدرك جلال قدره وعظيم استعداده ومواهبه، فيلتذ فكرها بمعنويته وتشاركه في نورانيته وتملأ بمهارتها كل جوفاء من حياته. كانت السيدة خديجة في نظره النغمة الحلوة التي لا تنساها الاذن والابتسامة العذبة التي لا يمحى خيالها من صفحة الذهن

مضت حياتهما المشتركة في وئام وسلام فقضيا خمساً وعشرين ربيعاً لم يعكر صفوها عتاب صغير أو نكد طفيف.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخص زوجته باحترام كبير(١) فلها في نفسه أسنى منزلة وفي قلبه أسمى مكان، لا فتأ يعترف بشكرها، حتى أنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج سواها، مع أنها كانت اكبر منه سناً، وله منها صلوات الله عليه وسلم ثمانية أولاد، أربعة ذكور وأربعة أناث وهم: القاسم والطيب والطاهر وعبدالله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

---

(١) كتاب السير للويسي

الفصل السادس

عنـد ما بلغ نبينا الهادى ومرشدنا الكبير فخر الكائنات ورسولها الخطير، الاربعين من سني حياته،[١] كان يرى الضوء والنور ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً. ثم صار يرى الرؤيا الصالحة فى النوم وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ولقد يئست روحه العالية من أن تجـد فيما حولها ما يروى أوارها من معرفة فاطرها الذى اشتد شوقها اليه، بل لعلها غاب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة فى كل رؤية وكل سمع ولذلك رأينا محمداً قد حبب اليه الخلوة والانفراد وكان لغار «حراء»[٢] الحظ من هـذه الروح الحائمة على حبيبها، تذكر الله وتطيل التأمل والفكر.

(١) قصص الانبياء

(٢) كانت عبادته فيه الفكر وقيل الذكر وهو الصحيح واختلفوا بأى الشرائع كان يدين تلك الايام فقيل بشريعة نوح وقيل ابراهيم وهو الظاهر وقيل موسى عليهم السلام وقيل غير ملتزم شريعة أحد وهو المختار لظاهر قوله تعالى: «وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان» واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنما ولم يقارف شيأ من قاذورات الجاهليه «المعرب»

ففي يوم من ايام عزلته وقد تناهى صفاء قلبه بما اعتمده من الخلوة ، انفض ختام السر المكنون وانكشف الغطاء عن الامر المصون ، جاءه الامين جبريل برسالة من الملك الجليل فألقى عليه الآية الأولى[1] من الكتاب المنزل

رجع الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم من «حراء» ممتقع اللون ، مرتجف الصدر ، يعلوه الاضطراب ، اضطراب الوجل الحائر وهو يقول

- زملوني زملوني

فزملته السيدة خديجة حتى ذهب عنه الروع وهي مستغربة لما حدث ثم فتح عينيه الشريفتين فقال لخديجة بعد أن قص عليه الخبر :

- لقد خشيت على نفسي

فاجابت

- والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق

وبعد أن هدأ روعه واطمأنت نفسه ، انطلقت به خديجة حتى اتت به ورقة بن نوفل ابن عمها فقالت له خديجة :

يا ابن عم اسمع من ابن اخيك فقال له ورقة :

- يا ابن اخي ماذا ترى ؟

---

(١) اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم

فأخبره الرسول خبر ما رأى ، فقال له ورقة :

- أبشر يا محمد أنت خاتم الانبياء الذى أخبر به عيسى بن مريم وهذا الناموس الذى أنزله على موسى ياليتنى فيها جذعاً[1] ياليتنى أكون حياً اذ يخرجك قومك وان يدركني يومك أنصرك نصراً

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

- أو مخرجى هم ؟

فأجاب :

- نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى

وكان ابن عم خديجة هذا قد شبع من الاعوام وارتوى من حديث الانام ، تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ورضى بدين ابن مريم (عليه السلام) دنيا وقد صدقت نبوءته وتحقق كل ما اخبره به .

فتر الوحي بعد ذلك فترة طويلة بعد ورود جبريل الروح الأمين فى المرة الاولى فكان النبي يعتزل فى الغار مترقبا لذلك الجسم المهيب بشوق عظيم ، ولكن بدون جدوى فيحزن لهذا الامر حزناً شديداً . الا أن السيدة خديجة التى كانت تقرأ صفحات قلبه وتعلم مكنونات ضميره وحالته الروحية تبذل كل ما فى وسعها لمواساته ودفعه الى الصبر والطمأنينة

---

(١) أى شاباً

كانت تؤيده وتؤازره وتشرح صدره وتخفف عنه أعباء الهم والحزن ، تجالسه وتعاشره لتبدد عنه سحب الشك والريبة ، تفاكهه وتحادثه برقيق الكلام وحلو الحديث مداواة لآلام نفسه ، تسوق اليه العظات والعبر تطميناً لخاطره

لقد أحبت بعلها حباً عميقاً كبيراً بلغ من عمقه وخطورة شأنه أن أحاط الرسول بسياج يقيه من كل شر أو أذى ، فكانت لروحه ظلاً ظليلاً ولقلبه برداً وسلاما . فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التى تساعد على استقبال أمور عظيمة لانها خلقت لتكون زوج ذلك الرجل الذى سيأتيه أعظم الامور تشد أزره وتأخذ بيده . أما هو فكان يقابل هذه الصداقة الخالصة باحترامها ومودتها وإكرامها الاكرام الجزيل

امتد أجل تلك الفترة الى ثلاثة أعوام مضت بين مرائر الشبهة وآلام النفس ، لم يتيسر للنبي الهادى رؤية جبرائيل عليه السلام اثناءها ، وانما كان يتراءى له ملك آخر هو اسرافيل يمده بالارشاد والتعليم .

ثم عاوده الروح مرة أخرى والنبي صلى الله عليه وسلم معتكف فى حراء، غارق فى بحار التأمل والفكر، وقال له :

« يا أيها المدثر قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر »

فكانت هذه الآية الشريفة مبدءاً للبعثة المحمدية وعلى أثرها تعلم الرسول الوضوء والصلاة ودعا السيدة خديجة الى الاسلام فآمنت به وكان وجهها أول وجه مبارك أشرق بنوره

وكثر تردده صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى (حراء) ونزول الآيات عليه وكان كلما نزلت آية قرأها على السيدة خديجة متثبت قلبه وتروح نفسه وتؤيد أمره . وجعل يدعو من يأتمنه من أهل مكة سراً الى أن آمن به كل أصدقائه ومحبيه ودخلوا فى زمرة الصحابة المكرمة حتى نزل قوله تعالى :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » فامتثل صلى الله عليه وسلم ما أمر به وأظهر دعوة الحق فكثر أنصاره واشتد حنق المشركين من قريش عليه فأجمعوا الشر له وعرض عمه ابو طالب للشر دونه، فلما رأت قريش ذلك، اجتمع أشرافهم ومشوا الى أبى طالب وقالوا له :

ـ ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا واما أن تخلى بيننا وبينه فانك على

مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه . فقال لهم ابن طالب قولا رقيقاً وردهم رداً جميلا . ومضى رسول الله على ماهو عليه فشرى الأمر بينهم وبينه حتى تولدت إحن وضغائن . ثم مشو الى ابي طالب مرة أخرى وأعذروا اليه فى أمر النبي صلى الله وآله وسلم واشتد قولهم فى ذلك فعظم عن ابي طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلانه النبي صلى الله عليه وسلم . ثم كلم الرسول فظن صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه تركه ، والعجز عن نصرته ، فقال:

- ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو اهلك فيه ، ما تركته

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً وكان ابو طالب يحب ابن أخيه حباً جماً ولم يكن قد اسلم بعد ، فما كاد يراه حزيناً حتى قام اليه ولحق به يقول

- يا ابن اخى قل ما احببت فوالله لا اسلمك لشيء ابداً وانا على قيد الحياة .

أما أمنا خديجة الكبرى فقد ضحت فى سبيل الدعوة كل مال ونفوذ فتؤازره وتثبت قلبه وتقوى حالته المعنوية لتنسيه ما يلحقه من اذى المشركين

كانت اذذاك فى الخامسة والستين من سني حياتها وكانت اكبر مسلمات مكة شأناً وأعلاهن نفوذاً . كانت منبع الامل الفياض ..

تسكب معانى النشاط والعزيمة فى روح بعلها المبارك . ولكن قد آن لهذا المنبع الطاهر أن ينقطع عن فيضه الغزير شيئاً فشيئاً حتى كان فى أواخر تلك السنين العشر الشداد من البعثة على سرير الاحتضار شخص عزيز جداً ! ترفرف روحه حائمة فى هذا المحيط الصغير الى ان كان جاذب من أمر الله وسنته قضى بطيرانها اليه وأمر الله أعلى واليه المصير .

هذه الروح ، هى روح السيدة خديجة ، تلك التى كان لانتقالها الى جوار ربها وقع الصواعق فى الدار النبوى ، تلك التى ماتت وتركت رسول الله فى حزن ووحشة

***

دفنت السيدة خديجة بالحجون فى مكة ونزل النبى صلى الله عليه وسلم فى حفرتها . وقد كان وفاتها عقب موت عمه ابى طالب فأثر فيه ذلك تأثيراً شديداً

كان يشعر بفراغ كبير فى الحياة ، ولم يكن اذ ذاك من يستطيع أن يملأ هذا الفراغ ، كان صلى الله عليه وسلم يقول عن زوجته أنها خير النساء فى الاسلام كما ان مريم خير نساء عالمها .

وقد اثنى صلى الله عليه وسلم على خديجة مالم يثن على غيرها وانى لأسرق هنا حديثاً مرفوعاً عن زوجته الثانية السيدة عائشة دليلا على مكانة السيدة خديجه ام المؤمنين من نفس زوجها اكرم الكائنات صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد على السيدة خديجة حتى خشى عليه، الى أن تزوج السيدة عائشة بنت ابى بكر بعد ثلاث سنوات من وفاة السيدة أم المؤمنين

قالت السيدة عائشة : « كان رسول الله صلى عليه وسلم لا يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها وكان اذا ذبح الشاة يقول ارسلوا الى اصدقاء خديجة ، فذكرها يوماً من الايام ، فأخذتنى الغيرة فقلت : هل كانت الا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ، فغضب ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها. آمنت اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ، قالت عائشة فقلت فى نفسى : لا أذكرها بعدها بسببه أبداً ، وذكرت ذات مرة فقال « اننى لأحب حبيبها ، الوفاء من الأيمان »

ها هو حديث السيدة عائشة ، كل كلمة منه آية بينة تنطق بعظة بالغه . فليس لى ما أقوله سوى أن من يتأمل قليلا فى سيرة هذه السيدة الطاهرة ، وفى محبة الرسول لها قبل مماتها واحترام ذكراها بعد وفاتها ، يدرك لاول وهلة ما امتازت به من شخصية بارزة ونفس عالية .

كانت تزيد عن النبي صلى الله عليه خمسة عشر سنة ، ولكنه مع ذلك أنزلها من نفسه المكانة السامية فى الحياة ، وحفظ جميل ذكرها

بعد الممات . فيالله من تلك الجاذبية الشديدة والشخصية العالية !
وهل أستطيع بعد ذلك كله الا أن أختم سيرتها العبقة بالحديث
النبوى الجليل :

الوفاء من الأيمان !



-٢-

السيدة عائشة

الفصل الاول

— الهجرة النبوية —

السيدة عائشة ، هى بنت ابى بكر الصديق ، من اعلام قريش عزة وجاها ، وأحد الاربعة المقربين الى الرسول صلى الله عليه فى الاسلام ، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية

عقد الرسول صلى الله عليه وسلم عليها فى العام الثالث من انتقال زوجه السيدة خديجة الى دار الخلد والبقاء . الا أنه لم يدخل بها فى عامه ذلك لان الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة اذذاك .

***

نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم تكن تطمع به فى حياة ابى طالب ، اذ كانوا يخشون بأسه ويهابون سطوته ، فلا يستطيعون اظهار البغض له علانية ، مع أن مراجل قلوبهم كانت تغلى حقداً عليه ، ونفوسهم الشريرة تضمر له ألوان السوء والكيد . ولما ماتت خديجة رضى الله عنها بعده بثلاثة أيام تضاعف حزنه صلى الله عليه وسلم .

فى مثل هذا الوقت العصيب ، أي فى الآونة التى اشتد فيها حزن الرسول صلى الله عليه على فراق هذين الحبيبين ، جهر المشركون بعداوته وأطلقوا العنان لحقدهم الكامن ، يثور ثورة البركان ،

حتى اصبحت الاقامة فى مكة على هذه الحال مشقة ليس بعدها مشقة .
بدأ المشركون يناوئون الرسول واتباعه المقيمين فى مكة ولا يدعون وسيلة من وسائل الاذى والاقلاق دون ايصالها اليهم ، وقد جربوا كل ما فى استطاعتهم من صنوف الكيد والاذى ، لارجاع النبي عن دعوته والحيلولة بينه وبين رسالة ربه الى الخلق ، فقد كان كل واحد منهم حريصا على الفتك به واستئصاله والفراغ منه لو يقدر على ذلك . وقد دام الحال على هذا الوجه من الشدة والقساوة ثلاثة اعوام ، فضاقت الصحابة ذرعاً ولم يروا بداً من الاتجاه الى المدينة المنورة ، فساروا الى دار السلام مهاجرين أرسالا أحادا وثلاثا

ومن الغريب أنه بينما كان المسلمون يلاقون مثل هذا الاضطراب فى مكة ، اذا بهم يتكاثرون ويحتشدون فى المدينة ، ولما كانت الدعوة قد وصلت كثيراً من القبائل وآمنوا بالرسول كانوا يكرمون وفادة المهاجرين فى طريقهم الى المدينة ويبذلون لهم المعونة والتعضيد ، ولم يتخلف من اتباعه صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبي طالب وابو بكر الصديق فانهما حبسا انفسهما على صحبة الرسول

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام ينتظر أمر ربه بالهجرة دون أن يظهر ذلك وكان ابو بكر رضى الله عنه قد تجهز للمهاجرة الى المدينة والح على النبي بأن يأذن له بذلك فقال له :

- « على رسلك وأني أرجو أن يؤذن لى »!

فاحتبس ابو بكر لذلك .

ولما رأت قريش مالقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من طيب الحال وحسن الجوار فى المدينة والمعونة ، التى بذلتها لهم القبائل التى آمنت ؛ رهبوا ذلك وحذروا خروج رسول الله وكان أخوف مايخافونه ، هجرة النبي الى المدينة فيلتف حوله عصبة من المؤمنين يكونون نواة قوة اسلامية كبرى ، فاجتمعوا في دار الندوة كعادتهم وتشاوروا فى أمره فقر رأيهم على أن يجمعوا من كل قبيلة شريرا فيقتلونه دفعة واحدة فيفترق دمه بين القبائل فافترقوا على ذلك بعد أن أقام الذين اختاروهم لهذا العمل على باب الرسول ، نخر الكائنات ، في تلك الليلة

الفصل الثانى

جاء جبرائيل الروح الامين ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقصد المشركين ، وبلغه أمر الهجرة واصطحاب أبابكر الصديق معه فقال النبي لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه

« نم على فراشي وتسجّ ببردى هذا الحضرى الاخضر فنم فيه فانه لن يخلص اليك شئ تكرهه »

ولما قعدوا على بابه لذلك ، خرج عليهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وبيده حفنة من التراب ، فجعل ينثره على رؤسهم وهو يتلو صدر سورة يس وبينما هم ينظرون الى بعض بعيونهم وقد آذاها التراب أتاهم آت فقال لهم : ماتنتظرون ؟ قالوا محمداً . قال لهم : خيبكم الله ، قد خرج والله عليكم محمد ثم ماترك رجلا منكم الا وقد وضع على رأسه ترابا فتفقدوا ذلك فوجدوه كما قال . ثم دخلوا منزل الرسول ونظروا الى الفراش فوجدوا علياً عليه السلام مسجى بالبرد ، فظنوه النبي صلى الله عليه وسلم فبقوا حينئذ متحيرين حتى أصبحوا ، فقام على عليه السلام فحين رأوه قالوا أين محمد ، فأجابهم بقوله لاأدرى ، فاشتدت حيرتهم

واسقط فى يدهم [1]

وقد أثر اختفاء الرسول على هذا الوجه فى نفوس المشركين وحنق لذلك وجوه قريش فأخذوا عليه بالرصد والطلب وأطمعوا من يجده ويأتيهم به بمائة ناقة وبذلك خرج الاشرار والسوقة فى اقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم .

أما الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ، فقد اختفى فى مكان بعد خروجه من منزله . وفى اليوم التالى أقبل نحو دار أبى بكر الصديق نحو الظهيرة متقنعا فاستأذن صاحب الدار كما تقتضيه الآداب الاسلامية فقام اليه ابو بكر رضى الله عنه يقول :

وانما هم أهلك قال :

ـ قد اذن لى فى الخروج . فسأله ابو بكر

ـ وهل نامعك ؟ قال :

ـ نعم

فبكى ابو بكر حينئذ فرحا وقال :

ـ بأبي أنت وأمى يارسول الله نخذ احدى راحلتى هاتين .

فأبى الرسول صلى الله عليه وسلم الا بالثمن . واستأجر ابو بكر دليلا ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه مكانا يبعد نحو ساعة عن مكة

---

(١) نزل فى ذلك قوله تعالى : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أويخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

وفي ساعة معينة من ساعات المساء خرج الرسول فخر الكائنات ومعه ابو بكر الصديق رضى الله عنه واعتصما بالغار في جبل ثور على مسافة ساعة من مكة، وما كادا يلجان الغار، حتى أوحى الله الى عنكبوتة فنسجت خيوطها على بابه وأعقب ذلك يمامتان بنتا عشا فوق خيوط العنكبوت وباضتا فيه .

وقد وصل القوم في بحثهم عنهما الى جبل ثور ، وقاربوا الغار ووصل جماعة منهم ، بينهم رجل يدعى اميه بن خلف باب الغار ، فقالوا لبعضهم : لندخل هنا ياقوم . فأجابهم أمية :

ما اسخف عقولكم ان العناكب قد نسجت خيوطها هنا ، قبل أن يولد محمد ، وانظروا الى اليمامتين لو كانا هنا لما أفرخت اليمامتان

فرجع القوم على أثر ذلك الا أن الرسول والصديق كانا قد ابصرا بأقدام القوم فاغتم ابو بكر لذلك وقال :

- لو أصابني بأس يارسول الله انما هو ذلك أما ولحقك ضر لا سمح الله فتهلك جميع امتك

فقال له الرسول يريد تسليته :

- لاتحزن ان الله معنا .

وعند ماقفل القوم راجعين وابتعدوا عن الغار قال له الصديق :

- يارسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا فقال :

- اسكت يا أبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟

مكث النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه في الغار ثلاثا يبيت عندهما عبد الله بن ابي بكر، وهو غلام شاب ثقف يدلج من عندهما وقت السحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، ثم يأتيهما حين يختلط الظلام ليخبرهما باحوال قريش وحركاتهم . وكان على مقربة من جبل ثور أحد موالي ابي بكر رضي الله عنه، يرعى قطيعا من الغنم فيأتيهما بحليبها يتغذيان به

وبعد الثلاث، جاءهم الدليل بالراحلتين فارتحلوا وأخذبهم من طريق السواحل وما زالوا كذلك حتى جاءوا موقعا يسمى (قديد) ومروا على خيمة رجل يسمى ابو معبد ولم يكن بها سوى زوجه وأمه فسألوا زادا عند (ام معبد) فلم يصيبوا عندها شيئا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاة في خيمتهم وسألها هل بها من لبن؟ قالت:

- هي أجهد من ذلك انما خلفها عن الغنم الجهد

فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها في شاتها فتفاجت عليه ودرت ودعا باناء يربط الرهط فحلب وسقاها وسقى أصحابه وشرب آخرهم ثم ملأه وغادره عندها .

ولما عاد ابو معبد الى خيمته ورأى الرهط سألها ماهذا فقالت لأدري انما حضر هنا رجل مبارك مسح بيده ضرع الشاة وهو يقرأ بعض الادعية فدرت لبنا كما ترى . فأجابها:

— لابد وأن يكون فى الأمر بعض الحكمة صفى له شكل هذا الرجل .

فوصفت له النبي صلى الله عليه وسلم وما رأته عليه من المهابة والجلال فقال : هو النبي الذى ظهر من قريش ليتني كنت هنا فابايعه على الايمان

*
* *

وبعد متاعب جمة ومصاعب شتى ومعجزات باهرات ، وصل الرسول صلى الله عليه وسلم قرية (قباء)[1] القريبة من المدينة المنورة ، فلبث فيها بضع أيام يستريح من وعثاء السفر وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد فى الاسلام ووفد عليه وهو مقيم بهذه القرية ، الانصار الكرام ، يتشرفون بنور طلعته ويهنؤنه بسلامة الوصول اليهم . وكان بينهم حسان بن ثابت ، شاعر المدينة المفلق ، فمدحه بقصيدة بليغة . ووصل سيدنا على الى زمرة الركب فى قباء بعد أن سلم ما كان فى عهدته من الأمانات الى أوبابها كما أوصاه الرسول ، وتحرك الرسول منها فى يوم الجمعة ومعه مائة نفر من اهل الاسلام فأدركته الصلاة فصلاها فى بطن وادى (رانوناء) وكانت

(١) قباء بالضم هى مساكن بنى عمرو بن عوف من الانصار وقيل لبث الرسول فيهم أربع عشر ليلة وقيل ثلاثا وقيل خمسا وأهل قباء يقولون أن مسجدهم هو الذى أسس على التقوى

اول جمعة صلاها بالمدينه (١) وختمها بخطبة بليغة قال فيها بعد أن حمد الله واثنى عليه :

« أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين ، بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فو الذى نفس محمد بيده ، مابعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار ، الا الجنة أو النار »

وبعد أن قرأ خطبة أخرى ركب يريد المدينة وكان كلما حاذى أو مر على دار من دور الانصار اعترضوه ولزموا بزمام ناقته يقولون : هلم يارسول الله صلى الله عليه وسلم الى القوة والمنعة » فيقول لهم

— خلو سبيلها فانها مأمورة

وقد أرخي لها زمامها وما يحركها وهي تنظر يمينا وشمالا والناس حولها حتى بركت حيث بركت على باب مسجده ، ثم ثارت وهو عليها ، فسارت حتى بركت على باب أبي أيوب الانصارى ، ثم

(١) ورد فى كتب السير أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ موضع مصلاه مسجداً وسمي مسجد الجمعة

التفتت يمينا وشمالا ثم ثارت و بركت فى مبركها الاول وألقت جرانها بالارض وأرزمت فنزل عنها وقال : هذا المنزل ان شاء الله تعالى

فاحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته . وعلى هذا الوجه الجميل أرضى الرسول جميعهم ولم يصدع خاطر أحدهم .

ولم يفرح أهل المدينة بشيء مقدار فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث صعد الرجال والنساء يوم قدومه فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون : جاء محمد . جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان قرب المنزل الذى نزل فيه رسول الكائنات قطعة أرض فضاء فشيد عليها مسجداً وابتنى فيه لنفسه المقدسة غرفا وكان أهل المدينة اذ ذاك فى طوفان من السرور لايدعون سبيلا من السبل التى فيها مرضاته الا سلكوه فآخى بينهم وبين المهاجرين فآووهم فى منازلهم وقاسموهم فى أموالهم وآثروهم بأقواتهم وتلقوا المكاره دونهم وصار أحدهم أرأف بنزيله وأخيه فى الدين من أخيه فى النسب واتخذوا ذلك الاخاء والولاء لحمة وسببا أعلى من كل سبب

بهذه النتيجة العظيمة ، وبهذه العاقبة الحميدة انتهت تلك الحادثه الخطيرة فى الاسلام . الهجرة

الفصل الثالث

(زفاف عائشة الصديقة رضى الله عنها)

عند ما وصل أهل ابى بكر الصديق رضى الله عنه الى المدينة ، نزلوا فى (بنى الحارث بن الخزرج) وفي الشهر الثامن من الهجرة النبوية ، قام الرسول ومعه جماعة من الانصار فشرف دار صديقه فى الغار ، ودخل على السيدة عائشة رضى الله عنها وقد كانت هذه الزوجة الثانية المباركة من أزواج النبي ، الصادق الوعد الامين ، صبية حسناء ذات نضارة ونضارة

واليك وصف حفلة زفافها من حديث لها قالت :

« تزوجنى النبي صلى الله عليه وسلم فأتتنى أمى وانى انى أرجوحة ومعى صواحب لى فأتيتها لا أدرى ماتريد منى فأخذت بيدى فأوقفتني على باب الدار فاذا نسوة من الانصار فى البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر فاسلمتني اليهن فأصلحن من شأني فلم يرعنى الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فاسلمتنى اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » (١)

(١) روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داوود والنسائي وفي هذا الحديث معان كثيرة منها استحباب الدعاء بالخير والبركة لكل من

وكانت معهما فى الحجرة (اسماء بنت) عمر فحدثت تقول :

— لم يكن فى وليمة السيدة عائشه من الطعام سوى قليل من اللبن ، شرب الرسول بعضه ثم مديده الكريمة بالاناء الى عائشة فخجلت ولم تتناوله فقلت لها لا تردى مايعطيه لك النبي صلى الله عليه وسلم وشربت اسماء ما تبقى .

على هذا النحو من البساطة والصفاء وقلة الكلفة تم زواج النبي صلوات الله عليه وسلم من السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها فى الشهر الثامن من الهجرة .

كانت عائشة صبية صغيرة ذات ملامح جذابة وكانت فى عنفوان الصبى حتى أنها فى اوائل زواجها كانت لم تقطع بعد عن لعبها مع صواحب لها . وهى فى انمكانها على ألعابها وانشغالها بعرائسها واذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يدخل غرفتها على حين فجأة ، فاستحيين رفيقاتها وتوارين فى الحال أما السيدة عائشة فرمت عرائسها على الفراش وأسدلت عليهن مئزراً ، فلعب الهواء بالمئزر وظهرت أطراف اللعب فاقترب الرسول منها وسألها ما هذا ؟ فقالت :

— هى لعبى

الزوجين وفيه استحباب تنظيف العروس وزينتها لزوجها واجتماع النساء لذلك وفيه جواز الزفاف نهاراً (المعرب)

وسلم مبتسماً ..

وكانت أم المؤمنين عائشة، لبيبة فطنه، شاعرة، خطيبة يلقبها الرسول صلى الله عليه وسلم بالحميراء، ويحبها محبة اكيدة، وكان من دواعي سروره صلى الله عليه وسلم أن يرضيها ويعمل مافيه سرورها، حتى توثقت محبته لها وازدادت مكانتها في قلبه الطاهر .

كان الرسول يصلح نعله ذات يوم وكان الحر قد بلغ اشده فتندى جبين الرسول وتلألأت قطرات العرق تتدحرج على خده . وكانت السيدة عائشة وهي تعجن الدقيق تشاهد هذا الحال بحيرة ووله فالتفت اليها الرسول يقول :

- ماذا دهاك ؟

فأجابت :

- لو رآك الشاعر عروة بن الزبير لكنت المعنى بقوله يارسول الله

فسألها اى قوله فأجابت حين يقول :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده   لما بذلوا في سوم يوسف من نقد

لوامي زليخا لو رأين جبينه   لآثرن بالقطع القلوب على الايدى

فترك الرسول مابيده وقام اليها يقبلها من عينيها وهو يقول مامعناه :

« قد سررتني، سرك الله ياعائشة »

وقال لها الرسول ذات يوم وهو جالس عندها (ما معناه) :

انني اعلم وقت غضبك من حيث تقولين اذ تحلفين ورب ابراهيم « اما اذا كنت راضيه عني فتحلفين برب محمد » فاجابت انني يارسول الله اذا غضبت اغفلت اسمك فأما حبي لك فلا يتغير.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقضي اكثر اوقاته بجانب زوجته المحبوبة عائشة، وكان الناس املا فى الحصول على رضى الرسول يتحرون بهداياهم يوم عائشة وكان الوحي ينزل عليه صلى الله عليه وسلم، وهو بجانبها، فلذلك كانت السيدة عائشة تشاركه فى تأثراته النبوية اذ كانت واقفة على دقائق احواله وحركاته وكل شأن من شئونه .

وقد شكا زوجات النبي من تحري المسلمين يوم عائشة لهداياهم فاجتمعن الى ام سلمة التي تقدمت بذلك الى الرسول ورجته أن يخطر الناس بذلك فقال لها :

ـ « لا تؤذونى فى عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا فى لحاف أمرأة منكن غيرها »

لم تيأس أم سلمة من هذا الاخطار النبوى، بل عادت الى تحقيق أملها و توسلت هذه المرة بفاطمة الزهراء التي جاءت الى ابيها تخبره بذلك الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألها هل تحبين من أحبه ،فلما ردت عليه بالايجاب قال لها اذن أحبي عائشة

قد كانت لعائشة منزلة سامية فى نفسه حتى كان صلى الله

عليه وسلم يقول لزوجته الطاهرة أن حبه لها كالعروة الوثقى، لا انفصام لها. فكانت السيدة عائشة تسأله من حين لآخر، اطمئنانا على مكانة هذه المحبة فتقول: كيف حال العروة يارسول الله فيجيبها: إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل. وقد أثرت تعاليمه العالية فى نفسها الكريمة وجدت منبتاً صالحاً حتى تشرب قلبها النبيل مبادىء الزهد والقناعة فكان عروة بن الزبير يقول عنها:

«رأيتها تتصدق بسبعين الف درهم فى سبيل الله وهي فى قميص خلق» وأخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت:

— «أتيت عائشة بمائة الف ففرقتها وهي يومئذ صائمة فقلت لها أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه فقالت لو كنت أذكرتني لفعلت»

***

للسيدة عائشة ميزة خاصة وشرف وجلال بين مخدرات العالم الاسلامى، لم تتوفر لسواها من السيدات فقد كانت أديبة لبية، عالمة، خطيبة، شاعرة، من أفقه الناس وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً فى العامة. وعنها يقول عروة بن الزبير

«مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة» ياله من فخار تحوزه السيدة عائشة، تلك التي استطاعت فى فترة كبيرة من حياة الرسول الشريفة ان تدخل عليه السرور والراحة

وتغمر قلبه بالغبطة والانس فكانت امام عينيه الشريفتين التمثال المجسم للسعادة. وما كان ينقصها فى حياتها تلك الا ان تكون امالثلا تحرم من التكنى باسم طفلها الا ان فخر الكائنات لم يدع سبيلا الى غمها من هذا القبيل فكناها بابن اختها عبد الله بن الزهير اذ كان قد درج فى البيت النبوى وشب بين احضان العائلة النبوية المطهرة.

افتتن الرسول بخصالها الممتازة فتعلق قلبه الطاهر بحبها حتى كان انس بن مالك يقول: «اول حب ظهر فى الاسلام حب الرسول صلى الله عليه وسلم وام المؤمنين عائشه» اما ام المؤمنين فكانت تتباهى بهذا الحب وتقول فضلت على نساء الرسول صلى الله عليه وسلم بعشر: فذكرت مجىء جبريل بصورتها، ثم قالت ولم ينكح بكراً غيرى ولا امرأة ابواها مهاجران غيرى، وانزل الله براءتي من السماء، وكان ينزل عليه الوحى وهو معي وكنت اغتسل انا وهو من اناء واحد، وكان يصلى وانا معترضة بين يديه وقبض بين سحرى ونحرى فى بيتى وفى ليلتى، ودفن فى بيتى

كانت من احب خلق الله اليه هى وابيها الصديق. كيف لا وقد اضاءت حياة الرسول بعلمها وجمال نفسها حتى صارت الجوهرة اللامعة فى عقد تلك الايام السعيدة المباركة. لقد كانت تاج الفخار فى زمانها وخزينة السرور لسيد الكائنات. فطوبى لتلك النفوس

العالية انتى تترك اثراً من السعادة والانس والصفاء فى محيطها التى تعيش فيه وفى الاحياء التى تشاركها والاشياء التى تلامسها ولقد تظل ذكرى تلك النفوس خالدة بعد زوال رسومها ، لتصور لنا جلال «الماضى» وتنفخ فى صورة «الحال» روح الخيال .



الفصل الرابع

(حديث الافك)

فى هذا الحديث وما أنزل الله فى شأنه عظة وذكرى لقوم يعقلون

فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة له مع قبيلة بنى المصطلق فى جهة (قدير) على مقربة من آبار (مريسيع)، وكان معه من نسائه [1] السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها، فلما قفلوا ودنوا من المدينة، آذن الرسول ليلة بالرحيل وكانت السيدة عائشة محمولة فى هودج، اذ كانت آية الحجاب قد نزلت. فقامت حين آذن بالرحيل ومشت لقضاء حاجة حتى جاوزت الجيش، فلما قضت من شأنها أقبلت الى الرحل ولمست صدرها فاذا عقد لها من جزع (٢) قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها وحبسها ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بها، فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركبه وهم يحسبون أنها فيه وكان

---

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه (المعرب)

(٢) بفتح الجيم وسكون الزاى خرز فيه سواد وبياض

النساء اذ ذاك خفافا، فلم يستنكر القوم حين رفعوا، خفة الهودج فاحتملوه وساروا ووجدت السيدة عائشة عقدها بعد ما استمر الجيش، فجاءت منزلهم وليس فيه أحد وتيممت منزلها الذى كانت به وظنت أنهم سيفقدونها ويرجعون اليها، فبينما هى جالسة غلبتها عيناها فنامت

وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها، فرأى سواد انسان قائم فاقترب منها وعرف أم المؤمنين حين رآها حيث كان يراها قبل نزول آية الحجاب، فاستيقظت السيدة عائشة باسترجاعه حين عرفها، وخمرت وجهها بجلبابها، فأفهمته حقيقة الامر فهوى حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها وانطلق يقود بها الراحلة الى ان أتيا الجيش

هنا يبدأ حديث الافك، وفى هذا الحادث أخذ أصحاب الافك يفيضون كما شاءت أهواؤهم السيئة وكان أشدهم نفاقا وأكثرهم خوضا، عبد الله بن أبى سلول ومن الصحابة حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وغيرهم، وقد تداول الناس هذا الحديث وشاع فى الاندية حتى بلغ مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق رضى الله عنه وأم رومان والدة السيدة عائشة وكانت السيدة أم المؤمنين لم تشعر بعد بما يفيض فيه الناس حيث ما كادت تصل المدينة حتى لزمت فراشها لحمى أصابتها وقد رابها

فى وجهها أنها لا ترى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كانت تراه منه حين تشتكي انما كان يدخل فيسلم ثم يقول

ـ كيف تيكم[1] ؟ ثم ينصرف

كانت هذه المعاملة تريب السيدة أم المؤمنين ، ولا تشعر بالشر حتى نقهت ، فخرجت هي وأم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزهم وكانوا لا يخرجون الا ليلا وذلك قبل اتخاذ الكنف قريبا من البيوت ، فأقبلت هي وأم مسطح حين فرغا من شأنهما يمشيان ، فعثرت ام مسطح فى مرطها فقالت

ـ تعس مسطح . فقالت لها السيدة عائشة

ـ بئس ماقلت أتسبين رجلا شهد بدرا

فقالت :

ـ ياهنتاه ألم تسمعي ماقال ؟

فسألتها السيدة عائشة ماقال . فأخبرتها بقول أهل الافك فازدادت مرضا على مرضها ولما رجعت الى البيت ودخل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لها كعادته

ـ كيف تيكم .

قالت له :

ـ أتأذن لى ان آتى ابوى

---

(١) تيكم بكسر الفوقية إشارة الى المؤنث مثل (ذلكم) للمذكر

فأذن لها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما أتت الى بيت أبيها قالت وهي ترتعد :

ـ يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به

فقالت :

ـ يابنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلّ ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها .

فقالت :

ـ سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟

ثم بكت السيدة عائشه تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وكان ابو بكر رضي الله عنه اذ ذاك في في الطابق الاعلى مشغولا بتلاوة القرآن فما كاد يسمع بكاء ابنته ونوحها حتى نزل اليها وطيب خاطرها قائلا :

ـ صبراً يابنية عسى أن ينزل الله في شأنك آية

وقد زاد من حيرتها كتمان الامر عنها ، فازداد مرضها حتى أصبحت لاتستطيع القيام من فراشها .

ولما بلغ الامر الى رسول الله عقد مجلساً من أهله وأصحابه المقربين، يستشيرهم، وكان بينهم (على بن أبي طالب) و (أسامة بن زيد) وسيدنا عمر وعثمان وغيرهما من كبار قريش وبعض السيدات، وكان من عادة الرسول أن يعقد مثل هـذه المجالس.

العائلية كلما قضت الضرورة بذلك . فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال :

ـ هم أهلك يارسول الله ولا نعلم بهم والله الا خيراً

واما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال :

ـ يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال

ـ أى بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟

فقالت له بريرة

ـ لا والذى بعثك بالحق نبياً ان رأيت منها امراً أغمصه[1] عليها اكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن[2] فتأكله

أما سيدنا عمر الفاروق فقد أجاب بوقار ورزانة ما معناه أن الرسول قد تزوج عائشة بأمر الله وأنه لا يريبه شيء من عائشة وقال عثمان ان هذه الاشاعة من اعمال المنافقين وانه لا يصدق شيئا من ذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول فقال وهو على المنبر :

---

(١) أغمصه بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة أى أعيبها به

(٢) الداجن بالمهملة والجيم الشاة التى تألف البيوت ولا يخرج الى المرعي

«من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت في أهلي الا خيراً ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه شراً وما كان يدخل على أهلي الا معي»

فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الاشهل فقال

- يارسول الله أنا والله أعذرك منه . ان كان من الاوس ضربنا عنقه وان كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ :

- كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على ذلك

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال معاذ لسعد بن عبادة :

- كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين .

وتبادر الحيان، الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

ولما وصل الخبر الى السيدة عائشة بكت يومها ذلك، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ثم بكت ليلتها المقبلة فأصبح عندها أبواها وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى ظنت ان البكاء فالق كبدها

وبينما أبواها عندها وهي تبكى إذ استأذنت امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكى معها، وبينما هم على تلك الحال ،اذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فسلم ثم جلس ولم يجلس عندها من يوم قيل لها ماقيل وقد مكث شهراً لا يوحى اليه فى شأنها بشيء فتشهد رسول الله حين جلس ثم قال :

ـ أما بعد ياعائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته استمصى دمعها لاستعظام ما بغتها من الكلام وقالت لأبيها .

ـ أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال .

قال أبوها :

ـ والله ما ادرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفتت لأمها تقول مثل قولها لابيها فأجابتها كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فالتفتت اذ ذاك السيدة عائشة وأجابت بقولها

ـ إنى والله لقد علمت انكم سمعتم ما تحدث الناس به حتى استقر فى نفسكم وصدقتم به فلئن قلت انى بريئة والله يعلم انى لبريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى

منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لى ولكم مثلا الا ابا يوسف اذ قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»

وبعد ان أتمت مقالتها تحولت فاضطجعت على فراشها وهى تعلم انها بريئة وان الله مبرئها ببراءتها وقد حدث ما كانت ترجوه فان الرسول صلى الله عليه وسلم ما فارق مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى انزل الله عليه الوحي ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (١) حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) من العرق في يوم شات (٣) من ثقل القول الذى أنزل عليه ، ثم سرى عنه وهو يضحك . فكان أول كلمة تكلم بها أن قال :

ـ ابشرى ياعائشة اما الله فقد برأك

فقالت لها أمها قومى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابت

ـ لا والله لا أقوم ولا أحمد الا الله هو الذى أنزل براءتى

وكان ما أنزله الله عز وجل «ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم» العشر الآيات من سورة النور فى براءة السيدة عائشة وقد أراد الرسول صلوات الله عليه أن يأخذ بيد عائشة ، الا انها رفضت محتدة ، حتى انتهرها ابو بكر والدها . اما الرسول فسار من وقته الى المسجد وجمع اصحابه الكرام وقرأ عليهم خطبة جامعة وتلا عقبها سورة النور

---

(١) الشده والضيق (٢) اللؤلؤ (٣) شدة البرد

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينفق على «مسطح بن أثاثه» لقرابته منه وفقره . فقال . والله لا انفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشه ما قال فأنزل الله تعالى . «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة» الى قوله «غفور رحيم» فقال ابو بكر

- بلى انى والله لا ُحب ان يغفر الله لى

فأرجع الى مسطح ما كان ينفقه عليه . وجمع الرسول عقب نزول آية البراءة أصحاب الافك وأمر بحدهم للقذف .

***

قد سبب عقد السيدة عائشة هذا ، قيلا وقالا ، حتى لم يبق أحد لا يعرف قصة هذا العقد المكون من احجار اليمن ، وكانت أم المؤمنين عائدة مع رجال الجيش من غزوة اخري فنزلوا في موقع قريب من المدينة يدعى (صلصل) ففقدت عقدها مرة ثانية فاهتم الرسول بالامر وأوقف جميع القافلة للتحرى عنه ، مع أنهم كانوا فى موقع قاحل لا ماء فيه ولا نبات ، فعطش رجال الجيش ولم يجدوا ماء للوضوء ولحقهم كرب شديد وقد بحثوا كثيراً دون جدوى حتى اضطروا للقيام الا ان أم المؤمنين عثرت عليه تحت راحلتها (١) فغضب رجال القافلة وشكوا ما لحقهم من الضر الى أبيها ابى بكر الصديق رضى الله عنه . فاستفزته الحمية وقام من

(١) السيرة الحلبية

فوره يقصد بيت الرسول لينهر ابنته وليضع حداً لحوادث العقد، تلك الحوادث التي تتكرر وتوجب الاضطراب . وما كاد يصل حيث يريد حتى وجد الرسول نائماً على ركبة ابنته أم المؤمنين فاقترب منها وبادرها بالتوبيخ وقارص الكلام وهي ساكتة : لا تبدي ولا تعيد ، احتراماً للرسول صلوات الله عليه وسلم وهو في تلك الحالة . إلا ان الرسول سرعان ما بشر ابا بكر بنزول آية التيمم وعندما تلاها على أصحابه الكرام علموا أن السبب في نزولها هو أبو بكر رضي الله عنه .

من أحب انساناً أحب حبيبه . فكم جيداً زينت تلك العقود المصنوعة من جزع اليمين ! . ولكنها كانت أمتعة للزينة ، ليس لها أثر من ذكرى التاريخ ، فظلت مهملة الذكر في صحائف الحوادث

قد تكون للحلى أيضاً درجات من الميزة بقدر ما يكون للتأثرات والمشاعر من الاهمية بالنسبة لموقع اصحابها في الحياة ان حوادث ايا منالها من الأهمية والمكانة بقدر الاهتمام الذي يبذله اصحاب هذه الحوادث نحوها . ففقد السيدة عائشة كان حلية ذات قيمة بقدر امتياز السيدة نفسها وخطرها في الحياة والا لما كان شغل صفحة كبيرة من التاريخ الاسلامي

الفصل الخامس

(حجة الوداع)

قد زال ما كان بين الرسول وزوجته من الجفاء بسبب حادثة العقد، فعاشا فى انس عميق وراحة حقيقية. كانت السيدة عائشة الانيس الوحيد لروح الرسول فلم يعتور حبه لها ادنى شائبة فى وقت من الاوقات. لم تبد سحابة واحدة فى سماء سعادتها، منذ السنة السادسة حتى الحادية عشر من الهجرة لقد وقفت حياتها فى سبيل الرسول وبذلت ذات نفسها وذات مالها فى طريق الدين وفى سبيل ايصاله الى درجة الكمال

اما الاسلام فكان آخذاً فى الانتشار والشيوع بسرعة مدهشة محيرة للعقول. وكما ان الزهرة الطيبة التى يتعهدها المرء بالتربية فى ارض خصبة لا تلبث ان يعبق اريجها العطر مع الريح، كذلك الاسلام كان يذيع ويشيع فيستدفى الممالك والأمصار ويستولى على القلوب فيشتد نفوذاً وتشبثاً يوماً بعد يوم.

كان لأريجه اثر سحرى، يجذب القلوب ويأسر النفوس، فيكبلها بروابط وثيقة لا ينفصم عراها. فأخذ عدد الاتباع يزداد بسرعة تفوق حد الوصف وخاضوا غمار غزوات عديدة فى سبيل

تأييد كلمة الله ، خرجوا منها ظافرين غانمين تخفق فوق رؤوسهم ألوية النصر

رسخت عقيدة الاسلام فى تلك القلوب الصافية وقوى ايمانهم فاندفعوا بقوته الى الأمام يحطمون ما يعترض سبيلهم من حواجز وموانع

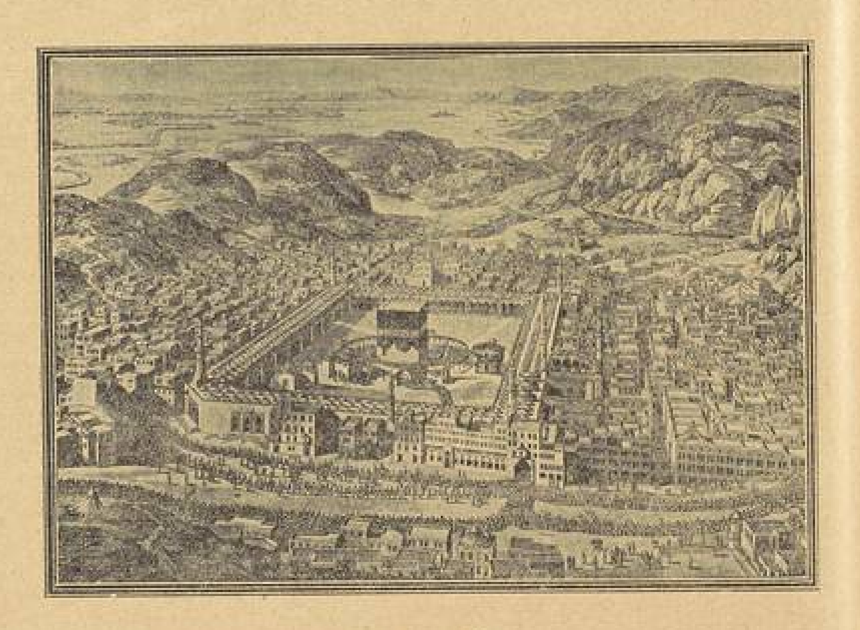
ووقفت المدنيات القديمة حيرى، أمام هذه العقيدة الجديدة ، لا تبدى ولا تعيد ، ثم مالبثت أن طأطأت لها الرأس ومدت لها يد الاخلاص والأمان . كان التيار جارفاً فلم يستطع أن يقاومه الا القليلون

فى مثل هذا العهد الزاهر من الدعوة الاسلامية، أى فى السنة العاشرة من هجرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، أعلن الهادى ، فخر الكائنات أتباعه أنه سيزور مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فتوافدت القبائل والعشائر من الجهات زرافات ووحدانا على المدينة المنورة ، ينتظرون اليوم الموعود . ولأيام قلائل خلون من ذى الحجة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى الطريق بعد صلاة الظهر ومعه أهل بيته وأصحابه وأربعون ألفاً من حجاج المسلمين ، فوصل مع هذا الجمع الحاشد الى مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة وبعد أن ابتهل الرسول صلى الله عليه وسلم الى ربه وطلب المغفرة وحسن المآب تقدمت اليه القبائل الوافدة من

الجوار الأخرى فأدوا الجميع فريضة الحج

لاحظ الرسول أثناء سفره أن البعير الذى يحمل هودج السيدة عائشة يسير بسرعة كبيرة لخفة جسمها ولقلة أحمالها ، بينما كان البعير الحامل لزوجه الأخرى السيدة صفية ، يسير ببطء وهوادة لسمنها ولكثرة أحمالها فأمر الرسول بأن ينقل حمل السيدة عائشة الى رحل السيدة صفية وأحمال هـذه الى رحل الأخرى جاء الى عائشة يستسمحها لهذا العمل فغضبت من ذلك وأجابته بكلمات قاسية فلم يجاوبها الرسول الا أن الحادثة وصلت مسامع أبى بكر فهرول نحو ابنته وصفع خدها فما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يري هذه المعاملة القاسية حتى آخـذ صديقه فأجابه ألم تسمع ما قالته لك فأفهمه فخر الكائنات أن الذى دفعها الى ذلك هو غيرتها وأن المرأة اذا غارت لاتدرى ماتقوله بل تكيل القول جزافا . وكان يوم عرفات يوم الجمعة فأدى الرسول فريضة الحج مع مائة ألف ونيف من المسلمين وعقب الصلاة خطبهم هذه الخطبة البليغة :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهـد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ،وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خـير . أما بعـد أيها



مكة المكرمة

الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وأن ربا الجاهلية موضوع ، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وأن دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة أو السقاية . والعمد قود [1] وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ان النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والارض . وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض ، منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت اللهم أشهد ايها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم

---

(١) القود القصاص ، أى القاتل عمدا يقتل

عليهن حق : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً الا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدي كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما إن اخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ربكم واحد وان اباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »

***

قد استمع جمع حاشد من المؤمنين هذه الخطبة وكان عددهم كبيراً ، فلا يصل صوته المبارك الى جميعهم فأخذ ربيعة بن امية أحد أصحابه الكرام ، يكررها عليهم بصوت جهير

وبعد الانتهاء من الخطبة أذن بلال ثم أقام صلوات الله عليه وسلم الصلاة وصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر وفي مساء ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً . » . قالوا ولما نزلت هذه الآية علم أبو بكر بقرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فبكى .

وبعد أن خطب الناس وألقى على جماعة المسلمين نصائح عديدة سواء أفي مكة أم في طريقه الى المدينة أنبأهم صلى الله عليه وسلم وهو في موقع قريب من المدينة بقرب صعوده الى الرفيق الاعلى وعند وصوله الى المدينة ، مرض الرسول مرض الموت وأول ذلك أنه خرج من جوف الليل الى البقيع فدعا للأموات واستغفر وتضرع كالمودع وأصبح مريضاً من يومه .

ولما رجع من البقيع وجد السيدة عائشة تتوجع من صداع ألم برأسها وهي تقول :

- « وارأساه : »

فقال لها الرسول :

- ذاك لو كان وأناحي فاستغفر لك وأدعو لك

فقالت :

ـ واثكلناه والله انى لأظنك تحب موتى ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك

فابتسم الرسول وبذلك تمكنت من ادخال بعض السرور على قلبه .

وكان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فكان يدخل يديه للماء فيمسح بها وجهه

كان الرسول هادئا ساكنا فى أشد أوقات مرضه ، ينام باهتا مغمضا ثم لا يلبث أن يفتح عينيه الشريفتين فيدعو ويستغفر وكانت السيدة عائشة تلازمه على الدوام ولا تفارقه لحظة واحدة وكان وهو على ركبتها يسمع بلالا مؤذنا للصلاة فيقوم بقدر جهده وطاقته يصلى بالناس ولما اشتد عليه وطأة المرض ، وكان ذلك قبل وفاته بثلاثة أيام ، عجز عن الخروج الى الصلاة واجتمع الناس فى المسجد وأذنوه بها فهم بالخروج فعجز فقال : (مروا أبا بكر فليصل بالناس) فصلى بهم أبو بكر رضى الله عنه حتى اذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول والمؤمنون صفوف فى الصلاة كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم ستره الحجرة فنظر اليهم وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم ضاحكا فبهت الصحابة وهم فى الصلاة من شدة ما نالهم من الفرح بخروج رسول الله صلى الله

عليه وسلم ونكص ابو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن الرسول خارج للصلاة فأشار اليهم بيده الكريمة أن أتموا صلاتكم وعند مادخل الرسول صلى الله عليه حجرة عائشة فى يومه ذلك نام متمدداً واضعاً رأسه الشريفة على فخذها ولما جاءه جبريل يستأذن فى دخول عزرائيل عليهما السلام غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الاعلى فأتم الملك أمر ربه ورفع تلك الروح العالية الى أعلى عليين ، حيث الرفيق الاعلى وهى فى حضن زوجه ام المؤمنين وما كادت تشعر بذلك حتى أجهشت فى البكاء .

الفصل السادس

عند ماتوفى رسول الله صلى عليه وسلم ، كانت أم المؤمنين عائشة فى الثامنة عشرة من سنى حياتها ، فانزوت فى كسردارها مع جواريها تقطع مراحل العمر فى هدوء وسكون وتفنى دقائق الحياة في تلاوة القرآن وعبادة الديان .

كانت على جانب كبير من الذكاء ، تلم بمسائل كثيرة من الفقه كما أنها على نصيب وافر من سائر العلوم كانت أحب زوجات الرسول وقضت معه شطراً كبيراً من الحياة فلاغرو اذا وعت فى حافظتها ما كانت تسمعه وتراه من ضروب الاحكام الدينية والمعاملات الشرعية ولا عجب اذا رأينا الصحابة وعيون الانصار يتخذونها المرجع فى أحكام الدين ومسائل الشرع الشريف ، وقد ضربت بسهم وافر في الفتاوى الشرعية ، فكانت اذا ذكرت أمام (عطاء بن أبى رباح) قال

« كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة » وعنها يقول عروة : « مارأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة »

بلغت الاحاديث التى روتها السيدة عائشة ألفين ومائتين

حديثا وعشر . من ذلك مائة وسبعون حديثا أجمع الاتفاق عليه وأخذ منها البخارى أربعة وخمسين حديثا

أما فضلها وحسن رأيها فيكفى أنها كانت المرجع لأمثال عمر ومن اليه من فحول الصحابة أما فصاحتها فيكفى أن يزكيها مثل معاوية بقوله « لم أسمع خطيبا أبلغ ولا أفصح من عائشة » وقال بن قيس : « سمعت أبا بكر وعمر وعليا وعثمان بن عفان فلم أجد في أقوالهم الجزالة والعذوبة التى تترقرق فى كلام عائشة » وكانت تروى الشعر وتعلم وقائع العرب وحروبهم وسيرهم حتى أنه ما كان ينزل بها شىء الا أنشدت فيه شعرا . وفى حديث للنبي صلى الله عليه وسلم عن أبي موسي أنه قال : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وعند ما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت المال فى زمان خلافته وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول صلي الله عليه وسلم فكان يعطى كل واحدة منهن عشرة آلاف درهم الا عائشة ، فقد جعل لها اثنى عشر ألفا . وقد عارض بعض الناس فى هذا الامتياز الصادر من رجل العدل عمر ، دون أن يفهموا الغرض منه وسألوه عن السبب فأجابهم : « ذلك لأن عائشة كانت محبوبة الرسول »

أما هى فكانت تبذل مالديها من مال ونشب فى وجوه البر والخير وتهوين حاجات أهل العوز والمساكين ، وفى سبيل اعلاء

كلمة الدين

كانت تزور الكعبة فى كل عام ثم تعود الى المدينـة فهذه الزيارات التى دامت الى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة هى فترات الحركة فى حياتها الساكنة فقد مضت أيام حياتها على نسق واحد من النظر فى شئون الخير والاحسان ومن التفرغ الى العبادات وحل مايستعصى على المسلمين من الاحكام والمعاملات

كان لأهل المدينة عاطفة حب شديد واحترام عميق نحو شخصها المحبوب اذ كانوا يقدرون ذكاءها ويباهون بحسن رأيها ويرون فى زوجة الرسول المعززة بين ظهرانيهم ، الذكرى الخالدة التى تذكرهم بأيام السعادة

الفصل السابع

(وقعة الجمل)

كانت عائشة (رضى الله عنها) قد خرجت من المدينة الى مكة ، ليالى حوصر عثمان بن عفان ، ثم رجعت من مكة الى المدينة . فلقيها فى الطريق ، عند موقع يقال له (السرف) بعض أولاد خالها ، وهو عبيد بن أبى سلمة ، فقالت له

- ماوراءك ؟

فقال :

- قتل عثمان .

قالت :

- فما صنع الناس بعده ؟

أجاب :

- بايعوا عليا

قالت

- ليت هذه انطبقت على هذه ، ان تم الامر لصاحبك

ثم رجعت الى مكة وهى تقول

- قتل عثمان والله مظلوما والله لأطلبن بدمه

فقال لها الرجل

- لا والله . ان أول من أمال حروفه لأنت ! والله لقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً[1] فقد كفر

فقالت

- انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الاخير خير من قولي الاول[2]

ولما رجعت الى مكة ذهبت تواً الى الحجر الاسود وجمعت الناس وخطبتهم تقول : « أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المسكين يعني عثمان — فقتلوه ظلما وعدواناً ، فسفكوا الدم الحرام ، في البلد الحرام ، في الشهر الحرام » الخ وعقب ذلك قام (عبد الله بن عامر الحضرمي) الوالي المعين من قبل عثمان على مكة فحلف بأن يطيعها وركبت جملها المشهور باسم (عسكر) ، وقد التف حولها بضع آلاف ، تريد البصرة وكان معها من الصحابة الكرام ، الزبير وطلحة وقد كانت عائشة (رضي الله عنها) في توجهها الى البصرة ، اجتازت بماء يقال له (الحوأب) فنبحتها كلابه ، فقالت للدليل

- ما اسم هذا الموضع

---

(١) كان ذلك لقبا لعثمان بن عفان

(٢) الفخري

قال :

- الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

- ردونى ، انا لله وانا اليه راجعون ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند نسائه أيتكن تنبحها كلاب الحوأب

ثم عزمت على الرجوع فقالوا لها : إن الدليل كذب ولم يعرف الموضع وبعد يوم وليلة وصلوا الى البصرة بعد أن بذلوا جهدا كبيرا فى اقناع السيدة عائشة وسوقها الى البصرة وعند ما وصلوا الى مقربة منها فى موقع يقال له المربط خرج الى مقابلتها الناس فخطبتهم خطبة بليغة أفهمتهم فيها بقتل عثمان ظلما وحثتهم على طلب دمائه وختمت الخطبة بقوله تعالى « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله » فأثرت هذه الخطبة البليغة فى نفوس الكثيرين وتبعها عدد كبير من اهل البصرة حتى بلغ عدة جيشها ثلاثين الفا فلما انتهى ذلك الى امير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه ، قام فخطب الناس وأعلمهم الحال وقال : انها فتنة وسأمسك الامر ما استمسك بيدى . ثم بلغه ماهم فيه من الجموع والتصميم على الحرب فنهد اليهم فى جيش من المهاجرين والانصار . وكان معه من أهل المدينة اربعة آلاف : ثمانمائة منهم من الانصار واربعمائة من الذين بايعوه تحت الشجرة المشهورة .

وكان اكثر اهل البصرة مع جيش عائشة . فالتقى الجمعان بظاهر

البصرة فى مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوب وحروب ، ففى بعضها التقى على كرم الله وجهه والزبير فقال له :

ـ يازبير ما أخرجك ؟

قال:

ـ أنت ولا أراك أهلا لهذا الامر

فقال سيدنا على:

ـ أتذكر لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقاتلنه وأنت ظالم

قال:

ـ اللهم نعم ولو ذكرت لما سرت مسيري هذا . ووالله لا أقاتلك ابداً

ثم انصرف عازما على ترك الحرب ولكن قابله للأسف في الطريق رجل يدعى (عمير بن جرموز) فقتله وأتى عليا برأسه فغضب لذلك وقال :

ـ بشر قاتل الزبير بالنار .

وتقابل سيدنا على مع طلحة ايضا فقال له :

ـ ياطلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان اما بايعتنى ؟

قال :

ـ بايعتك والسيف على عنقى .

ولما تراءى الجمعان كان عسكر عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، عشرين الفاً ، فقبل أن تنشب الحرب ، وعظهم أمير المؤمنين

وندبهم الى الصلح وبذل لهم كل ماليس عليه غضاضة من جهة الدين فالوا الى الصلح شيئا وباتوا على ذلك ولكنه نشب القتال بين القبيلتين في الغداة ودامت الحرب يوما وليلة وأصاب سهم غائر رجل طلحة فأعطبه ، فدخل البصره رديفا لغلامه وقد امتلأ خفه دما فمات من النزيف بدار خربة من دور البصرة وقبره اليوم بالبصرة في مشهد محترم عندهم (١)

وأما عائشة رضى الله عنها فانها كانت على جمل في هودج وقد ألبس هودجها الدرع والصفائح الحديد وهى تراقب حركة القتال وقد ترامي جندها على الموت ، حياطة لها ، وذيادا عنها حتى لقد قتل حولها المئات والألوف وقطعت على زمام هودجها سبعمائة يد وكلما نزعت عنه كف نزعت اليه أخرى وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال حتى كأنه القنفذ ، وما أصاب قوائمه من السيوف . وقد ظلت السيدة عائشة في محفتها حتى المساء وقد وضع في مكان بعيد عن الناس . وكان اخوها - محمد بن ابى بكر - من أصحاب على كرم الله وجهه فأمره ان يمضي الى أخته وينظر هل هي سليمة ثم ادخلها ليلا الى البصرة في دار عبد الله بن خلف وظلت هناك حتى بدء شهر رجب بأمر الامام على وقد أحسن اليها كرم الله وجهه غاية الاحسان ، وجهزها بكل ما ينبغي لمثلها ، واذن لها

(١) تاريخ ابن الوردى

بالرجوع واختار لها اربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطريق وسيرها صحبة اخيها - محمد بن أبى بكر مكرمة وقد شيعها ولدا الامام - الحسن والحسين رضى الله عنهما فلما كان يوم رحيلها ، حضر الامام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها »

« يا بنى [1] » لا يعتب بعض على بعض انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم ، الا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه على معتبتى لمن الاخيار » وقال على كرم الله :

« صدقت والله . ما كان بينى و بينها الا ذاك ، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة »

ثم سارت وشيعها الامام أميالا . وتوجهت هى الى مكة واقامت بها الى ايام الحج وانصرفت الى المدينة

---

(١) وانما قالت ذلك لان نساء النبي هن أمهات المؤمنين

الفصل الثامن

لو استثنيا وقعة الجمل لرأينا أن السيدة أم المؤمنين قطعت المرحلة الطويلة من الحياة - من السنة العاشرة للهجرة الى الثامنة والخمسين منها - فى العبادة وتلاوة القرآن والتضرع وفي وجوه البر والمواساة ورواية الأحاديث وتخريج المسائل الفقهية .

على هذا المنوال البديع وسارت السيدة عائشة فى حياتها الجميلة ، تلك الحياة التى وقفتها على سبيل اعلاء كلمة الله . من أجل ذلك أحبها الناس ومن أجل ذلك كان يتباهى بها أهل مكة ويفتخر بشخصها الكريم أهل المدينة .

أقر علماء زمانها وفحول الرجال من معاصريها نبوغها وتفوقها حتى ذاعت شهرتها فى الممالك والأمصار

صفحة حياتها الخالدة ، تلك الصفحة المشرقة من صفحات الاسلام انتهت وقائعها فى العام الثامن والخمسين من الهجرة .

وكانت وصيتها عندما وافاها القدر المحتوم أن ينزلها (ذكوان) مولاها فى قبرها ثم يعتق نظير هذه الخدمة

وما كادت تلك الروح الشريفة تصعد الى بارئها ، حتى علا النحيب واشتد بكاء من فى الدار ، فأرسلت أم سلمة جارية لها تستوضح الامر وما كادت تنقلب اليها بالخبر المشئوم حتى بكت

هي أيضا ثم قالت : « كانت عائشة من أحب الناس الى الرسول بعد أبيها الصديق »

توفت الى رحمة ربها في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرم ودفنت في تلك الليلة ومشى جميع أهل المدينة في جنازتها وقد صلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه أما الذين نزلوا قبرها فهم عبدالله وقاسم ولدا محمد بن ابو بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، وعروة وعبد الله ولدا الزبير رضى الله عنهم

ماتت هذه السيدة الفاضلة عن ، خدمات جليلة وحسنات شهيرة حببتها الى الامة الاسلامية فخلفت العالم وراءها في ظلام دامس لامثيل له ..

شعر أهل المدينة بعظيم رزئهم وجليل خطبهم كما أحسوا بيتم حالهم بعد أفول تلك النجمة العالية من بينهم ، فبكاها الكل، بكاها الرجال قبل النساء ، والشيوخ قبل الشباب إذ كانت قد شملتهم جميعا باردية فضلها وأغطية برها وخيراتها .

ان المخدرات الاسلامية في تلك الازمان السعيدة أي ، من بدء عهد الاسلام ، كن قدار تقين الى مستوى عصرهن الراقي فوهبن أنفسهن العالية الى اعمال الخير والفضل حتى النفس الاخير ، فكان عمر احداهن عصر قائم بنفسه، وترجمة حياة الواحدة منهن صفحة جليلة من صفحات التاريخ . ولقد سطعن في سمائه ببهجة وايناس

كما كن الشهب الثاقبة فى سماء الاسلام فى العهد القصير الذى تلألأت فيه أنوارهن الباهرة .

لاحت أنوارهن زمنا قصيرا فى سماء الاسلام شأن كواكب الاسحار ، الا اننا مازلنا نلمس آثار وميضهن فى طيات الصحف . وهذا مايبعث فينا الامل والسرور . فها نحن أولاء نبدأ اليوم ، بفضل تلك الانوار ، والاسلام فى محنته وقتامه ، يملؤنا الشعور والامل بأن نخلف بعدنا صحائف خالدة مثل صحائفهن ؟



- ٣ -

العباسة بنت المهدى

الفصل الاول

اى قارئي العزيز

لو سرحت الطرف في حدائق الادب الافرنجي، مفكراً في أشعارهم العالية ، مدققاً النظر في آدابهم النفيسة ومؤلفاتهم القيمة وما يتخللها من مزايا ومآثر وما تتضمنها من درر الفاظ وغوالي حكم ، ممتعاً نفسك بعبير الذكريات القديمة المتضوعة من جوانبها تعلم وتشعر بأن لكل أمة من الامم وقائع خاصة بها ، وحوادث اشتهرت عنها تتمشى مع طبيعتها الشعرية وتمتزج بحالتها الروحية تصقل الايام والعصور تلك الصفحات المشرقة الماضية والحوادث الفجعة والوقائع المؤلمة فلا تصل أسماعنا إلا وقد ازدادت روعة وجمالا فنصغي اليها بشيء من الدهشة تتملك نفوسنا

اننا نعجب من أبهة تلك الوقائع وندرة ما فيها من الشخصيات ، فنشعر بلذة معنوية تبطن أعماق نفوسنا ، فنغوص لجتها بارتياح ولذة

من الذي يصورلنا تلك الوقائع وينفخ الروح في اشخاصها فيصيرها خالدة لا تزول مدى الدهر ولا تمحى أبد الآبدين ؟ هم. أهل الفن وأرباب الخيالات هم الشعراء والادباء ، فالكاتب بقلمه والمصور بريشته ، والحفار بمثقبه ، والموسيقى بالحانه والشاعر

بأوزانه يخرجون لنا صوراً حية بارزة من تلكم الحوادث المؤلمة والوقائع المدهشة ؛ لا نكاد نراها أو نسمع بها أو نلمسها فى صورهم وآثارهم وأقوالهم حتى تسيل نفوسنا رقة ، وتخفق قلوبنا شفقة ، على أبطالها الذين تذهب نفوسهم ضحية على مذهب الشهوات والمطامع

الفن ؛ هو الذى يجعلنا نفتتن بتلك النواصى الحزينة الحلوة. الفن ، هو الذى يصيرنا نعتقد بأن لهذه الشخصيات جمالا نادراً مقطوع القرين ، فننجذب الى قصص حياتهم المملوءة بالاعاجيب وحالما نأتلف بهم نحن اليهم ونحبهم . اما أسماؤهم الاعجمية فهى كالتماثيل الغريبة فى طريق لغتنا الاصلية وموقعهم الممتاز فى تلك الحوادث ، له أثر بليغ فى نفوسنا ولذلك لا نكاد نذكرهم إلا بشيء من اللوعة بين الآهات والزفرات

فتنتنا الآداب الغربية فسرنا مع تيارها وأصبحنا نقلد كل أساليبها فهل اصبنا المرمي ؟

لو وقفنا عند حد ترجمة ونقل الموضوعات التى تنقصنا والتى تغرينا على نشر العلوم والمعارف بين ظهرانينا وتأخذ بيدنا الى مناهج الرقى والفلاح ، لو وقف بنا الامر عند هذا الحد ، لكان عملنا صالحاً وسعينا جميلا ولكن الاذواق الغربية استولت على مشاعرنا واحساسنا وارواحنا فنسينا ما يحيط شخصيتنا من لطف

وظرف وبذلنا ما فى وسعنا من ارادة وعزم للتشبه بلغفينا حتى تخدرت اعصابنا بعدوى مرض (الپانورزيزم) أى التقليد الاعمى وليتنا استطعنا ان نروى ظمأنا أو ليتنا نفكر فى الزمن الذى نضيعه هباء فى سبيل الوصول الى هذه الغاية

لو رجعنا البصر كرة واحدة الى ماضينا المجيد ، ذلك الماضى المشرق بأنوار المجد والفخار ، لعلمنا مقدار خطئنا ولأسفنا من استخراج معلوماتنا من دفائن الادب الغربى فحسب

خزائن آثارنا الشرقية مملوءة بالكنوز والنفائس التى تبهر الابصار ببريق لمعانها واشراق ضيائها . فى زوايا تلك الخزائن بذور مواهب كامنة لا يمكن للغرب أن يجود بها على الشرق يوما من الأيام. لو نظرنا اليها وأعرناها جانبا من العناية والالتفات لكنا الآن أصحاب ثروة قومية حفظها لنا الجدود بالمتاعب والآلام . .

فقل لى بربك أما ترى أن فيما تركه لنا السلف خير مما نستعيره من الغرب عندنا من الكنوز شيء كثير : أموال ومجوهرات خالصة من كل غش وخداع عليها طابع الاسلام لم تمسها الأيدى ولم تنظرها الاعين حتى الآن

لو أردنا لاستطعنا ان نحيك لانفسنا جلابيب مهفهفة من تلك الأنسجة الحريرية النادرة . ولو شئنا لجعلنا تلك الاقمشه الثمينة ملابس تمشى مع الطراز المصرى ولو شئنا لكسونا تلك المخلفات

القديمة أحسن الصور والاشكال التى تجعلها من أجمل صناعات اليوم وبذلك نعقد لانفسنا ألوية الظفر والفخار فى ميادين الفن. إننا لو أردنا لاستفدنا من شخصيات عديدة ووقائع كثيرة ذات أثر كبير فكل الادوار الاسلامية مملوءة بالحوادث العظيمة وقد اشتهر كل عصر من عصور تلك الادوار بأسماء ابطال يحركون فى النفس عوامل الشفقة والاعجاب

إن فى سلسلة الحوادث المفجعة التى تمت أيام الرشيد وانتهت بموت العباسة وختمت بمأساة البرامكة، لعبراً تزري بأشعار (روميو) وما يتخللها من حب وصداقة، وعظات تطفىء ما يتخلل قصة (جوليت) من أنوار الاخلاص والوفاء. لم لا تتناول الاقلام هذه القصة؟ إن هذين القلبين الوفيين، قلب جعفر وقلب العباسة، ليستحقان التصوير والتحليل، فلم لم تلاق حادثتهما الاهتمام اللائق بها؟ هل كانت حياتهما الشاذة، تلك الحياة التى ذهبت ضحيـة الغرور والاستبداد. موضوعاً تافها فى آثارنا القومية؟..

الخطأ الكبير الذى ترتكبه الرؤس الكبيرة أقل أثراً من النتائج السيئة التى يولدها الخطأ نفسه. فاذا كان الخطأ شيناً وعاراً كانت الخسائر الناجمة من هذا الخطأ أكثر شيناً وأشد عاراً

عند ما نقلب صفحات التاريخ وتقع أنظارنا على بعض المظالم

للدهشة ، لا نتمالك من تبجيل أيامنا الحالية - ولو على غير اختيار منا - أمام الوقائع الدموية التى حمى وطيسها فى تلك الازمنة

نرى اليوم ارتقاء هيئتنا الاجتماعيه فنقدس في انفسنا هذا الرقى التدريجى . زماننا - على أى الحالات ومن كل الوجوه - زمان الانسانيـة ولو فكر أولئكم الخلفاء المستبدون في وقع ضرباتهم الا ليمة ، لو علموا أثرها الكبير وانعكاسها المدهش لامتنعوا عن تلك المظالم الشائنـة التى ارتكبوها ولضحـوا غرورهم فى سبيل الاحتفاظ بحسن الذكرى

الفصل الثانى

الجوهرة النفيسة فى عقد بنى العباس ، الزمردة الثمينة بين درر النساء ، تلك التى كانت قلادة تزين جيد العصر الثانى من الهجرة ، أخت الخليفة وبنت الخلافة . ذهبت ضحية الاقدار وفريسة الظروف القاسية

السيدة العباسة ، اللبيبة الذكية ، أجمل بنات المهدى ، ثالث خلفاء بنى العباس ، تمثال المأساة فى ميدان التاريخ الاسلامى ، وسحاب قاتم ، خالط بياض شهرة الرشيد بسواد دائم.

كانت معززة مكرمة فى عائلتها الهاشمية النجيبة لما امتازت به منذ نعومة اظفارها من الفطنة والكياسة وحسن الذوق والبلاغة . فكانت تنزل من نفوسهم منزلة سامية ؛ منزلة التقدير والاجلال .

أما قصة حياتها وأوائل نشأتها ، فهى اسطورة جميلة تشتاق الآذان اسماعها والتلذذ بحيا لاتها

مرت أيام صباها فى بغداد كنسمات الصبح بين أحضان حدائقها الغناء ، فاكتسبت من بدائع الطبيعه رونقها واستعارت من الورود نفحاتها ، ومن البلابل نغماتها ، ومن ساعات الفجر

وأوقات السحر بهجتها وضياءها ، هامت فى أودية الجمال ، جمال الطبيعة ، فأشبعت روحها وأنظارها من كوثره العذب

نشأت وترعرعت فى مسارح الذوق والصفاء وفى مجالس الأنس والدلال ؛ وفى مغانى السرور والابتسامات فشبت موسيقية الطبع . جميلة الروح ، فاتنة الشكل ، متحلية بالادبين : أدب العلم وأدب النفس ، كلفة بالشعر ، كلفها بالورود والازهار ونفائس المعنويات والماديات .

فتحت أنظارها في أبهة قصرها المشرف على الدجلة فشاهدت ما حواه من طنطنة ودبدبة وتمتعت النفس بدهاليزه المعنبرة وغرفه المزهرة فازدادت بهجة وجلالا .

انها ملاك جميل : ملاك لانسمع بذكره الا في أساطير الاولين الا أنها تمتاز عن ملائكة الاساطير بقصر حياتها . ولو دققنا النظر في تلك اللآلىء التى تزين جيدها ، لآلىء مآسيها وأيام حياتها ، لو جدناها قد انتظمت على سلك من الاحزان والآلام . ان المرء ليفضل قلادة خزفية على تلك الجواهر المنظومة في سلك الاكدار . هذا أمر طالما تمنته . فكم أرادت أن تبيع عقدها لقاء أيام من السعادة طويلة الأمد ولكن الدهر القاسى ، الدهر المتسيطر على عالمنا الحقير أبى عليها هذه النعمة . بل عاداها وأشهر عليها حربا عوانا لتشنها في خلع عقدها وقد كانت

تراه نيراً يستعبد روحها

لم تمت العباسه لانها تعقبت آثار الغواية المموجة كلا . انما
ارادت ان تجنى ثمار الامل دون أن تحفل بالقدر أو تعبأ به فماتت
وتدهورت تحت عجلات الاقدار ودفعت بجسمها لهذه الدنيا
دينا هو فى ذمة كل انسان يعيش على وجه البسيطة، فكان
مقتلها منقبة تاريخية وضياعها باعثا على تسجيل اسمها فى صحيفة
الاسماء الخالدة .


دجلة
قطربل
مدينة بغداد
بين سنة ١٥٠ و ٣٠٠ هـ

الفصل الثالث

البرامكة الذين كانوا غرة في جبين الدولة العباسيه وتاجا على مفرق أيام الرشيد، هم أحفاد بعض المماليك من الفرس الذين استوطنوا بغداد أيام خلافة المنصور. كانوا قديما على دين المجوس ثم اسلم منهم من أسلم وحسن اسلامهم. استوزر المنصور جدهم خالد بن برمك فكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة التامة في شئون الحكم والادارة وضربت بمكارمهم الامثال وشدت اليهم الرحال ونيطت بهم الآمال بذلت لهم الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتهم أوفر اسعادها فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول دافقة والغيوم ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقه ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وابهة المملكة ظاهرة

أما يحيي بن خالد وهو والد جعفر فكان فخر العائلة البرمكية وكان من عادته اذا ركب ان يعد صرارا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المعترضين له يمينا ويسارا فاذا رآه الناس بشروا بعضهم البعض بتدفق غيوث خيراته وحسناته عليهم

يحكى أن احد اعدائه البخلاء اضطر فى احدى المجالس أن

يصافحه الا أنه ما كاد يضع يده في يد يحيي حتى أرجعها خائفا مذعورا؟
فنظر اليه يحيى نظرة المستغرب النافد فأجابه:

ـ أخاف إن صافحتك ان تسري الى عدوى جودك وكرمك (١)

كان قصر البرامكة على شاطىء الدجلة قبالة قصر الخلافة وكانت ابوابه مفتوحة ليل نهار للزائرين من غادين ورائحين وكان ابو نواس يسمى دارهم ملجأ الاسلام وهو القائل فيهم.

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد

أراد يحيى بن خالد البرمكي ان يلقى على الهادى وقد كان ضعيف الرأى (٢) درسا محسوسا فى أيام وزارته له — رغب الهادى فى شراء جارية حسناء بالغ مائة الف دينار فاستعظم وزيره هذا المبلغ وأفهمه غبن هذه القيمة الباهظة الا ان الهادى أصر فى رغبته ولم تجد نصائح الوزير نفعا فتلمس يحيى وسائل اخرى لتسوية

---

(١) لعل الاميرة تعنى بذلك قول الشاعر .

لا ترانى مصافحا كف يحيى
انى ان فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى
لسخت نفسه ببذل النوال

(٢) انا لا نقر الاميرة على هذا الرأى لان المعروف عن الهادى انه كان متيقظا غيوراء كريما شهما شديد البطش جرىء القلب مجتمع الحس ذا اقدام وعزم وحزم . — المعرب —

الأمر وبينما كان يفكر فيما يجلبه مثل هذا الاسراف من الخراب على الدولة خطرت بباله حيلة جميلة: جمع من الدراهم مايوازى قيمة المائة ألف دينار وبعثرها فى صحن الجامع الذى يصلى فيه الهادى وعند وصول الهادى الى الجامع فى صلاة الجمعة ومعه يحيى نظر الى الدراهم، المالئة أرجاء الجامع شرقا وغربا، فقال:

- ماهذا؟ ما أكثر هذا المال

فوجد الوزير الفرصة سانحة وأخبره بان هذا القدر من المال هو ثمن ماسوف يدفع لمشترى الجارية فاستعظم المبلغ ورجع عن عزمه. وكان يحيي يعجبه أخلاق هارون الرشيد ويفضله على أخيه الهادى وعندما حاول الهادى خلع اخاه من ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر بن الهادى حادث يحى فى ذلك فقال له

- ياأمير المؤمنين. ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر كان ذاك أوكد فى بيعته

فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده

بعد انتهاء عهد الهادى وقد ظل عاما واحدا بايع الناس أخاه هارونا والفضل فى ذلك راجع الى يحيى فعظمت منزلة البرامكه من نفس الرشيد وأظهر امتنانه لهم فى كل فرصة

سنحت . كان ينزل يحيى منزلة الوالد . استوزره فى أوائل خلافته وترك مقاليد الامور وديعة له يعمل فيها برأيه الثاقب وحنكته وتجاريبه فى الحياة فكانت اكثر النواحى والامصار تحت زمام حكمه وسيطرته وبعد أن تقلد الوزارة بضع سنوات أصبح ابنه جعفر الوزير المخلص للرشيد ورفيقه ونديمه وصديقه العزيز ، ذا المكانة السامية فى سويداء قلبه لا يفارقه لحظة من اللحظات . كان جعفر . اذ ذاك فى العشرين من عمره وكان أخو الخليفة فى الرضاعة (١) فكانت أبواب القصر ودائرة الحريم مفتوحة الابواب له على الدوام ولحسن محضره ولطف حديثه أصبح محبوبا مألوفا من أفراد عائلة الرشيد .

كان جعفر طويل القامة ، نحيف البنية وسيم الوجه ابيض اللون ، مستدير اللحية ، ذا عينين براقتين وابتسامة حلوة حديد المزاج ، فاضلا كريما على جانب عظيم من العلم والفضل وله من موارد الثروة مالا يقل عن الخليفة فلا يكاد يوجد فى بغداد انسان لم يصبه جانب من كرم فضله ومروءته فكان محبوبا من الجميع ، يعتبره الناس النجم المتألق فى سماء عرش العباسيين

(١) ظنّ الرشيد انما هو الفضل وليس جعفر وكان الرشيد يأنس بجعفر أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل

وكان يرى بنفسه كل المسائل المعضلة فيحل عقدتها برأيه الثاقب ويريح الخليفة من هموم الادارة وأعبائها ومع أنه لا يغمض له جفن ولا يستريح فى ساعة من ساعات الليل فضلا عن النهار فى مصالح السلطنة ، فكان لا يفارق الخليفة فى مجانسة أو منادمة . وكان أديبا أريبا يعلم الشعر ويفهم الموسيقى ولذلك لم يبق انسان فى بغداد لا يقدر قيمة هذا الوزير المقطوع القرين

أحضر العلماء والحكماء وأمرهم بترجمة الكتب الاجنبية وشجع الفلاسفة والمفكرين وأسس دور العلم ونشر التجارة والطبابة والحكمة في ربوع بغداد حتى أصبحت محطا لرحال العلماء وقطب رحى الآداب والفنون ولم يمض على هذه المدينة الا القليل حتى سميت (أسواق الآداب)

كان الرشيد يغدق النعم والخيرات على من يجلب له السرور ويسبب له الغبطة فيضحى إيراد بيت المال وضياعه الخاصة فى سبيل شخصه أما جعفر فكان يصرف ماله فى سبيل المحافظة على مجد الرشيد وأبهة ملكه وخلافته التى يتفانى فى خدمتها . وكان مع ميله الى اللذات يصرف نصف أمواله فى وجوه البر والحسنات

اشتهر الرشيد بحسن ادارة جعفر وما نال ألقاب الحمد والثناء إلا بفضل سخاء جعفر . ثم كان بعد ذلك من أصحاب الحكمة والحجى باستعداد جعفر وكفاءته كما اصبح قرين العلماء ، جليس

الادباء ، نديم الشعراء بارشادات جعفر وبجعفر فحسب كان الرشيد رشيدا .

ما أجلها روحا ، تلك الروح العالية والنفس الابية التي تستنسخ مزاياها من أشخاص أخرى ولا تفقد بذلك بهجتها وأضواء كمالها

كان الرشيد في بداية حكمه مسودة لوحة فنية تحتاج الى ألوان عديدة واصلاحات كثيرة وبمرور الزمن أصبحت تلك المسودة الناقصة في أيام وزارة جعفر لوحة فنية نفيسة وظهرت في معرض التاريخ بتلك الابهة والعظمة

واليك الحكاية الآتية دليلاً على الروابط القوية والالفة المتينة الموجودة بين الرشيد

قيل : ان جعفر بن يحيى جلس يوما للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيأ المجلس ولبسوا ثيابا مصبغة وكانوا اذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا ثياب الحمر والصفر والخضر ثم ان جعفر تقدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله سوى رجل من الندماء كان تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من اقارب الخليفة يقال له عبد الملك ابن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب

حمه وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل ، فاتفق ان هذا (عبد الملك بن صالح) حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له ، فظن الحاجب انه هو عبد الملك بن صالح العباس، فأدخله على جعفر بن يحيي ، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن ان القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضا للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيي ، فانبسط عبدالملك وقال :

— لا بأس عليكم احضروا لنا من هذه الثياب المصبغه شيئا

فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفر ابن يحيى ويمازحه ، وقال.

— اسقونا من شرابكم .

فسقوه رطلا وقال:

— ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا

ثم باسطهم ومازحهم وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه ، ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا وقال له

— ماحاجتك؟

قال :

جئت — أصلحك الله — في ثلاث حوائج ، أريد ان تخاطب الخليفه فيها ، اولها ان على دينا مبلغ الف الف درهم أريد قضاءه

وثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره . وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة ، فانها بنت عمه ، وهو كفء لها

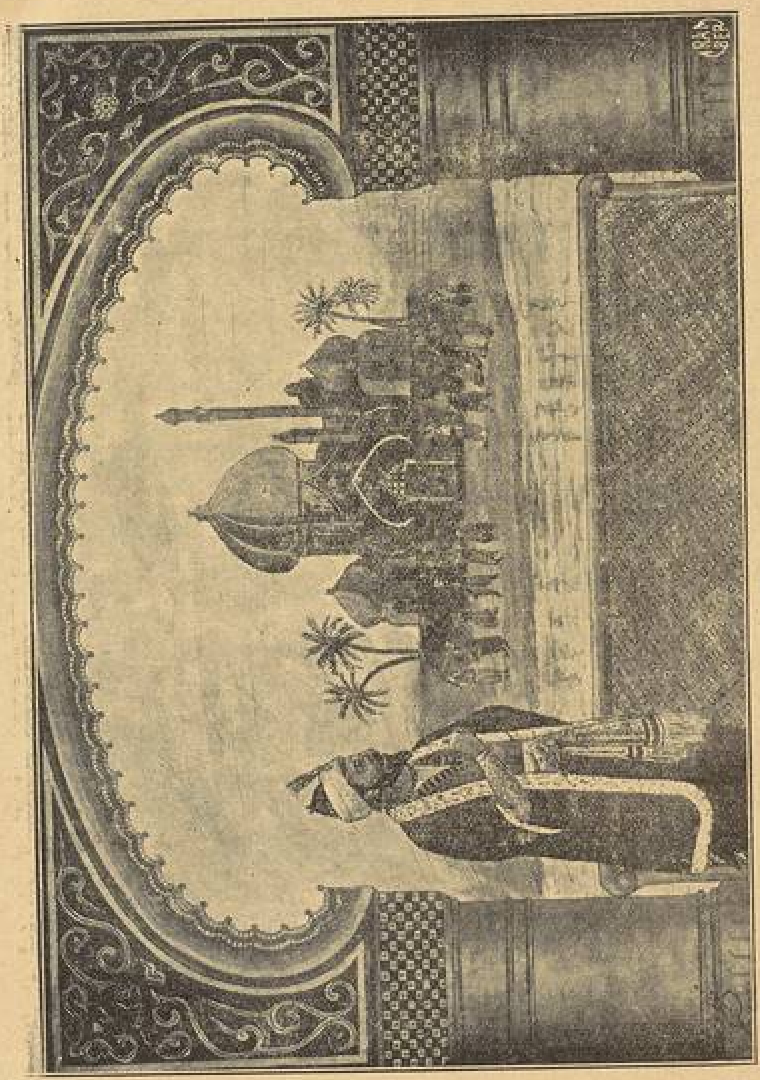
فقال له جعفر .

- قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أما المال ففى هذه الساعة يحمل الى منزلك : وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر . وأما الزواج فقد زوجته فلانة ، ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف فى أمان الله

فراح عبد الملك الى منزله ، فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ماجرى وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد (١)

---

(١) الفخرى



الرشيد يراقب الجموع المحتشدة أمام قصر البرامكة

الفصل الرابع

تلك هى ثقة الرشيد بوزيره وأنيس قلبه وحبيبه العزيز جعفر والى هذا الحد البعيد وصلت دالة الوزير على مولاه الخليفة . كان يرى بنفسه أكبر شئون الدولة وأعوصها . فيقيم أوزانها . ويفصل فى قضاياها سواء كان فى حضور الحاكم أو فى غيابه . وسواء علم الرشيد أم لم يعلم . فهل كان يخطر على البال أن تنفرج بينهما شقة الخلاف ؛ وهل كان يظن أن الشمس تشرق عليهما ذات يوم وهما مختلفان متنافران وقد أحبا بعضيهما واستوثقا من نفسيهما الى هذا الحد ؛ لم يكن بين الخليفة ووزيره سر مكتوم ، فكل سرائر الخليفة ونياته صفحة مفتوحة أمام جعفر ، وكل دخائل جعفر وخفايا نفسه ملم بها الخليفة . فهل يأتى عليهما يوم يتنكر فيه أحدهما للآخر ؛ ما كان يمضى يوم دون أن يذهب رسول من قصر الخلافة الى قصر البرامكة . ما أكثر ما كان يخرج جعفر من حضرة الرشيد فيرسل فى طلبه ؛ وما أكثر الاوقات التى خرجا فيها الى الصيد والقنص ! ما أكثر الليالى التى أمضياها معا جنبا الى جنب يتفقدان فيها أحوال بغداد ! ما أكثر الهدايا والتذكارات الثمينة التي يهدى بها الخليفة وزيره الصادق ! فهل

كان لكل هذه الاوقات والساعات والليالى والايام نهاية وحد؟

نعم كان لها مدى وغاية. كانت الايام الدائرة ، تلك الايام التى تمضى بثبات من المشاغل والحوادث تقترب ببطء وهدوء لهذه الغاية . كانت السحب المتكاثفة في سماء مستقبل الوزير تنذر باحتمال حدوث هذا الانقلاب التدريجى . لان أعداء جعفر كانوا يتكاثرون وينفاقمون بنسبة استفحاله فى الشهرة وبعد الصيت توهم أنه يستطيع أن يستهوى أفئدة الخلق ويستعبد قلوبهم بقيود نعمته وسلاسل جوده . وقد فاته أن الناس قد تنسى كل حسناته إزاء نعمة واحدة يغدقها عليه الخليفة أو ميزة من المزايا يختصه بها دونهم .

لولا الحسد وما تنطوى عليه الصدور من الاحقاد لولا ما يحمله الانسان لأخيه الانسان من ضغينة وغل لما استطاعت رياح الاقدار أن تطفيء شمس سعادته المضيء

كثر الساعون فى اخلال روابط الثقة المتينة التي بين الخليفة ووزيره ، واشتد ساعد الذين يحملون المعاول الهادمة لهذه الثقة. وبين هؤلاء الساعين الاميرة زبيدة فانها نفرت منه منذ حادثة مكة وانتهزت كل فرصة سانحة لتكون ضده . انها لم تنس نظرات جعفر المصوبة الى ابنها الامين وهو يحلف ثلاثا عين الطاعة وعدم الخيانة بين يدى أبيه الرشيد وفى حضوره فى بيت

الله الحرام ، لم تنس سعيه في تنصيب المـأمون لولاية العهد بعد ابنه الامين ، بل أسرت ذلك فى نفسها ، متوعدة الانتقام يوما ما من هذا المملوك الفارسى

لم يتدرع جعفر الا بالنعمـة . وكان مرتاح الضمير ولذلك لم يخش خصومة أحد حتى ولا تنكر الخليفة عليه . لم يشك في انسان ولم يتوهم ان الخليفة قد يحنق او يحقد عليه فى ساعة من الساعات ، لم يخطر على باله أن الخليفـة قد يرتاب به أو يسىء اليه الظن وهو يشاهد من شرفة قصره جماهير الخلق المحتشدة فى الضفة اليسرى من الدجلة حول قصر البرامكة . لم يدرك أن هذا العالم الى فنـاء وبوار لأن سجف السعادة والرفاهـة كانت تستر الحقيقة عن عينيه

كان ينظر الى هذا العالم بعيني مسافر يقطع الصحراء ووجهته السراب يخطو اليـه مبتهجـا مسرورا مفتونا مأخوذ اللب . كان يعيش آمنا مطمئنا غير حاسب لعاديات الدهر حسابا لماذا ؛ لأنه كان واثقا من مودة الخليفة . كان يعلم أن منزلته من نفس مولاه الرشيد هى منزلة العباسة من نفس أخيها أجل إن الرشيد ماكان يستطيع صبرا عن مفارقة أخته العباسة التى شبت ونشأت معه وشاركته في أهوائه وميوله . كان التذاذه من مشافهة العباسة لا يقل لذة عن محادثة جعفر ، وإن سروره من سماع اشعارها يعادل ابتهاجه

من منادمة الوزير له وكما كانت أدبيات أختـه تجلب له السرور والانشراح ، كذلك مواعظ جعفر وأقواله الحكيمة تثلج صدره وتدعوه الى الاغتباط . كان يفتخر بجاذبية العباسه ويباهي بوقار الوزير ورزانته . وبالاجمال كان لايحتمل مفارقـة احدهما فـكانا يجلسان اليه معاً في القصر والحديقة ومغاني اللهو يتناشـدون الاشعار ويخوضون فنون الحـكمة والفلسفة . كانت العباسة على علم ناضج وأدب رائع ، تعد من حكيمات عصرها وعالمات زمانها وكان الرشيـد يسر من الرجوع اليهـا في كـثير من معضلات المسائل العلمية ويناقشهـا ويجادلهـا الساعات الطوال في مختلف الفنون وعندما كان ينبىء الاميرة زبيدة بطرف من هذه الحوادث كانت تغضب ويظهر عليهـا أثر الانفعال . كانت لاتهضم علو كعب العباسة في العلوم ودرجتها المعنوية الرفيعة فكانت تنفس عليها هذه الرتبة وتغار منها مع أنها على حظ وفير من العلم

عندما كان يجلس الثلاثة ، الرشيد والعباسة وجعفر ، في المجالس المنبرة ذات القباب المكسوة بآيات الفن من قصر الخلافة فيخوضون لجة الحـديث والمسامرة ويشقون عبـاب الشعر والموسيقى وتمتلىء نفوسهم بالغبطـة والهناءة ، ينسون بغداد ولا يخطر على بالهم شأن من شئون العـالم . من يدرى أي الدرر من غوالي الالفاظ وثمار القرائح ونتاج العلم الناضج كانت تسقط

فى أرجاء تلك المجالس ؛ لو كان للجدران المغطاة بقطع الديباج والمكسوة بأنفس الحرائر لسان ناطق لأتحفنا اليوم بنكات لطيفة ومعان مبتكرة جميلة وحسنات من اللفظ لاتخطر على البال .. .. ولكن قد تداعت الجدران وطارت الاستار على أجنحة آلهة الشعر وذهبت تلك الايام أدراج الرياح ولم يبق لنا من ذلك الماضى المشعشع سوى خزانة محدودة من الخواطر . اننا لنمتطي الآن سفينة الذكرى ، ذكرى (الانس المثلث): الرشيد والعباسة وجعفر ونخوض خضم تلك الايام فلا نجد شيئا ولا نشعر الا برذاذ من أمواجه ....

كان الرشيد مغتبطا بهذا (الأنس المثلث) وكان يرمى بنفسه فى أحضان هذين العزيزين لينسى مشاغل اليوم ومتاعب الادارة ؛ كان يشعر بهناءة كبرى من تلك المحادثات والمنادمات التى يعقدها فى المجالس ذات القباب ولا يكتم شعوره هذا عن العلماء وأكابر رجال الدولة ممن يمثلون بين يديه

كان يثنى على ذكاء العباسة ويقدر بلاغة جعفر ويباهي بمنادمتهما له . هذه الحالة الروحية كان ينفر منها العلماء الذين كانوا يتغافلون او يتغاضون عن مجالس اللهو والشراب المنتشرة فى العصر الثانى من الهجرة . كبر عليهم مجالسة العباسة للرشيد فى حضور جعفر فسددوا اليه سهام نقدهم ولومهم ، لم ينتقدوا رفاهة العظماء

واستفحالهم فى ضروب اللذة ، الامر الشائع في ذلك العصر مثل انتقادهم لهذا الامر وكان الرشيد لا يستهجن هذا النقد ويرى أنهم محقون فى هذا اللوم ولكنه لم يستطع ان ينقطع عن أمر يشبع روحه باللذائذة المعنوية فلم يأل جهدا فى التفكير وأعمال الروية لايجاد حل معقول للمسألة ، وفى النهاية جمع علماءه فى القصر فعقدوا مجلسا لهذه الغاية .

أعمل العلماء رويتهم وشحذوا قرائحهم فوجدوا أحسن حل للمسألة أن يعقد لجعفر على العباسة إلا أن الرشيد لم يقنعه هذا الرأى . إن العباسة الشريفة سليلة العائلة النبوية لا يمكنها ان تتزوج بجعفر ، لا يجوز لمملوك ايراني ان يقترن بسيدة من عقيلات بنى هاشم ، فلا مناص اذن من ايجاد حل آخر كان الفقهاء فى موقف دقيق لا يسعهم أن يكونوا هدفا لغضب خليفتهم فاحتاروا وأسقط فى يدهم لانه محتم عليهم ان يوفقوا بين أوامر الشريعة ورغبات الخليفة وبينما هم فى لجج الحيرة والدهشة خطرت على بال احدهم فكرة عرضها على مولاه فنالت الاستحسان . رأى هذا العالم أن يزوجها حتى يحل له النظر اليها ولكن لا يقربها (١) وهكذا أجازوا تلك المسامرات الليلية فى قصر الخلافة تحت هذا الشرط . فقبل الخليفة أن يعقد له عليها ورضى

(١) ابن الاثير . الطبرى . الفخرى

بالشرط وبذلك تخلص الرشيد من قيل الناس وقالهم وعاد الى منادمة صديقيه العزيزين وجليسيه الاليفين

لم يكن بعد هذه الحادثة اذ ان أسعد حالا من الرشيد . انه ليقاوم أصعب الأزمات فيفرجها برأيه ، إنه ليقف باسماً هازئاً امام الشدائد والصعاب يتحكم فى القوانين والشرائع والعادات ويبسط سلطان نفوذه على غرائز الطبيعة فيظهر ازدراءه لما يظنه الناس امراً مستحيلا

أيها الغرور ! أيها الطابع الازلي للانسانية ! كم نفساً تحطمت على صخرتك العالية وكم أملا تكسر عند أقدامك وكم رغبة حارة رددت أنفاسها الاخيرة فوق مذبحك ! وأى انسان استطاع مقاومة مغناطيسيتك . لو أحصينا الذين رموا بأنفسهم فى أحضانك فكم يبلغ عددهم ؟

أيها البشريه ! لم تستطع الاجيال ان تغير تأثير غرائزك الموروثة ولم تستطع العصور المتقادمه أن تعدل تربيتك الروحية والفكرية كان الرشيد يعتبر الساعات التى يقضيها بجانب وزيره من ألذ أوقات عمره وأشهاها . كان لا يصبر عنه لحظة واحدة ويستفيد من ذكائه وعرفانه ويتنازل لقبول مشورته وآرائه ومع ذلك أظهر التردد والخوف أمام علمائه وفقهائه الذين أجازوا اختلاطه بأفراد عائلته معلنا لهم انه مملوك فارسى !

اصل جعفر وأرومته هو نقصه الوحيد ، ماولقد أثبت الرشيد
بأن المروءة والشهامة وأدب النفس مزايا أنسانية لا تشفع للمرء
فى جميع أطوار حياته فقد استنكف اولا مما عرضه عليه علماؤه.
لو اننا وصلنا الى قرارة نفس الرشيد لعلمنا انه كان راضياً عن
أمر الزواج الا ان غروره المتسلط على قلبه وقف حائلا بينه وبين
الرضى بهذا الامر أما جعفر فقد كان مغلوباً على امره امام علم
العباسة ومزاياها الروحية فكان يزداد تعلقاً بها وشغفا بنفسها
رغم أوامر الخليفة . كانت العباسة حياة جعفر ، يعبدها بروحه
وجسمه حتى لقد أصبحت عيناه لا ترى نوراً غير نور هذه النجمة
التى سطعت فى سماء حياته

فى هذه الآونة كانت العيون والجواسيس التى تأتمر
بأمر زبيدة واقفة لحركات جعفر بالمرصاد فى غدوه ورواحه الى
قصر العباسة ، ويحملون الى زبيدة حوادث تنزههما معا فى حديقتهما ،
بين خمائل الورود والقرنفل وكان الجواسيس لا يتكلفون عناء كبيرا
في سبيل مأموريتهم لان جعفر كان يمشى بملابسه السوداء
شارة العباسيين ، ويصل الى القصر من طريق الشرفة المطلة على
الدجلة جهاراً عيانا دون تنكر إمامتطيا صهوة جواده وإمارا كبا زورقه
كانت أخبار هذه الزيارات الليلية تصل اسماع زبيدة وابنها
والفضل فيعقدون مجلسا من مشايعيهم لتدبير مكيدة يوقعون

جعفر فى حبائلها

كان الفضل بن ربيع خادما صادقا للامين، ذى المزاج المتلون . كان فى مبدء أمره حاجب الخلافة ويشغل الآن مركزا كبيرا وكان يحسد جعفر لمزاياه العالية ويطمح الى الوصول للوزارة فجعل يعمل على اسقاطه سرا ولا يرى فرصة فيها هلاك البرامكة إلا اقتنصها . كان يريد أن يقضى على الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيل آماله وأطماعه فلم يقعد يوما عن سبيل فيه ايذاء جعفر وقد أسعفته الاقدار بما كان يبحث عنه . خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيى فذهب اليه الفضل وحاصره فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد فأجابه الرشيد الى ذلك وسُرّ به وكتب له أمانا فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد أول الامر بكل ما أحب ثم أمر بحبسه بعد ذلك فما سمع الطالبي ذلك حتى أسرع الى جعفر قائلا :

-قد كتبت لنا أمانا فحضرنا اليك فاذا أنت أمرت بابقائى فى السجن عرضت نفسك لقهر الله وغضبه

وعلى اثر ذلك أطلق جعفر سبيله فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة ونقلوا الحادثة الى الرشيد

الفصل الرابع

كان الرشيد حانقا غاضبا بعد تلك الحادثة وأخذت مكانة جعفر تتضاءل في نفسه شيئا فشيئا وكأنى به وقد اختلى بغرفته على أثر سماع هذا النبأ وأوصى مسرور السياف بأن يمنع كائنا من كان من الدخول عليه يقول في سره : ماهذه الجرأة كيف يستطيع جعفر أن يعصى لى أمرا وانا الخليفة صاحب النهي والامر . إنه قد وصل من استبداده الى حد لا يمكن السكوت عنده » وكأنى به وقد حادث نفسه بمثل هذه الاقوال يشرف من نافذة غرفه ، محاولا تسلية نفسه بزئير الاسود المحجوزة في أقفاصها الحديدية بحديقة القصر

بلى ! هذا ماحدث فان التاريخ نقل الينا انه نزل بعد سماعه هذا النبأ الى حديقته ، حيث أقفاص الليوث وهنا طلب من الحارس أن يحضر له رضيعا مذبوحا من الغنم .
أخذ قطعة صغيرة ورماها الى أعز الليوث عنده فالتهمها في الحال .
وقف بعد ذلك ينتظر ان يلقى اليه الباقى . انتظر كثيرا ولكن عبثا لان الخليفة امر الحارس بأن يمنع عنه الباقى . عيل صبر الاسد وكان يزأر من حين لآخر كأنما يطلب بلسان الحال فريسته .
وقف الرشيد يتأمل طويلا هذا المنظر ويقارن بين حالة الاسد

وحالته الروحية وكأني به الآن وقد امتزجت نفسيته بنفسية الاسد مشفق عليه ، ونادم على منع الفريسة عنه. وكأني به وهو ينظر الى الحارس شذرا ويلومه لانه ينفذ فى صديقه الاسد هذا الامر القاسى ، يجد فى الاسد شبيها به وبالحارس مثيلا لجعفر ، عدوه الآن .

وعند ما عيل صبره لم يطلق احتمال رؤية الاسد يتعذب فأمر بأن تلقى اليه الشاة كاملة فألقيت وهجم الليث على فريسته وقطعها إربا بين براثنه وأخذ يقضم العظام بأنيابه وبعد أن استقرت كاملة فى معدته ربض ربضة الآمن المطمئن وأخذ يصوب نظراته الى الرشيد ، تلك النظرات التى لم يذهب عنها بريق الحدة والغضب

أما الرشيد فبعد أن وقف طويلا أمام هذا المنظر عاد الى قصره وقد هدأت الثورة القائمة بين جوانب نفسه

إنه ليفكر فيقول فى سره لو كنت الآن داخل القفص فأى شيء كان يمنع الليث من أن يهاجمنى فيفترسنى افتراس قطعة اللحم . كان يرى فى نفسه وهو يمشى نحو القصر بين طرقاته المزينة بأصص الرياحين ، أسدا ظامئا الى الافتراس ، نفسا طموحة الى الانتقام ، كان توافا الى التشفى من عدوه اللدود جعفر . ولكن هيهات لم تحن الفرصة بعد فهو ينتظر الفرصة بفروغ صبر ولا يدعها تفلت من يده بعد اليوم .

وصل الخليفة الى القصر وصعد توا غرفته الخاصة وكان منظر الغروب جميلا يجذب الروح فجلس متكئا على النافذة يتأمل بحزن واطراق ألوان السحب المتماوجة فى السماء ومالبث أن مد ببصره الى الضفـة الاخرى من الدجلة حيث يوجد قصر البرامكه

ارتعشت نفس الرشيد داخل جسمه . كان النـاس عند مدخل القصر ينتظرون أوامر الوزير ، بين داخل وخارج، يهرولون ذات اليمين وذات اليسار وبينهم الجنود ورجال المعية فى هرج ومرج . هنالك الضجيج ، هنالك الحركة ، هنالك كل شيء .

ارتكزت عيناه عند هذه النقطة من الضفة الاخرى وكلما ألح به النظر، اشتد حنقه ، وارتفع صدره بنيران الغيظ المضطرمة بين أحشاء قلبه . كانت أهداب عينه تهتز بحركة عصبية وهو يرى أن سكون المـاء وهدوء الطبيعة لا يتخللهـا سوى حركة واحدة فى تلك الساعة ، هى الحركة الآتية من الضفة الاخري أمام قصر جعفر

أيقن الآن أن جعفر هو حاكم بغداد وأمير الدولة وخليفه الاسلام . علم الآن أن جعفرا كان كل شيء . ولكن أين هو من هذا الضجيج ؟ أين مكانته من هـذه الحركـة ، أين عز الخلافة وشرف الجاه ؟ هنالك فى قصر البرامكة ، الذى يلمع بالاضواء

ويموج بالحركة أما قصر الرشيد فقد تسربل رداء السكون والصموت .

تبطنت اعماق نفسه بآلام خفية فى هذه اللحظة فنسى كل شىء

نسى صداقة جعفر واخلاصه وفطانته ، نسى أن هؤلاء المحتشدين حول دار وزيره جاءوا يلتمسون نداه ، يستعطفون مروءته ، يلتجئوا الى ظل شهامته . نسى انهم وافدون اليه لقضاء مصالحهم ؛ نسى أن جعفرا أخذ على عاتقه هذا الحمل ليخفف عنه العبء . نسى فصاحة وزيره وحسن تدبيره ودرايته . ثم نسى كل شىء ولم يبق فى عقله وذهنه الا أمر واحد ، اهتزت له أرجاء روحه وأخذ قلبه يخفق لاجله من الحدة والألم . وكأنى به يقول : « لست انا الخليفة وانما الخليفة جعفر ما أشد بلائى ! كيف لم أفطن الى هذه النتيجة ماذا أستطيع ان أعمله الآن او أن جعفراً نزع الى انتزاع الحكم من يدي وسير رجال الجيش على ، وجلهم من الاعجام صنائع معروفه ونداه ؟ »

هذا ما كان يردده الرشيد في مثل هذا الظرف ، لاسيما وقد اشتدت هجمات الاعداء ووشاياتهم فى حقه فلا يلتفت حتى يسمع واشياً ولا يمشى خطوة حتى يجد من يحدثه بخيانة جعفر له . وما أكثر الاوراق التى كان يجدها فى سريره تحذره بعاقبة الحال وسوء المنقلب

فكر كثيراً واستعرض وجوه الرأى للتخلص من هذه الحال فخطر بباله ان يوفده الى الخراسان ولكن أحجم عن هذا الرأى لخطورته لان جعفر قد يجتمع مريدوه واشياعه حوله هناك، فيؤلف منهم قوة كبيرة لاتقاوم، فلم يجد الا القتل داء شافيا. ولكن كان عليه أن يلتمس لقصده هـذا عذراً وينتظر الفرصة السانحـة . ولذلك لم يجد مندوحة من الصبر والتأنى فنادى مسروراً وأمره بان يذهب الى وزيره، يدعوه الى تناول طعام العشاء

كان الرشيد ينتظره بوجه باسم ومحيا طلق وهو على أريكة مزركشة قائمة على عرش مذهب . وعلى مقربة منه مائدة تنوء باطباق الفضة المحتوية على صنوف الفواكه والمشمومات، بجانبها أكواب من البلور، تتلألأ داخلها أشربة ملونة وقد فاحت القاعة بعنبر العنبر والصندل والورد

فى الغرفة المجاورة، على مقربة من القاعة التى فيها هذه النفائس، كان أبو نواس وأبو زكار وابراهيم الموصلى يتشاورون فيما بينهم على الاغاني والالحان التى يطربون بها فى تلك الليلة مسامع مولاهم الخليفه

لم يمض على انتظار الخليفة زمن كبير حتى وصل مسامعه صليل السيوف وصهيل الخيول . حضر جعفر مع رجال حاشيته.

صوب الخليفة انظاره نحو الباب الذى سيدخل منه الوزير وعند مارفع الوزير السجف الحقيقية المتدلية على الباب نظر الى الخليفة ثم الى نظراته المنطوية على الغيظ والحقد فكاد يصعق فى مكانه ولكنه لم شعثه وخطا نحو الخليفة خطوات ثابتة ، يقدم له تحية الاحترام

أخفى لرشيد مابين جوانحه من الغيظ والحقد وابتسم للوزير ليخفى ما تنطوى عليه جوارحه فقال له معترضاً على لباسه : —

— ما هذا يا أخي اننا سنتناول الطعام على حدة فلماذا اعتنيت بلباسك الى هذا الحد؟

كان الخليفة فى هذا المجلس ضاحكا لاهيا ،يملأ الاقداح ويسأل جعفر عن شئونه الخاصة ،ويداعب الندماء،ويطرب لنغمات الموصلى وانشاد الشعراء أما جعفر فكان يحاول اسكات خفقان قلبه واضطرابه ليشارك الخليفة فى هذا السرور والنشاط . كان يحاول أن يرفع عن نفسه أثر تلك النظرات الاولى التى قابله الخليفة بها كان يجاهد نفسه ليبتسم وليضحك ، ولكن كانت كلمات الخليفة وابتساماته ونظراته تسدد فى صدره كأنها سهام مسنونة. علم جعفر كل شيء وأيقن بزوال مكانته من نفس مولاه وأيقن بالسقوط على أثر تلك النظرة المعنوية

أيمكن أن يكون الخليفة وقف على سره واطلع على ما بينه وبين العباسة ؟ محال أن يكون ذلك . فمن يستطيع أن يخبر الخليفة بهذا الامر ليستهدف غضبه . هل وصلته وشاية أوسعي اليه أحد أعدائه . لاريب فى ذلك فانه كان يشعر بأن أعداءه يتألبون عليه وأن كلمتهم اشتدت فى الايام الاخيرة وبأن نفوذهم أخذ فى الاستفحلال

قارب الطعام على الانتهاء وكان الرشيد ووزيره يتناولان الفاكهة وكان الخليفة قد مد يده الى اجاصة فقال له فجأة :

- كدت أنسى كيف حال يحيى بن عبد الله الطالبي ؟ فارتبك جعفر الا انه قال :

— هو فى الحبس يامولاى

فقال الرشيد: — بحياتى ؟

ففطن جعفر وأجاب : لا وحياتك ، ولكن أطلقته ، لانى علمت انه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد :

— نعم ما فعلت . هذا ما كنت انتظره من حسن فطانتك

انتهى الطعام وجلسا يتنادمان قليلا وخاضا فى شئون مختلفة وفى النهاية عندما قام جعفر نظر الرشيد اليه وهو يقول فى نفسه: قتلني الله ان لم أقتلك [1]

---

(١) الفخرى

الفصل الخامس

أسدل الرشيد الستار على تلك الجلسة البديعة بجملة تهديدية حفظها لنا التاريخ حتى يومنا هـذا . هاقـد دار الفلك دورته وانقضت أيام الصفاء والمخادنة ، أوقات السلام والمخالصة انها لساعة رهيبة . وأزمة عصبية وشدة مريرة أن يجد المرأ نفسه هدفا لسهام المخاصمة بعد ان كان موضع التجلة والاكرام على غرة من الدهر وغفوة من الزمان

دام الحال على هذا المنوال فتعقدت الازمة وكان جعفر حائرا مهموما واعداؤه فرحين مسرورين ، لا ينفكون عن نصب شراك الحيل والدسائس وإيصال الاذى اليه، ماوجدوا الى ذلك سبيلا

اشتد قلق جعفر لانه كان لايفكر بشأن نفسه فحسب ، بل كان يفكر فى أمر عباسته، فاذا سمع الرشيد بما وصلت اليه علاقتهما وبنتاج هذه العلاقة أى بابنهما حسن ، قضى عليهما وطوى من صحيفة الوجود خبرهما . غير أن جعفر لم يفته أن يأخذ الحيطه قبل وقوع المحظور ولذلك أرسل الطفل الى مكة مع مولى من مواليه المخلصين .

حقاما الحياة الا مجموعة احساسات وآلام إن جعفراً ليضحى

وزارته وماهو فيه من أبهة حال ورفاهة عيش في سبيل راحتهما وهنائهما ولكن كيف يتسنى له ذلك وقد تكاثر عليه أعداؤه؟ ليس أمامه ليعيش آمنا مطمئنا تحت ظلال الراحة والهدوء، الامفارقة بغداد وإن السبيل الى ذلك سهل ميسور فهو يتحمل متاعب السفر الى تلك الاصقاع مع عباسته وابنيهما، انه ليستطيع ذلك اذا قدر أن يترك الوزارة دون أن يلحقه ما يخدش السمعة أو الشرف . ولكن الشعب الشعب ذى المزاج المتغير ، الشعب المتلون كالحرباء

قد انفض اليوم من حوله وحول بيته الكثيرون ممن نشأوا وترعرعوا في ظلال نعمة البرامكة ونداهم . كان واثقا من ذلك مع انه لم يحاول يوما ما ان يجرح احساس أحد منهم انما كان يسعى في أن يقيم باستقامة وعدل ما أعوج من أخلاقهم . كان عليه أن يقاوم ويكافح وأن يقف أمام هذه الجموع المحتشدة مستمداً من المولي العون والعناية . قد صمم أن يقاوم حتى النفس الأخير دون ان يتطرق اليه اليأس أو تفتر عنه العزيمة مادامت روحه المعنوية أي العباسة في حفظ وأما

نعم كان وجود العباسة يغرس في كل ذرة من ذرات كيانه بذور الشجاعة والاقدام . أراد أن يحيى في دائرة تتنسم العباسة داخل حدودها

كانت أخت الرشيد نجمة آماله، منبع أشواقه، أفق مسراته،

بل كانت هى الـكل فى الـكل .

كان الآن يعيش للعباسة ويعمل للعباسة ويناضل لاجل العباسة ، انها مقرأمله ومبعث شجاعته وإقدامه . سوف يكافح أعداءه بمداليوم ويقف أمامهم وجها لوجه ويلق عليهم درساً فعلياً فى نظرية تنازع البقاء لغرض واحد هو سعادة العباسة ..



الفصل السادس

بينما كان جعفر غارقا فى قرار عميق من لجج هـذه الفلسفة الروحية والمشاعر المعنوية وهو يظن نفسه فى حصن حصين من خيراته السالفة ونعمائه السابقة ، كان المحذور قد وقع وسبق السيف المذل . أجل ان عيون زبيدة الذين نقلوا اليها أخبار ملاقاتهما الليلية هو والعباسة وتزاورهما ومناجاتهما لبعض تحت أشعة القمر فى حدائق الخلافة ، نقلوا اليها كذلك بشرى ولادة الحسن وارساله الى مكة ، الى غير ذلك من خطير الحوادث

ما كاد ذلك يصل مسامع زبيدة حتى اجتمعت بالفضل وابنها الأمين وتشاوروا جميعا كيف يزفون هذه الحوادث الى مسامع الخليفة .؟

فكروا كثيرا فوجدوا خير وسيلة يتذرعون بها هو كتابة رقاع يدونون بها أبياتا من الشعر تتضمن الحادثة ينثرونها في أرجاء القاعة التى يجلس الرشيد فيها وسرعان ما عمدوا الى هذه الفكرة فأخرجوها من حيز القول الى دائرة العمل .

لم يمض الا قليل من الزمن حتى علم الخليفة بالسر المكتوم وأسكنه فى قرار مكين من زوايا صدره وسافر فجأة فى تلك

السنة الى الحجاز فأوجس جعفر خيفة من هذه الرحلة وتوقع أن يحدث على أثرها حوادث ذات بال

وصل الخليفة الى مكة فبث العيون والارصاد يبحث عن ابن العباسة الى أن عثر على ضالته وعرف النجل الظريف سايل الدوحة الهاشمية ، من سمات وجهه . كان الحسن ذا وجه مشرق بضياء الحسن والبهجة ، يشبه أمه العباسة أخت الرشيد وتكاد عيناه البراقتان تفشيان سر الحبيب

كاد الحب يتغلب عليه فيشفق على ذلك الغلام الجميل بن أخته لولا الغرور . نعم ! تغلب الغرور على أمره وتسيطر عل حواسه فما أعجز الانسان أمام تلك القوة الموهومة التى تسيطر على ارادته

استوثق الرشيد من الامر فقفل راجعا الى بغداد مقر الخلافة ، وقد خفف ذلك من هيجان غيظه وكمده . كان قد سافر الى مكة مسرعا مضطربا فعاد منها هادئا مطمئنا وقد وقف على ما يريد أن يعلمه بل مكث فى محطات كثيرة لقبول الهدايا كما قبل أيضا هدايا البرامكة كالمعتاد وشنف سمعه بمديحهم وحمدهم له وفى النهاية حط الرحال عند مدينة (الانبار) التى يستظرفها على شاطىء الدجلة

كان من عادة الرشيد أن يتقابل مع وزيره جعفر فى هذه النقطة ، مدينة الانبار ، عند عودته من بيت الله الحرام . وكان

من عادة جعفر أن يولم فيها وليمة كبرى يدعو اليها مولاه الخليفة. ولكن حدث هذه المرة ان الرشيد لم يقبل دعوة وزيره وانما فضل أن ينزل فى قصره الخاص ليرتاح من وعثاء السفر . ففهم جعفر ما ينطوى عليه هذا الرفض ونظر الى أفق المستقبل فرآه مظللا بسحابة سوداء اقتربت ساعة الادبار ، انها تسرع نحوه ، وقد أصبح مستقبل ابنه الحسن مظلما . ماذا ألقاه الخليفة فى غيابات السجون ماذا تكون حاله المباسة ؟ ولم هذا الجد العاثر ونكد الطالع ؟ أهذا جزاء صداقته واخلاصه للخلافة منذ نعومة أظفاره ؟ ألا يعلم الرشيد كل ذلك ؟ ماذا فعل للناس حتى يستحق منهم مثل هذا الجزاء ؟ وكأنى به يقول لهم :

- صنعت معكم خيرا فكيف يكون جزائي شرا

هذا سؤال يجيب عليه الزمان ، الزمان هو الذى يقول :

انهم خانوك لأنك أحسنت اليهم ! ألم تسمع قول مشرع الاسلام . (اتق شر من احسنت اليه)

أخذت الافكار تردد مخيلته تباعاً آخذة بعضها برقاب بعض ولكنه كان لا يصدق ان الخليفة يعلم يوما ما بينه وبين العباسة لانه كان جد واثق منها ومن رجال معيته . كان يعلم ان منزلته قد قلت فى نظر الرشيد . وكان يعزو ذلك الى الوشايات التى يحيكها الأعداء حوله . وعند ما نقل هذه الحالة الى العباسة وجفاء الرشيد

له ارتعشت لانها كانت تعلم اخيها وأدركت بفطنتها وبعد نظرها ان إدبار جعفر منشؤه علم الخليفة بما بينهما . أراد جعفر أن يقنعها ويسكن جأشها الا انه عبثا حاول تخفيف ماتغلف حول روحها من المشاعر المؤلمة انها كانت ترتعد تحت عبء رؤيا مفجعة قد انقبض صدرها امام مشهد مؤلم اصبحت تتوقع حدوثه الساعة قبل الساعة

كان الرشيد في تلك الآونة وقد سار من الانبار الى بغداد في السفن وجعل قبل أن يصل العاصمة يشرب تارة ويلهو اخرى وعنده ابو ذكار يغنيه فلما اقبل المساء دعا مسرورا الخادم ، وكان ومبغضا لجعفر فقال له

- اذهب فجئني برأس جعفر

بعد أن اتم جملته هذه ملأ قدح الشراب وأخذ يسمع أباذكار الذى أنطقته الطبيعة فى تلك الساعة الفجيعة بهذا البيت

فلا تبعد فكل فتى سيأتى   على الموت يطرق أو يغادى

وبينما كان الرشيد يستنشد أبا ذكار باقى الابيات

كان مسرور فى طريقه الى قصر البرامكة وعند ما وصل هناك دخل على جعفر فى غرفته بغير اذن وقال له

- الخليفة يطلبك

وبينما كان جعفر غارقا فى لجج من افكاره عاوده مسرور بقوله ،

- ان الخليفة قد طلبك

- لقد سررتني بمجيئك وسوأتني بدخولك على بغير اذن

- الذى جئت له أجل ،أجب أمير المؤمنين الى مايريد بك

،قام جعفر مع رجال حاشيته ورافق مسروراً الى قصر الخلافة وهناك ظل رجاله على الباب ودخل معه ومسرور الى الحديقة وعطفا الى غرفة خاصة على الطريق وهنا قال له مسرور

- ان الخليفة يطلب رأسك

صعق جعفر فى مكانه على أثر هذه الجملة وتضعضع أمام هذه الضربة القاضيـة ووقع على رجليه يقبلهما ناسيا عزة نفسه ووقاره وقال مسترحما

- بربك ياأخي عاود أمير المؤمنين ،فان الشرب قد حمله على ذلك بل أمهلني الليلة فانه نادم عن قوله غدا

- تناديني الآن بقولك ياأخي وكنت قبل اليوم تأنف من مصافحتي .اني الآن لا أرحمك ولا أرحم شبابك ،قد أمر الخليفة أن تموت الليلة وليس لدى سوى هذا الامر

- اتكن حياتى فداء الخلافة ،ليكن الموت جزاء اخلاص دام ثمانية عشر عاما وانما أريد أن أعرف منك أمراً واحدا قبل قتلي أريد أن أعلم ذنبي الذى استحق عليه الجزاء

فنظر اليه مسرور شزرا ثم فاه بهذه الكلمة :

- العباسة

ما كاد جعفر يسمع بذلك حتي قام من مكانه مدهوشا وقد لمت في سماء مخيلته فكرة واحدة هي أن يموت فداءها إذ ربما أنقذ العباسة بموته فقال :

-دعني أدخل داري فأوصي

فنظر اليه الجلاد بغضب وقال

- لاسبيل الى ذلك

لم يطق جعفر صبرا على أثر هذه الجملة الاخيرة فهاجت أعصابه وهجم على مسرور متمردا يريد خنقه إلا أن الجلاد تمكن من أن يتملص منه وفر إلى زاوية من الغرفة وكان يعلم بأن العباسة مائتة لا محالة فصاح يقول

- قد قتلت السيدة العباسة

وقعت هذه الجملة كالصاعقة على رأس جعفر فهدت كل قواه وأفقدته الرشد والوعي فهرع نحو الجلاد جاثيا متمتما هذه الكلمات : .

- ما انتظارك اذن ، لماذا أعيش بعدها ، عجل لتريحني من هذه الحياة

هكذا سلم نفسه لجلاده وعلى هذه الصورة المفجعة قتل جعفر البرمكي بالغامن عمره ثمانية وثلاثين حجة في عام ١٨٧ من الهجرة

ـ بعد أن أخذ مسرور رأس جعفر قدمه للرشيد على وسادة من الاطلس فأمر بتعليق تلك الرأس التى أحب صاحبها وصادقه زمنا ، على جسر بغداد وأن تحرق بعد ذلك مع الجثة وان يقتل كل من يتشدق بكرم البرامكة ومروءتهم ومن يرثيهم بعد نكبتهم . أما منصب الوزارة فقد اسند بعد جعفر الى عدوه اللدود الفضل بن ربيع حاجب قصر الخلافة سابقا

ومن عجيب ما وقع فى ذلك ماروواه العمراني المؤرخ قال حدث فلان قال :

«دخلت الديوان ، فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت أربعمائة الف دينار ، ثمن خلعة لجعفر بن يحيي الوزير ، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى ، لاحراق جثة جعفر بن يحيي فعجبت من ذلك»

هكذا يريد القدر ومن يستطيع الوصول الى حكمة ذلك ؟ مسكين أنت ياجعفر قد صرت مظهراً لقول القائل

«ان كان ياقلب نصيبك الظلم والعسف فى هذه الحياة فقد تنالها من الاصدقاء قبل الاعداء »

الفصل السابع

على أثر هذه الجناية قام الرشيد ومعه مسرور الى قصر أخته العباسة وكانت فى الطابق الاسفل لم تدلف الى فراشها بعد، تعد معدات السفر الى خراسان فى اليوم التالى ولقد دهش أهل القصر من حضور الخليفة فجأة بعد نصف الليل فهرعوا الى العباسة مذعورين يختلج الخوف فى أفئدتهم يخطرونها بالامر

وقد اقتربت وصيفتها التى لم تفارقها طول الحياة ترجوها النزول من الشرفة الى الحديقة فالهروب عن طريق الدجلة إلا أن العباسة اكتفت بأن تقول :.

- بنات هاشم لا يعرفن سبيلا للهروب

قالت كلمتها تلك وقامت من فورها لتستقبل أخاها وتلاقت معه فى أول ممشى القصر فسلمت عليه باحترام إلا أن الرشيد لم يجاوبها بل ظل يسير ساكنا حتى الغرفة التى اعتاد أن يجالسها فيها

وبعد ان جلس على مقعد قال لاخته

- أوصدى الباب

أوصدت العباسة باب الغرفة وعادت هادئة ساكنة وكان الرشيد ينظر الى وجه اخته مدهوشا وقال لها :

- أتعلمين سبب مجيئي اليك الليلة ؟ إن كنت جاهلة ذلك فها أنا ذا مخبرك . جئت لاسمع من فمك مخالفتك لي وخيانتك لبني هاشم . ما أنت بعد الآن أختي . قولي ما تريدين ان تقوليه قبل ان تفارق الحياة .

فأجابته العباسة بهدوء بال

- لم أرتكب أولا مايشين بسمعة بني هاشم ولم أخالف ثانيا أمرك ولا اهاب الموت كما تعلم . انني انا وانت من اسرة واحدة رغم انكارك ولكنني لم افهم ماتريد ان تقوله فهل لك ان تفصح ياأمير المؤمنين ؟

- لقد فات أوان التزييف . اعترفي ليتم كل شيء . فاني عالم بالامر وقد سمعت قصة جعفر ولا أستطيع ان أصفح عن مخالفتك لأمري واختلاطك بجعفر ، ذلك المملوك الفارسي ولا يمكن أن أنسى تلاقيكما معاً . انني نافر منك فيجب أن تموتي

بهتت العباسة ووقفت جامدة وسط الغرفة لاتبدي ولا تعيد ولا تستطيع أن ترفع عينيها من وجه أخيها المتقد بنيران الغيظ والغضب فصاح الرشيد يقول :

- تكلمي انني منتظر لجوابك .

فأجابته بصوت متهدج كأنما كانت تصحو من كابوس مريع

- انني حليلة جعفر أحببته واعتمدت عليه . وما أحللته من نفسي

هذا المقام الالأجلاء ولما فيه من مزايا ومواهب، فاذا كان ذلك حراما فلتقض على حياتى إنى بين يديك وانى أخطرك بأمر فيه صالحك ونفعك. لاتقتل ذلك الذى تقول انه مملوك فارسى، ذلك الذى صير بغداد والدولة على نحو ماترى ورفع من شأن البلاد (١). انك ان

(١) صدقت الاميرة فيما تثبته هنا على لسان العباسة حقاان جعفر هو الذى رفع من شأن بغداد وجعلها عاصمة الخلافه، مهد الحضارة ومهبط المدنيه والعمران. لقد أسرف الرشيد فى ظلم البرامكه ونسى أثارهم فى تنظيم الدولة من عهد جدهم خالد. ألم يكن خالد من أكبر اعوان ابى مسلم فى نقل الدوله من الامويين الى العباسيين، تناسى الرشيد في نكبتهم ماكان من نجدة خالد لجده الى جعفر المنصور عند ما قتل ابامسلم فثار الفرس والاكراد عليه ناهيك بما كان من تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيي وحفيده الفضل وجعفر البرامكة كانوا جمال الدوله وقوام ابهتها وكانت بغداد ملأى بآثار فضلهم وجهودهم. أقاموا فيها المكاتب وحلقات الدروس ومنازل الجند والملاجيء ومجالس القضاة وغرف الشرطه.

روجوا العلم والفلسفة وشجعوا أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس بما كانوا يبذلونه لهم من الاعطية. وما ينفقونه في هذا السبيل من الرواتب وكفى يحيى بن خالد فخراً أنه أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانية الى العربية.

سعوا فى جمع الكتب من الهند وسواها واستقدموا نطس الاطباء من مختلف البلاد لترويج صناعة الطب ويكفى الفضل بن يحيى من

فعلت ذلك يذكرك التاريخ ظالما متعسفا ويذكر ايامك بالعار . إن كنت تريد ضحية فها أنذا . سكن ثائرة غضبك بالقضاء على حياتي ، ولكن انا ماخالفت لك أمرا . اذا كان احترام عقد أمضيته انت بيدك بعد خيانة فاتهمني . تذكر المولى واخش الآخر . ان العدل الالهي سيذكرك بموقفك هذا

فنزع الرشيد من مكانه حانقا وعيناه تتقدان بنيران الغيظ وهجم عليها يقول :

- قد جاوزت الحد . أمثلي هذا القول . رباه لا أستطيع احتمالا . أنت مجرمة فيجب أن تموتي . كنت قد قيدت العقد بشرط أنت الآن تتجاهلينه

- كلا لم أنسه ولكن هل هو شرط مشروع ؟ أتجوز أمثال هذه الحيل في ديننا الحنيف ؟ لم أرتكب أمرا يخالف الشرع وانما أنت الذى تريد أن تحرم ما أحله الله . ألا اتق الله فى نفسك ياهارون أبن ايمانك ؟ ألم ننشأ معا ؟ الم نعطف على بعضنا منذ الصغر إن قتلتني أذهب ضحية على مذبح غرورك . أما جعفر فأنت تعلم شهامته ومزاياه حق العلم ولن تجد من يسد فراغه فان كنت مصمما على ضحية فها أنذا بين يديك . إنزل سوط غضبك

الاثر الجميل فى عمران بغداد أنه أول من سعي فى عمرانها وانه أول من سعي فى استخدام الكاغد (الورق) فانشئت له المعامل فى بغداد

دلي برىء واحد ولا تلوث يديك بجريمتين

لم يتمالك الرشيد نفسه عند سماعه الجملة الاخيرة فصاح مزمجرا :

- أدفاعا عنه أمامي . ستموتون انتم الثلاثة : أنت وهو وحسن . انا الخليفة لامرد لامرى

فحرك اسم (حسن) عواطف الامومة فى نفسها فارتمت عند قدمى اخيها تصيح

- بربك اصفح ولا تقتل طفلا بريئا معصوما يا أمير المؤمنين انك والدفاتق الله ، انا لاأطلب الصفح من أخي انما أرجو الغفران من الخليفة هارون الرشيد

كانت العباسة تبكى بكاء مرا . وهى لم تفقد حرارتها حتى تلك اللحظة ولكنها أضاعت كل شيء واظلمت الدنيا فى عينيها واصبحت يائسة مفككة الاوصال عندما اذكر مقتل ابنها

لم يعبأ الرشيد بتوسلاتها ولم يحركه بكاؤها بل قال :

- كل هذا لايجدى . قد قلت كلمتى الاخيرة

ونادى مسرورا بعد ذلك ففهمت العباسة قصده فاعتدلت ووقفت شامخة برأسها تستشهد وتستغفر

دخل مسرور وانحنى أمامها ولكنها لم تحفل به ولم تتنازل الى رد السلام وانما حولت وجهها الى الكعبة ، مقر ابنها الحسن

وقد كانت تظنه على قيد الحياة ، تدعو المولى أن يكلأه بعين عنايته وتحولت بعد ذلك نحو قصر جعفر و فى لحظة أطار مسرور رأسها بضربة واحدة من سيفه فوقع على الارض متدحرجا حتى اقدام الرشيد . . ؟

تلكما العينان الجميلتان كانتا تنظران الى الرشيد تفكر انه بقضاء الآخرة عندما ينصب ميزان الاعمال . فارتعشت روحه داخل جسده وقام من فوره يأمر مسرورا بان يعجل فيماند به اليه . فوفد الغرفة عشرة رجال حفروا وسطها حفرة وادرو فيها الجثة و بعد اتمام العملية أمر الرشيد بقتلهم وبأن ترمى أجسادهم فى الدجلة

عندما تمت الفاجعة وخرج الرشيد من غرفة ضحيته كان لمعان الصبح قد بدا وكانت أضواء الصباح الوافدة الى الغرفة من حديقة القصر تنير هذا المرقد الابدى بهدوء وجلال

انقضى عمل الرشيد والتأمت جراح غروره فأدار أكرة الباب استعداداً للخروج ولكن ماكاد يفعل ذلك حتى ارتد قليلا من تأثير أنوار الصباح ؛ هجم الضوء الى الغرفة من خلال الباب وملأت أرجاءها أشعة الشمس الآخذة فى البزوغ مارة فى طريقها الى الغرفة بالورود والزهور وخمائل القرنفل والياسمين فتصنع من ألوانها وروائحها الزكيه باقة معنوية تضعها باحترام واجلال فوق مضجع العباسة



العباسة للرشيد : لاتلوث يديك بجريمتين

كانت الطبيعة رغم اشراقها كئيبة مطرقة ، هادئة يكسوها جلال الموت كأنما هي أيضا تبكي العباسة وقد كانت زهرة من زهراتها

لو وقع مثل هذا الغرور في أوائل الاسلام لدهشنا ووقعنا في مهاوي الحيرة غير أن حدوث هذا العسف في القرن الثاني من الهجرة في ذلك الدور العظيم يأخذ بيدنا الى مناهج التفكير العميق. انني لاتحاشى تدقيق ومحاكمة هذه الفاجعة المؤلمة التي سودت صحائف الرشيد فالزمان قد قاضاه

ان هارون الرشيد ، رغم صفاته وفضائله ، رغم مزاياه ومناقبه قاتل سفك دماء جعفر ولم يقدره حق قدره

قد لوث يديه بدماء بريئين فلا جوده ولا كرم طباعه ولا شهرته ولا استفحال نفوذه تشفع له أو تزيل أثر الدماء من يده

عند ما نقرأ تاريخ حياته تثور نفوسنا وتتمرد ، إننا نعلم أن مقابلة الاحسان بالاساءة كانت من صفات الاقدمين ، لاسيما أيام حكومتي روما واليونان ولكننا قد نعذرهم ونتشبث في ايجاد المبررات لهم لانهم كانوا محرومين من نور العدالة الاسلامية أما الرشيد فمسلم ومن بني هاشم فكان لزاما عليه أن يتحلى بالمروءة ولكنه أبى إلا أن يظهر بمظهر المستبد المغرور

واني كامرأة رأيت من واجبي ان انقل سيرة الرشيد المعروفة كثيرا وتاريخ حياة جعفر المعروف قليلا وحياة العباسة المحاطة بالغموض والابهام على هذا الوجه البسيط

٤

الملكة عصمة الدين

﴿ شجرة الدر ﴾



الفصل الاول

الزمن مقياس الحياة، ولولا الحياة لما كان الزمن، ولما كان للأشياء بدايات ونهايات .

ونهاية كل أمر بداية أمر آخر، فاذا اضمحلت أمة من الامم وامحى من صحيفة البقاء كيانها نشأت على أطلالها أمة أخرى وكيان آخر . فكلمة (الزمان) من مخترعات الانسان، وضعها ليقيس بها الحياة، وليعبر بها عن سلسلة من الوقائع والحوادث والشئون، طويلة الأمد مختلفة الحلقات . فلهذه الكلمة مدلول وليس لها وجود . .

وحياة كل أمرئ زمان قائم بنفسه ونهاية زمنه بداية لحياة أخرى .

هاكم شجرة الدر التى نقص اليوم سيرتها الغريبة فقد كان بدء حكمها نهاية زمن جليل وعصر عظيم . أجل فهى بدأت حكمها عند ما أفل نجم حكومة الأيوبيين العظام . وقد كان انبثاق هذا النور فوق أطلال الحكومة الأيوبية أول نجمة من نجوم الأمل فى سماء دولة المماليك . لقد أنارت تلك الشرارة عصرها فكانت شجرة الدر حلقة الاتصال بين الايوبين والمماليك وتمكنت بمهارتها من اظهار شخصية ذات رونق وجلال :

مصائب قوم عند قوم فوائد . كانت شجرة الدر ناصية مؤثرة،

بين مخدرات الاسلام . فهى فتاة تركية عالية القدر ، جميلة الصورة جذابة الملامح . ذات فراسة وتدبير . على علم واسع ومعرفة تامة لها عزيمة ماضية وجأش ثابت فاشتهر أمرها وطار صيتها فى اقاصى البلاد والأمصار .

واذا استثنينا بلاد الهند . فهى المرأة الاولى فى الاسلام التى تقلدت الملك وادارت دفة الحكم بمهارة ودراية . لم يكن من المألوف المعهود فى بلاد الشرق أن تحكم المرأة وتتولى زمام بلادها بنفسها مباشرة ولذلك كثيرا ما قرأت قصة حياتها مشفوعة بالاستغراب بين طيات بعض الرسائل والمخطوطات والدهشة التى تملكت قلوب كاتبيها من أن أمرأة تتوصل الى الحكم بلقب الملكة عصمة الدين .

ان وصولها الى امر كهذا غير مألوف من أبناء قومها دليل فطنة ودراية وذكاء فائق الحد . أجل فمن من النساء المسلمات توصلت الى ضرب النقود وقراءة الخطب على المنابر باسمها ؟ .

كانت فى أول أمرها جارية ظريفة يحبها الصالح نجم الدين الملك السابع فى حكومة الايوبيين فولدت له غلاما سمى خليل وتزوجها بعد ذلك وأشركها فى الحكم . كان الملك الصالح يجلها ويخصها بالاحترام ولقد أظهرت قدرة خارقة للعاده فى إدارة الامور ، أدهشت معاصريها

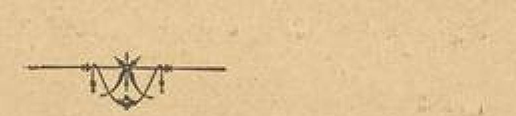
شاركت شجرة الدر زوجها فى ادارة الحكم منذ كان وليا للعهد، يحكم دمشق من قبل أبيه «الكامل» فأمدته برأيها وأعانته بفكرها وكانت الزوجة الصالحة، شريكة العمر وصديقة الحياة، فبدأ يشعر بقيمة هذه المعونة الأدبية ويقدرها حق قدرها ويسر بها. (١)

دار الزمان دورته ومات «الكامل» فاضطر الملك «الصالح» الى العودة الى مصر، مقر العرش والحكم، تاركا وراءه ذكريات لذيذة من أيام الهناء بين رياض دمشق وحدائقها الغناء. هنا بدأت متاعبه وجهوده، فقد كثرت الفتن واشتدت الغارات فى أول توليه الحكم فكان لا ينتهى من قمع فتنة حتى يرى نفسه أمام غارة خارجية تهدد كيان البلاد فيعمد الى صدها وكبح جماح الذين يريدون بمصر شراً، ولا يكاد يدفع ضررها حتى يسمع باندلاع لهيب فتنة أخرى فى قلب البلاد فيسرع نحوها. كل هذه المشاغل والمتاعب صيرته قيد جواده لا يفارق صهوته ليل نهار.

كانت فتنة الشام أشدها مراساً وأذكاها ناراً فحشد جنوده وطار الى مكان الفتنة على رأس جيشه وبعد أن كابد المرائر فى سبيل قمعها انتصر على العاصين وتمكن من الضرب على أيديهم وتأديبهم ولكن لم يتيسر له أن يجنى ثمرة النصر وأن يهنأ بسعادة الفوز، لأنه أصيب بداء عضال أقعده فى فراشه شهوراً طويلة.

(١) الدر المنثور

كان يتوق الى رؤية وطنه مصر ويذوب شوقاً وحنيناً الى نيل بلاده العذب ، فيقعده الرغبة في انجاز ماندب نفسه اليه من القضاء على الفتنة واجتثاثها من أصولها وعدم القيام من دمشق قبل تمام الشفاء . وبينما هو يتماثل على فراش الأوجاع والاوصاب ، بين لذيذ الأماني والأمال ، اذا برسالة من زوجته شجرة الدر التي كانت تحكم البلاد أثناء غيابه ، تخبره فيها بقيام الصليبيين من قبرص متوجهين الى مصر ، فقام من فوره محمولا على هودج حتى وصل المنصورة في بضعة أيام قاسى أثناءها أشد المتاعب والآلام .



الفصل الثاني

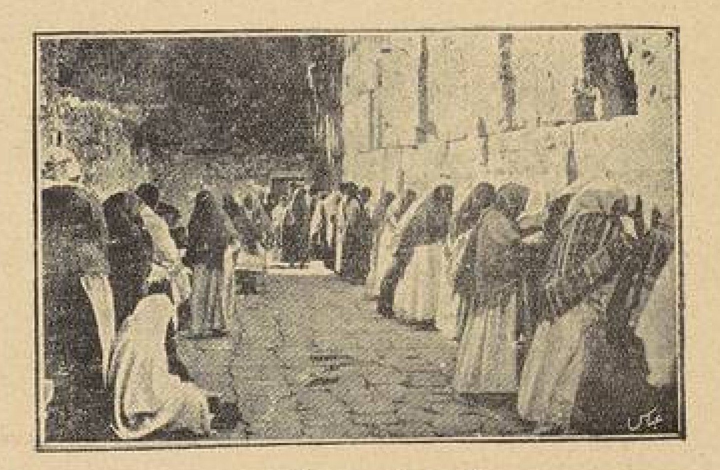
عام ٦٤٨ من الهجرة

أصيب لويس التاسع ملك فرنسا بمرض عجيب، أعجز نطس الاطباء ومهرة الحكماء فى بلاده، فصرفوا كل مجهوداتهم الفنية وأعملوا كل ما استطاعوا من حذق وفكرة فى سبيل الوصول الى تشخيص المرض ولكن ذهبت أتعابهم وجهودهم أدراج الرياح. لم يتمكنوا من تخفيف آلامه وأوصابه فوقعت فرنسا فى مهاوى اليأس وارتبكت لا تدرى سبيلا الى نجاة الملك مما وقع فيه الى أن خطر ذات يوم ببال (بلانش دوكاستيل) أم الملك و (مرغريت دوبر وفانس) زوجته أن يجمعا كبار القسس ورجال الدين ليعقدوا مجلسا للمشاورة فيما بينهم فقرروا أن نوقد الشموع فى كل بيت وأن تقام الصلوات فى الكنائس على الدوام وسرعان ما أقبل الكبراء والأمراء على تنفيذ الفكرة، قدوة لمن دونهم من العامة ولم تمض فترة من الزمن حتى كان الجميع ناسجين على ذاك المنوال من ايقاد الشموع والابتهال فى الكنائس بالدعوات. ولكن ظل الملك رغم تلك الوسائل أسير الفراش، يعانى آلام مرضه الوبيل ودائه العضال. لم تجد الشموع نفعا ولم تنفع دعوات القسس وابتهالات الشعب فى

رد القوة والحياة الى ذلك اللسان المشلول والجسم المفلوج فاستمر على حالته من الوهن والجمود كأنه صنم ملقى تحت اللحف والأردية اشتد قلق الشعب ودب اليأس فى قلوب القسس فكنت تراهم فى أسواق المدينة وشوارعها يقطعونها طولا وعرضا بمسابحهم الطويلة وثيابهم الكهنوتية ، وقد أيقنوا بأن شفاء مليكهم من رابع المستحيلات لقد بدأوا يشعرون أن الملك مقضى عليه بالهلاك وأن الموت على قاب قوسين منه أو أدنى بعد أن جربوا كل تعاويذهم وأدعيتهم فذهبت أدراج الرياح . لقد يئس الكل الا الملك فقد بقيت فى صدره بقية من نور الأمل تخفف من لوعته كان لا يستطيع أن يأتي بأدنى حركة أو يحرك لسانه بكلمة ولكن قواه العقلية ما زالت كما هي فجعل يتوسل الى ربه بطلب الشفاء ويغالب المرض بقوة ارادته ، معاهداً ربه بنذر جعله رهن شفائه وقيد تخلصه من أسر بلواه . فقد أنذر وياللهول ما أنذر !... أنذر أن ينقذ بيت المقدس من المسلمين ويخلص تلك الاماكن الطاهرة من أيديهم القذرة ان تم له الشفاء وكتب له ربه العافية والحياة الأمل حياة واليأس موت ، فقد دب دبيب الحياة في تلك النفس الحائرة الحائمة حول الامل وأصبح الملك عقب ابتهالاته النفسية يتماثل نحو الشفاء شيئاً فشيئاً موقناً أن نذره الغريب كان سبباً فى شفائه زاعما أن المولى لم يمن عليه بالشفاء



بيت المقدس



اليهود فى بيت المقدس

الا لعزمه على تطهير بيت المقدس من أيدى المسلمين الملوثة . ولقد صادفت هـذه العقيدة الفاسدة هوى فى نفس المسيحيين في زمن كان فيه بيت المقدس محفوفا بعناية المسلمين ورعايتهم اكثر من أى وقت آخر [1] لأن المسلمين وقتئذ كانو أشد تمسكا بالدين ، هذا الى أنه بيت محجوج من جميع طوائف الشرق مرموق بعين التجلة والاحترام من الجميع لبلاد المشرق مزية لايمكن انكارها مع مالها من مثالب ومساوى ، تلك المزية هى احترام الشرقيين للمعابد وتقديسهم الأماكن المقدسة هذه حقيقة لايمكن نكرانها فاحترام الشرقى لكل مكان مقدس [2] غريزة كامنة فى نفسه ورثها عن آبائه وأجداده جيلا بعد جيل .

كان البيت المقدس وما زال الى يومنا هذا مسجدا محجوجا من كافة أقطار العالم الاسلامى يزورونه ويقدسونه ويقيمون فيه شعائر الله ويحافظون على ما فيه من الآثار والتحف محافظتهم على

---

(١) فى بيت المقدس اليوم من التصليحات التى تمت فى أيام مختلفة من عصور الحكم الاسلامى مايدل على اهتمام الخلفاء والامراء من كافة أقطار العالم الاسلامى بالمسجد الاقصى .

(٢) قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)

أعز الاشياء واحبها لديهم تلك الايدى الملوثة حسب زعمهم السخيف وقياسهم الباطل طالما رفعت ماتهدم من أركانه وأصلحت ما تصدع من بنيانه فأعادت له الجدة زمنا بعد زمن وجيلا بعد جيل ليكون لسانا ناطقا وشاهدا عادلا على احترام المسلمين عامة لمسجدهم الاقصى اما فكرة التخريب فلم تخطر على بال امير مسلم مهما تناهى فى الظلم واشتد فى الجبروت والعسف أيجوز اذاً والحال على مافصلناه تضحية المئات والالوف على مذبح التعصب ؟

لقد أزهقوا فى حرب مقدسة واحدة مايئوف عن سبعين الف من المسلمين الآمنين فى ديارهم ، فأصابوا من أعراضهم ومثلوا بأجسادهم حتى بلغت بهم الفظاعة الى حد استخراج مرائر القلوب ووضعها فى القوارير ليستصحبوه الى بلادهم كأدوية ناجعة لبعض الامراض حسب زعمهم الباطل

لقد امر الانجيل بالرحمة والشفقة وان يدير المرء خده الايسر لمن يصفعه على خده الايمن فهل صدعوا بأمره وهل المسيح هو الذى اوحى اليهم بأثارة تلك الحروب الشنيعة أيرضى منقذ الانسانيه والآمر بالاحسان والحنان أن يموت الالوف من أهل الهلال فى سبيل غرور حملة الصلبان !

اما وقد أبل لويس التاسع عشر من مرضه فأرسل الى البابا يعرض عليه عزمه على تنفيذ نذره وانه مستعد لتجهيز المعدات

لذلك وما كاد يصله الاذن حتى أعد الحملة الصليبيه السابعه وقوامها خمسون الفا من الجنود ومئتى قطعة من السفن ولما تم له ما أراد ابحرت سفنه بتلك العدة وذلك العدد ووجهتها جزيرة قبرص

***

يرى القارىء من خلال ماشرحناه ان الصليب ينافس الهلال منذ زمن بعيد ولقد أصبحت من القواعد المقررة لديهم ان الصليب قد يتسيطر فى كل مكان ينير فوقه الهلال اما الهلال فلا يجب أن يضىء فوق مكان يحكم فيه الصليب لأن الصليب لا يريد ان يرى رقيبا له ولأن الخفافيش يعميها ضوء الهلال ان الزور والبهتان لا يدومان انهما سلطان ولا يطغيان على الحق أو يغمطان نوره اما القوة فقد تضغط على انفاسه فحسب

الشرق اكثر حلما واكرم وفادة وأشد تسامحا من الغرب من كل الوجوه

لقد عاهد ملك فرنسا ربه ان يهاجم الصليب فى وقت نأسف اليوم على مثله لم تكن اذ ذاك ثمت قوه تستطيع ان تصدعصبيتنا الاسلامية او تقف فى وجه وحدتنا الدينية لقد فشلت كل محالفة عقدتها أوربا ضدنا وذهبت مساعيهم التى بذلوها فى سبيل تشتيت شملنا أدراج الرياح ، اذ كانت تربطنا ببعض نحن اهل التوحيد عروة وثقى برباط معنوى واحد كنا نصد كل قوة بقوة اشد منها هى

قوة الاتحاد فكانت كل صدمة منهم تتكسر وتتبعثر كقطع الزجاج فوق سور منيع هو سور عقيدتنا

*
* *

أقام لويس التاسع أمه على منصة الحكم بدله وسافر الى قبرص فى بضع اسابيع ومعه أقاربه وزوجته ووصلوها فى موسم الشتاء ولبثوا فيها حتى انقضائه وكان فرسان الجزيرة قد أخذوا في تعذيب من عثروا عليهم من أسرى المسلمين بانواع العذاب وألوان الضيق وكانوا يكرهونهم على قبول النصرانية بامر وكيل البابا فيخلى سبيل من يقبلها حذر الموت وتقطع اوصال الذين يرفضون تغيير عقيدتهم

وقع أكثر هؤلاء الاسرى المساكين فى أيدى الفرسان من طريق القرصنة وقاسوا عسفا شديداً وظلما مريراً طول مدة الشتاء حتى أنهم لم يتركوا نوعا من أنواع التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى دون تجربتها عليهم وبعد أن أقام لويس وحاشيته على مثل هذا التشفى وازهاق الانفس البشرية خلال ستة اشهر قام بجنوده ، شرعا بسفنه نحو مصر ووجهتهم بيت المقدس لتطهيرها من أيدى المسلمين

الفصل الثالث

وصل الملك الصالح مدينة المنصورة ، مضنى الجسم ، مريضا منهوك القوى فلزم تواً فراش المرض . كان يتألم من دمامل فوق ركبته ومن نزلة صدرية وفدت اليه أثناء الطريق [١] وكانت حرارة الجسم والسعال الطويل ينذرانه بخطر السل فيئس من حاله ووقع فى وهدة الاضطراب اذ كان لا يستطيع الاشراف بنفسه على تعبئة الجيش وما يلزمه من المعدات ومع ذلك فلم يأل جهده فى اصدار الاوامر القتالية والخطط الحربية لتحصين دمياط واعدادها للكفاح والدفاع .

لقد أتم تحصين (دمياط) كما يجب وجهزها بذخائر ومؤنة تكفى حاميتها شهوراً عديدة ثم شرع بعد ذلك فى اعداد الاساطيل من القاهرة وحشد الجنود المصرية عند الساحل الغربى من دمياط تحت قيادة أمراء مصر ووجه القيادة العليا الى الأمير فخر الدين يوسف [٢] ...

* * *

---

(١) الخطط التوفيقية

(٢) المقريزى

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية حاصر الاسطول الفرنسى ثغر دمياط . ثم طلب الملك لويس - جريا على عادة الصليبين - تسليم الثغر من حاميته وعند ما رأي علامات المقاومة وجه خطاب تهديد الى الملك الصالح ، نجم الدين الايوبى قال فيه :

« انك لتعلم أننى حامى ذمار المسيحية كما أنك ولى أمر المسلمين ولقد سمعت بلا ريب أن مسلمى الأندلس قد أصبحوا اليوم أيضا فى قبضة يدنا ، مستظلين برايتنا وهم يهرعون الينا من حين لآخر زرافات ووحدانا يقدمون الينا أموالهم وما ملكت أنفسهم رغبة فى رضانا فنسوقهم كالأغنام ، نقتل ذكورهم ونترك نساءهم أيامى نسبي أولادهم وبناتهم ونصير ديارهم خرابا بلقعا فاعلم ذلك إن كنت تجهله ونصيحتى اليك أننى سأحاربك وأقاتلك مهما بذلت لى من وسائل القرب ، انى مهاجمك حتى لو أقسمت بين النصرانية وارتديت ثياب القسس وحملت الشموع أمامى . إما أن أفوز عليك فأجعل بلادك تحت قبضتى وإما انك تغلبني على أمرى ها أنذا مخبرك فلا تنس ان جنودى كثيرة ورجالى لا يحصى لهم عدد يملأون الوديان والجبال ويناقسون الحصى كثرة وعددا . سوف لا يغمد هؤلاء الرجال سيوفهم بل سيهرعون نحوك لهلاكك وبوارك »

لم ينته الملك الصالح من تلاوة الخطاب حتى بدت على وجهه

علامات التأثر وطفرت دموع الألم من عينه ثم ناوله بعد ذلك الى القاضي بهاء الدين الزهراوى الجالس عن يمينه ليقرأه وبعد التشاور فيما بينهما و بين رجال المعسكر أرسل الرد التالى :

« بعد البسملة والحمدلة أخذت كتابك وانك لتفخر على بكثرة جنودك وتهددنى بمالك من عدة وقوة الافلتعلم أننا رجال سيف لانخشى امرأ فى سبيل كلمة الله فمن مات منا شهيداً قام مكانه مؤمن آخر ومن قصدنا بسوء فانما هو واردالى حتفه بظلفه ألا تبصر عيناك المغرورتان حدة سيوفنا وعظمة ابطالنا ؛ أتعمى عن رؤية القلاع والسواحل التى فتحناها، وديار الاعادى التى أبدناها ؛ لو تمعنت فى أمرك لظهر لك سخف رأيك وتكليف نفسك مشقة لاطائل تحتها ولا مطمع من ورائها . لو ترويت وتبصرت لعلمت أى منقلب ينقلب الظالمون ؛ قال الله فى كتابه العزيز وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »

قرأ لويس التاسع هذه الاسطر النارية فجمع رجاله فى الحال وشاورهم فى الامر وما كادوا يشيرون عليه بنزول الجنود الى البر حتى وطئت جنوده أرض مصر وأمامهم وكيل البابا يحمل صليبا كبيرا، ومن ورائه لويس التاسع بخفق اللواء المقدس فوقه وفوق عائلته ومن خلفهم الحاشية والجنود :

*
* *

بدأت الحرب مساء اليوم العشرين من شهر صفر واشتدت هجمات السفن الاسلامية على الاسطول الفرنسى شدة كادت تؤدى الى فشل الصليبيين وفى تلك الساعة الرهيبة، التى كان المسلمون فيها يقاومون أهل الصليب بصدورهم ويتلقون هجمات العدو بثبات وعزيمة صادقة، تراجع قائد المسلمين الأمير فخر الدين بلا سبب وأخذ يولى الادبار وما كادت الجنود الاسلامية تشعر بفرار قائدها حتى تولاهم الاضطراب ولاذوا أيضا بالفرار اسوة بقائدهم فساد الهرج والمرج بين صفوفهم واختلط حابلهم بنابلهم مسرعين مجدين فى الهروب بكل ما فيهم من قوة حتى وصلوا (اشمون) أما الاهالى فقد ذعروا لهذه الحالة فحملوا ما وصل أيديهم من مال ومتاع متعقبين أثر الجيش ولم يرتفع ستار الليل عن دمياط حتى كانت خاوية على عروشها، ليس فيها انسان من سكانها. أما الصليبيون الذين لم يروا أمامهم مهاجما أو مدافعا اشتبهوا فى الامر وخيل اليهم ان هناك دسيسة مدبرة من المسلمين لايقاعهم فى فخ منصوب فقربوا من المدينة وجلين، حذرين يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى وعندما شعروا بخلوها تقدموا نحوها متجاسرين

ودخلوها دخول الظافرين الغانمين .

ما اشد دهشتهم أمام ذلكم اللغز . لقد ترك الجيش المذعور كل سلاحه وخلف الاهالي أقواتهم وارزاقهم التي ادخروها لستة أشهر .... لم يبق في المدينة انسان واحد ولكنها كانت مملوءة بالذخيرة والسلاح فما هذا التناقض لقد غنم الصليبيون واحرزوا الفوز ودخل صليبيو القرن السابع مدينة دمياط دخول الظافر كما دخل صليبيو القرن العشرين مدينة (قرق كليسا)[1] أيخاف أهل الهلال من الصليب القلوب الطافحة بالايمان ليس فيها متسع للخوف

التاريخ يعيد نفسه .. ما كاد الصليبيون يستولون على دمياط حتى حولوا جوامعها الى كنائس واستتبوا في ربوعها آمنين مطمئنين وقد تملكوا أحكم القلاع المصرية في زمن وجيز وفي فرصة غريبة ما كانوا يحلمون بها وهاهي القاهرة قد اصبحت قيد ذراع منهم يحملون عليها متى شاءوا ؟ اسقط في يد الملك الصالح وفت في عضده اشتد يأسه وزادت آلامه واوجاعه . لكنه هب في الحال مدفوعاً بعزيمة صادقة ووقف امام الجيش الفار يصد تياره الى ان تمكن من ذلك ..

ولما استتب له الامر جمع امراء الجنود الهاربة وامر باعدامهم

(١) يلاحظ ان سمو الاميرة كتبت هذه القطعة أثناء حرب البلقان لان الجزء الاول من الاصل التركي مطبوع سنة ١٩١٣

في الحال حتى انه صلب في ساعة واحدة خمسين من (سناجق الجيش)[1]

لقد دوهم الامير فخر الدين بفراره وتقهقره هذا جيوش المسلمين بوصمة العار واضاع على المسلمين انواتا كثيره واموالا جمة ونفوسا زكية وقدوجه الملك الصالح همته بعد ذلك الى تحصين المنصوره وما بجوارها من القرى والدساكر ولكنه لم ينس ضياع دمياط فكان لا يكل عن تجزية الذين تسببوا في الهزيمة كان يبذل دموع القلب اسى وحزنا كلما اختلجت في نفسه حادثة تلك الخيانة ثم تمرد اتباع الامراء الذين نالهم العقاب وحاولوا العصيان والوقوف في وجهه الا ان الامير فخر الدين تمكن من اسكاتهم واقناعهم موضحا لهم مرض الملك الصالح وقرب دنو الاجل من امير البلاد.

كان الامير فخر الدين مستحقا للعقاب والجزاء إذ كان اس البلاء في حادثة الانهزام ولكنه تملص من العقاب بسهولة ولم يصبه اذى ... لم يشتبك الفريقان عقب سقوط دمياط في معارك حاسمة بل كان الحرب بينهما سجالا ، يتصادمان في مواقع صغيرة ، وكان عدد الاسرى من الصليبيين يتزايد ويتكاثر يوما بعد يوم وكان كلما

---

(١) احدى رتب القيادة في الجيش حسب النظام التركي القديم وكلمة (سنجاق) معناها اللواء وهذه الرتبة هي نفس رتبة (أمير اللواء) الحالية.

تجمع نفر منهم أرسلوهم الى القاهرة وبدأ المسلمون يستردون قوام
ويجمعون شتاتهم شيئا فشيئا وقد أحرزوا فوزا فى بعض المعارك
فقوى فيهم الامل ودب فى نفوسهم النشاط الى الاستعداد لمعركة
حاسمة يطحنون فيها جيوش أعدائهم وهم على مثل هذا الحال
من الامل والثقة واذا بالملك الصالح تشتد عليه وطأة المرض فى
ليلة الأحد من اليوم الرابع عشر من شهر شعبان وما أشرقت الشمس
فى اليوم التالى على حقول المنصورة التى تزين ضفتى النيل حتى
كانت روح الملك بعيدة عن هذا العالم الفانى، بالغامض المعمار بعين عاما
لقد كتموا خبر موته، حذر القلاقل وخشية اضطراب الجيش
فنقلوا جثته سراً فى تابوت من المنصورة الى قصر النيل حيث كانت
تسكن شجرة الدر ودفن في قلعة الروضة. لم يعلم نبأ الوفاة سوى
شجرة الدر وبعض أفراد من المقربين المخلصين، اذ كانت الاميره
تخاف من اثاره الفتن والقلاقل فأرسلت الى رئيس الأغوات
والى قائد الجيوش فخر الدين تطلبهما وأخبرتهما بما وقع وسردت
لهما الاسباب التى حدت بها الى كتمان الامر فاستصوبا رأيها
وأقراها على ما فعلت ثم قرر الثلاثة فى تلك الجلسة أن يرسلوا
(آق طاى) أحد أمراء الجيش الى الملك المعظم توران شاه بن الملك
الصالح وولى عهد السلطنة المقيم في (حصن كيفا) لاحضاره فى الحال
وبعد أن أتمت الاميرة هذا الامر اذاعت بعض الاوامر والمنشورات

على الشعب وأخذت المواثيق والعهود على رجال الجيش بأن يطيعوا الملك الصالح ويقيموا على عهد الملك المعظم توران شاه بعده وقد كتبت الأوامر بخط رجل من حاشية البلاط يدعى سهيل إذ كان خطه شبيها بخط الملك وكما كان أسلوب الاوامر موافقا لاسلوب الملك نفسه حتى أنه لم يشك أحد فى أنها صادرة من الملك ومن هذه الاوامر أن يقرن اسم ولى العهد (توران شاه) بأسم الملك فى خطب الجمعة وأن تضرب النقود بأسمه وكانت الاطباء أثناء ذلك تتردد على المنصورة تغريراً بالناس وايهاما لهم بوجود الملك على قيد الحياة وكانوا يتكتمون خبر موته ويذيعون عنه أنه في شدة المرض غير أن الخبر اتصل ببعض الجواسيس فنقله الى الصليبيين الذين اقامتهم الحادثة واقعدتهم وجعلتهم يتهيأون لغزوة كبرى .

أعد لويس عدته لمهاجمة المنصورة وتحرك اليها بجميع جيشه فالتحم الجيشان فى معركة خطيرة دامت طويلا وتلف عدد كبير من الطرفين وكان ضرر الاعداء أشد واخطر حيث مات ووقع في الاسر منهم عدد كبير وقد استشهد قائد المسلمين فى هذه المعركة فظلت الجنود الاسلامية تقاوم مضطربة بلا رأس يحركها وأيقن المصريون بما يهددهم من الخطر وشعر مماليك الملك الصالح بالنتيجة المؤلمة التى تنتظرهم اذا استولى الصليبيون على البلاد فقاموا جميعا قومة رجل واحد للذود عن وطنهم . هؤلاء هم المماليك البحرية

وقد أطلق عليهم هذا الاسم لاقامتهم بالمنيل فترأس الجيش أحدهم وهو (بايبورس) فجمع شتات الجيش وحمل على الصليبيين حملة بددت جموعهم وكسرتهم شر كسرة ففرحت مصر والمنصورة بهذا الفوز المبين وأقيمت الافراح وازنيت الاسواق وتليت الدعوات شكراً للمولى على ما تولاهم من جميل فضله واحسانه ثم وصل توران شاه عقب هذا الانتصار فاعلن وفاة الملك الصالح وعين ابنه خلفاً له أما شجرة الدر التى تمكنت بمهارتها ودهائها من كتمان الخبر الى حين حضور ولى العهد وجهت اهتمامها الى اقامة المآتم حداداً على زوجها تاركة مقاليد الحكم فى يد توران شاه



الفصل الرابع

ما كاد توران شاه يستلم زمام الحكم حتى بدأ يهاجم الصليبين أملا فى الخوض معهم معركة حاسمة ولقد بذل كل ما فى وسعه لاخراجهم وطردهم من الديار المصرية .

كان معسكر الصليبين فى دمياط ولكن معظم جنودهم كانت مقيمة عند ضواحى المنصورة وأشمون، فخط توران شاه خطة حربية تؤدى الى التفاف جيشه حول الصليبين وما كادت فكرته تتكلل بالنجاح حتى كان جيش الأعداء محصوراً وتحت قبضته .

أما الصليبيون الذين حوصروا بجيوش المسلمين من جميع أطرافهم فقد وقفوا فى وهاد اليأس وانقطعت الامداد والذخائر عنهم فباتوا فى حيرة من أمرهم ثم اشتد كربهم عند ما انتصر (توران شاه) على بحريتهم فى النيل وإغراق نحو خمسين من سفنهم أصبح الصليبيون وقد انقطعت مواصلاتهم فى ضيق واضطراب عظيمين وكان (توران شاه) يرجو من وراء اضطرابهم هذا أن يقضى عليهم القضاء المبرم فى مدة وجيزة . أما الجيوش الاسلامية الذين دبت روح الجرأة بين صفوفهم عقب الانتصارات الباهرة فانهم حملوا على أعدائهم حملة منكرة ، مدفوعين بقوة الايمان ثملين بخمرة



«المحمل المصري» البدعة الحسنة التي سنتها الملكة عصمة الدين» شجرة الدر »

الفوز فشقوا صفوفهم وانهالوا عليهم يكيدون لهم ألوان الضرب والقتل حتى بددوهم وفرقوا وحدتهم شر ممزق .

دحر الصليبيون ولاذوا بالفرار ، مسرعين مهرولين في طريق دمياط ، ونسوا وهم مرتبكين ، مشتتين رفع احدى الجسور الموضوعة على النيل عند مقربة من أشمون فتعقب المسلمون أثرهم حتى نقطة قريبة من دمياط ، حيث وصل لويس وحاشيته الى تل صغير فصعدوه وماكاد المسلمون يبدأون فى محاصرتهم والالتفاف حول التل الذى اعتصموا به حتى طلب ملك فرنسا الامان وسلم نفسه مع رجال حاشيته وخمسماية نفر من جنوده

* * *

وقد وعد أثناء وقوعه فى الاسر بأن يسلم دمياط مقابل أن يترك المسلمون له بيت المقدس فلم يعبأ أحد بقوله بل ساقوه الى المنصورة ووضعوه اسيرا فى دار القاضي فخر الدين

قرر توران شاه بعد ذلك أن يقيم بفارسكور فجمع رجاله وجنده وذهب بهم جميعاً الى المكان المنتخب لمعسكره وهناك وجه اهتمامه لتشييد قصر فخم من الخشب على ضفة النيل ورفع بجانبه برجا عاليا جعله لمسكنه وملذاته الشخصية ، تلك الملذات التي انغمس فى تيارها ، ناسيا أمر الصليبيين وشئون الدولة .

كان يستقبل شمس يومه والكأس بيده وتغرب الغزالة عن حقول فارسكور وهو ثمل مضنى الجسم، مفكوك الاوصال من كثرة الانهماك فى معاقرة بنت الحان ومنادمة الغلمان: كانت أيام حياته تمضى على هذه الوتيرة لايعكر صفوها سوى عداوة متأصلة فى نفسه نحو المماليك البحريين اذ كان لا يطيق سماعاً لنصائحهم وارشاداتهم فكان اذا جلس ليلا جمع حوله الغلمان الذين أحضرهم من دمشق لانه كان لا يستطيع مفارقتهم ساعة واحدة ـ وأوقد الشموع حولهم فاذا دب دبيب الخمر فى النفوس وأخذت تلعب بالرءوس قام توران شاه من مكانه ممتشقا حسامه وبدأ فى مهاجمة الشموع يحاربها ويكافحها، يقطع رؤسها ويمثل بجسومها، زاعما أنها أعداؤه المماليك البحرية.

بمثل هذه الحالة السيئة بدأ الملك المعظم توران شاه أيام حكمه وسلطنته لاهيا عن الواجبات التى يجب تنفيذها فى مثل تلك الايام المصيبة والأوقات الرهيبة التى يعانيها المسلمون، سائراً على المناهج الوعرة المؤدية الى اثارة الفتن وتفكيك أوصال البلاد.

كان ملكاً مستبداً وحاكما مغروراً وأميراً عديم الوجدان فكرهته الرعية بعد أربعين يوما من تولية الحكم وابتدأت تعيب عليه أعماله وحركاته أما المماليك البحريون، تلك الكتلة القوية فى عنصر الامة فقد جاهرت علنا بعدوانه وأقسمت بالانتقام وأخذ

الثار عقب حادثة الشموع .

لم يبق انسان فى مصر يرعاه ويعمل لصالحه فقد كسر القلوب وصدع النفوس وأمضى بيده حكم اعدامه . وبينما كانت شجرة الدر فى قصرها بالمنيل تقضى أوقات الحياة محفوفة بالعز والاجلال ، مرموقة بأنواع الترف وضروب الرفاهة . أرسل اليها توران شاه يطلب منها رد أموال أبيه وأملاكه اليه ويهددها باستعمال القوة والعنف فردت عليه تقول انها صرفت أموال أبيه في الجهاد المقدس الا أن جوابها لم يرق فى نظر توران شاه فغضب غضباً شديداً

وقابل اجابتها بلهجة عنيفة لا يليق صدورها من رجل لامرأة أبيه ما كانت شجرة الدر لتنتظر مثل هذه المعاملة وقد حركت هذه الحادثة الحنق والغيظ فى تلك النفس العصبية ، دفعتها الى تحريك المماليك ضد (توران شاه) فى الحال فلم يتردد هؤلاء فى اجابة طلبها السابق فيظهم منه واستعدادهم الى مجابهته بالشر والعدوان

تذكرت شجرة الدر جميل صنعها مع ابن زوجها وكيف انها جاهدت فى سبيل كتمان خبر الوفاة وكيف دبرت مجىء ولى العهد ومهدت له سبيل الحكم وكان كلما الحت بها الذكرى اشتد غضبها وازداد هياجها وغيظها نحو من أحسنت اليه فاساء المعاملة وقابل الجميل بالخيانة والنكران .

لولم تكن شجرة الدر لانفجرت قنابل الثورات فى البلاد عقب .

وفاة الملك الصالح ولولا تدبيرها ومهارتها لساءالحال والمآل أيكون جزاء سياستها الحسنة مقابلتها بالعدوان؟ أيصل بها الحال الى هذا الحد من الامتهان بعد كفاحها وجهادها في سبيل توطيد دعائم العرش لابن زوجها؟ لالوم عليها بعد اليوم ولا تثريب اذا هي رفعت لواء التمرد والعصيان فقد اتسعت بينهما شقة الخلاف وأخذ الذين يحيطون بتوران شاه يعملون على اشتداد الازمة وينفخون فى صدره مايزيد النار ضراما فيقولون له: «انما الملك والقوة في يد شجرة الدر وما أنت سوى قالب للحكم. انك ضعيف عاجز، لا تستطيع أن تتمتع بالسلطة مادام منافسوك على قيد الحياة»

تقع أمثال هذه الكلمات في نفسه وقوع القنابل فيثور ثورة الجنون، مقسما بأغلظ الأيمان على قتل جميع المماليك ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن لقد قتله المماليك قبل أن يقتلهم وتمرد عليه أولئك الذين هاجمهم في صور وأشكال من الشموع تحت إمرة (أق طاى) سفير مملكته الى دمشق كان توران شاه قد وعد (أقطاى) هذا بأن يوليه محافظا على الاسكندرية ولكنه أخلف وعده معه فمال الى الفتنة والعصيان

في يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر محرم، تناول توران شاه طعامه مع الأمراء والحاشية في المضرب الخاص كالمعتاد وبعد أن تركهم ودخل ردهة القصر ليستريح قليلا، هجم عليه

أحد المماليك بسيف مشهور فرفع الملك يديه مغطيا وجهه فأصابه المملوك فى أصابعه وما كاد الضارب يرى ذلك حتى اضطربت أعصابه وسقط السيف من يده ولاذ بالفرار.

اغمى على الملك المعظم وتولاه الخوف لأول وهلة ولكنه سرعان ما ملك قوته وفكر فى أمره فوجد أنه على أبواب الخطر وأنه لا أمان لحياته فيما اذا أقام فى القصر فهرول نحو البرج ليعتصم به ورآه المماليك وهو يصعد قمة البرج فاحتاطوا به احاطة السوار بالمعصم:.

صاح الملك يطلب الأمان ولكن لم يجد انسانا يعطف عليه ويشفق على حاله فى تلك الازمة فقد كان الامراء والمماليك والشعب جميعا يبغضونه ويتمنون له الموت والهلاك. وهو فى صياحه وندبه واذا بالامير حسام الدين يقترب نحو القصر على رأس كتيبة من فرسان المماليك ولقد حاول سفير امارة بغداد أن يمد اليه يد المعونة اذ ذاك فقامت عليه قيامة المماليك واضطروه الى التزام جانب الحيدة والسكون هاجت فارسكور وماجت بصنوف المماليك والامراء وهجم الجميع على القصر يطلبون من توران شاه أن ينزل والا أحرقوا عليه البرج فلم يبق له أمل فى الخلاص غير أنه ظل يطلب منهم الأمان والرحمة مستغفرا عن سيئاته وآثامه الا أنهم استمروا فى اصرارهم وتقدموا الى أن أشعلوا النار فابتدأ اللهيب يتصاعد الى عنان السماء

وقبل أن تصل ألسنة النيران الى توران شاه ألقى بنفسه فى النيل فرمت جموع كثيرة بنفسها وراءه وسدد الباقون على الشاطىء سهامهم نحوه وهو يعدو سباحة فى الماء .

بدأ يغالب الأمواج وبدأ الناس تقتربون منه وينالون جسمه بأطراف سيوفهم وهو يناديهم بقوله : « دعونى أخرج من مصر انني لم اظلمكم الى هذا الحد فتعذبونى على هـذا الوجه » فلم يسمع له قـول لأن حب الانتقام كان قـد استولى على النفوس وكانت جموع كثيرة تطارده فى النيل مدفوعة بهذا العامل حتى وصلوا اليه فقتلوه شر قتلة فمات الملك المعظم توران شاه ، الحلقة الاخيرة فى سلسله الايوبيين ، على هـذا الوجه الغريب الذى أثار دهشة المؤرخين : محروقا مقتولا مغروقا مذموما من الناس مبغوضا من الرعية بعد أن حكم سبعين يوما .

استأنف الامير حسام الدين مفاوضات الصلح مع الصليبيين عقب هذه الحادثة وامضي عقد الصلح وكان الصليبيون اذ ذاك فى حالة سيئة فجيوشهم مشتتة ودمياط التى تحصنوا بها محاصرة ونال الطاعون منهم فكان يفتك بجنودهم يوما بعد يوم يسوقهم الى الخراب والدمار فقبلوا الصلح وكانت شروطه فى مصلحة المسلمين اذ كانت تحتم على اهل الصليب بأن يدفعوا غرامة حربية قدرها أربعمائة الف دينار .

وفى اليوم الثالث من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية ترك ملك فرنسا ذلك الذى ساق مسلمى الاندلس كالاغنام ، دار القاضى فخر الدين حيث كان سجينا وترك جنوده ثغر دمياط يسحبون أذيال الفشل والعار مبتعدين بسفنهم وفلول كتائبهم عن مصر على أمل العودة لتخليص بيت المقدس ووفاء النذر ... أما الأمير حسام فقد أسرع مع جنوده وأمرائه الى القاهرة فاستقبلتهم البلاد بمظاهر الفرح والسرور اذ اشتد حماس الشعب على أثر انعقاد الصلح وانكسار الصليبيين فدخل عاصمة البلاد دخول القائد الظافر وتوجه من وقته الى قصر النيل وهناك أقاموا شجرة الدر باجماع الآراء أميرة لهم تحت عنوان « الملكة عصمة الدين » فتقلدت الحكم بحفلة زاهرة ، كانت حداً فاصلا بين خاتمة الايوبيين وبداية حكم المماليك .

الفصل الخامس

مثل الناس فى هذا العالم الفانى ، مثل الضيوف فى الفنادق الفخمة ،أولئك الذين يتركون آثارهم فى سجلاتها ابقاء للذكر، بفقرة جميلة ، أوعبارة لطيفة،أو بذكر الاسم على حدة غفلا عن زخارف اللفظ أو تمنيقات المعنى . كذلك الناس فى دنياهم الفانية كل منهم يترك أثراً يتناسب مع كفاءته وماله من ميزة وقدرة تخليداً لذكرى الاوقات والأزمان التى يعيشها وما هذا الأثر سوى حياته فاما أن يدل على عيش هنيء مرفه واما أن يعبر عن سلسلة من الحوادث المؤثرة وأما أن يحدثنا عن عصر حافل بجليل الاعمال .واذا وصل الاثر الى مثل هذا الحد من الكمال،كان جديراً بعناية الخلف ،يستظهرون منه دروس العظة والاعتبار .

ليس فى مقدور كل حى أن يصل الى درجة الكمال فى الحياة اذ العيش بهدوء وسكون بلاضجيج ولا ضوضاء ميسور لكل فرد. فالمرء يستطيع ان يقضى أيام حياته على طراز واحد من الراحة والسكون ،

اما العمل على ابقاء أثر ما فيتطلب جهداً وكفاءة والخروج

من دائرة المألوف جرأة لا يقوم بها سوى الجسور.

الشرق محافظ، متمسك بأهداب القديم، وله عادات وتقاليد محبوبة ولكنه مفرط في محبتها الى حد انزالها منزلة العقائد والمذاهب فالنساء لا يتربعن على منصات الحكم في بلاد الشرق ولا يوثق بهن الى حد تسليم أزمة الادارة لايديهن فلا تكون المرأة سوى كمية مهملة لا يعتد برأيها ولا يقام لها وزن وقل من يعرف شيئاً عن حالتها الروحية. فليس لها اليوم منزلة اجتماعية ولذلك لا يكاد يوجد انسان يسأل عن منزلتها ويتعرف أحوالها وشئونها في الازمنة القديمة. لقد امتزجنا نحن الشرقيات امتزاجا قليلا بالمدنية الاوروبية فتمشينا في تيارها ونسينا شخصيتنا حتى صار مثلنا مثل تارك الصلاة المقيم بين جامعين[1] علينا ان نغترف من مناهل المدنية الغربية ولكنه لا يليق بنا نحن المسلمات أن نضحى في سبيل هذا الواجب جميع الشرق وعاداته الجميلة وتقاليده الحسنة.

---

(١) تشير الاميرة الى نادرة مشهورة لا بأس هنا بايرادها «طلب رجل من عبده أن يجد له بيتاً بعيدا عن المساجد وكان قليل الصلاة يميل الى اللهو والمجون فدله العبد على منزل بين جامعين فقال. ويحك أريد ان أبتعد عن المساجد فتدلني على مثل هذه الدار فأجابه لا بأس عليك يامولاى؟ أهل هذا المسجد يظنوك تصلى فيه وأهل ذلك يظنوك مداوما على الآخر فيكون لك ماتريد»

لنضع نصب أعيننا نحن الشرقيات ترك السفاسف ولتفهم الواحدة منا أنها ليست لعبة أو زينة. اننا نعيش فى زمن لا يتسع لأمثال هذه الصغائر علينا أن نتفهم حياة السلف ونعمل على تخليد صحائف أعمالنا ولتشعر الواحدة منا بالمسئوليه الملقاة على عاتقها . الفرد جزء من الانسانية ومجموع الخلق هى الانسانية . وما نحن الشرقيات سوى قطعة منها

أين شخصيتنا ؟ لنسع فى اظهارها . وكفى ما نالنا من الاذى وما أصابنا من الضرر بسبب جهلنا كيف يسوغ للهلال والنجمة أن يغمرهما الظلام وتحجب الغيوم ضوءهما من النفوذ الينا إن أمة لها مثل هذا الزمن كان يجب أن تكون فى مقدمة الامم نورا وعرفانا.

اذا رغبنا فى الحياة ، اذا شئنا ألا يمحى اسمنا من صحيفة الوجود ، فليس أمامنا سوى طريق السعى والعمل بنظرية تنازع البقاء بما فينا من جهد وحسن نية الى أن نتمكن من ازالة ما علق بأذهان الاوربيين ضدنا من الاوهام والنوايا السيئة ، لو استطعنا أن نصل الى الدرجة التى كانت عليه نساء الشرق قديما لو قفنا قليلا فى سبيل تدهورنا فى هوة التدنى. لم تكن شجرة الدر شخصية كاملة ولكنها استطاعت أن تظهر على مسرح الحكم والسياسة فى زمن عصيب وكونت لها قصة تشتاق الآذان لسماعها وهذا ما حدا بى الى تصوير قصتها وشئون حياتها للقراء

•••

عند ما وقع اختيار حسام الدين ورجاله عليها لتكون ملكة مصر وأميرة البلاد كانت تقطن في سراى المنيل، على شاطىء النيل وفى أجمل موقع من مواقع مصر وكانت اذ ذاك وسيمة الوجه، جذابة الملامح، يقرب عمرها من الاربعين، ذات دراية وحنكة فى شئون الحكم والادارة، اشتهرت بهما منذ ايام زوجها الملك الصالح.

افتتنت بالملك وتمشقت أبهة الحكم فبنت صرح مجدها وشهرتها بيدها ولكنا لا ننسى بجانب ذلك حبها الخير وايثارها رفاهة الشعب وبحبوحته على كل أمر وشأن فأنقصت الضرائب وغمرت المماليك بالهدايا واغدقت عليهم المراتب والمناعم اذ كان أقصى امل لها ان تفوز بحمد الناس ومحبتهم لها.

يدلنا على حسن ذوقها ما كان فى قصرها من حسن الترتيب وظرف التأثيث فى القاعات والحجرات توقد شموع العنبر المحمولة على أواني الفضة والذهب على الطراز العباسى وتقع العين فى أرجاء القصر على نفائس الاقمشة الحريرية المطرزة بالديباج الاصفر والابيض وأوانى الفضة وصحون الذهب وجامات البلاور

والاقداح المزينة حافتها بسطور اللؤلؤ وخطوط الاحجار الكريمة اذ كان لها ولع بأدوات الطعام، وغرام فى اقتناء نفيس الثياب، ورغبة حارة فى مظاهر الابهة والدبدبة (١)

ماكادت تستلم زمام الحكم حتى تركت قصرها البديع ومافيه من نفائس وزخارف وانتقلت الى القلعة المشهورة التى بناها صلاح الدين الايوبى واتخذتها مقر الحكم فى هذه النقطة العالية المتوجة لرأس المقطم والمشرفة على جميع القاهرة كان يقيم من سبقها من الحكام فسارت هى الاخرى سيرهم لان قصر المنيل لم يكن منيعا حصينا الى حد مقاومة الهجمات وصد تيار الفتن والمشاغبات اما أسوار القلعة فمتينة رصينة تقوم بالغرض وتفى بمثل هذه الحاجة.

*
* *

بدأت شجرة الدر تجمع وزراءها فى غرفة من غرف القلعة وتحضر هى مجالسهم من وراء ستار رقيق ثم عينت أحدهم، وهو عز الدين بن ايبك، اتابكا أى فى رتبة تماثل رتبة رئيس الوزارة فى أيامنا هذه

كان عز الدين قائدا محنكا جرىء القلب ذكى الفؤاد، شهورا

---

(١) موقع قصرها بالمنيل هو المكان الذي سيقام عليه المنتدى الكبير التى ازمعت احدى الشركات على بنائه واوقف بناؤه الآن

بعلمه وفضله ودرايته، عرف كيف يستولى على قلوب الخلق وينال ثقتهم كما بدأ يفوز بالتفات الملكة وحسن تقديرها لكفاءته يوماً بعد يوم.

لم تكتف شجرة الدر أن يقرأ اسمها فى خطب الجمعة بل ضربت نقوداً باسمها نقشت على وجه منها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الوجه الآخر:

«المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة منصور خليل الخليفة أمير المؤمنين»

(١)

كان دورها زاهياً زاهراً وصار الناس يتفاءلون خيرا بقدومها وبدأ الفقراء يتنعمون بعبراتها وحسناتها اذ كانت ملكة عاقلة لبيبة على دراية تامة بأصول المسائل وفروعها ولقد أحدثت فى الاسلام بدعة حسنة لم تزل فى مصر الى يومنا هذا، هي بدعة المحمل الشريف، ففى عهدها سافر أول محمل فى الاسلام من مصر الى الحرمين الشريفين. انها ابتدعت أمرا حسنا فلها ثواب تلك البدعة الى يوم القيامة. من أحدث بدعة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها

(١) ابن اياس

ومن أحدث بدعة سيئة فعليه وزر من عمل بها الى يوم الدين.

كانت شجرة الدر رغم مظاهر حياتهـا الخصوصية ، امرأة مسلمة ذات ميزة خاصة فى حياتها العمومية . كانت على علم تام بنفسية الشعب ولم تكن حكومتها استبدادية .لاتشرع فى عمل من الاعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ولا تصدر قرارتها الابعد الرجوع الى رأى وزرائها ومستشاريها واذا حدثتها نفسها بأمر تريد ابلاغه الى الناس مباشرة أرسلت فى طلب وزيرها ابن ايبك وبعد المباحثة والمناقشة معه تأمر بأصدار أوامرها الملكية.

فـكان الاتابك لايقصر فى كل سبيل يؤدى الى مرضاة الملكة . :

وبينما كان حكم شجرة الدر آخذ فى طريق الشهرة بما كـان يلاقيه من اقبال الشعب ورضائه التام بدأت عصابة من الناس تدس الدسائس وتنصب شباك الاحابيل حول عرشها رغبة فى اسقاطها لحة هذه العصابة اتباع توران شاه ممـن فروا الى الشام وسداها الخليفة الزمنى المستعصم بالله ونفر من أشياعه ومريديه.

قامت الفتن على ساق وقدم وبدأ العصاة ينفخون فى ابواق النفاق بما يرمى الى الشقاق بدعوى انه لا يجوز شرعاً لامرأة ان تتولى شئون المسلمين مع ان شجرة الدر لم تأت أمرا يغضب عامة الاسلام سواء أكان فى مصر أو فى سوريا فضلا عن

اجلالها واحتراما لمقام الخليفة المستعصم بالله .

تفاقم الخطب واشتد الصخب ، وقامت بغداد تهدد مصر ، فكانت الرسائل والأوامر تترى ، بطلب خلع شجرة الدر واقامة أمير من الرجال ومخابرة الخليفة لتعيين أمير عادل اذا تعذر عليهم وجود رجل من بين المصريين يصلح لهذا الامر!... وكانت الرسائل موجهة الى المماليك ومصوغة فى قالب اللوم والتعنيف ومعززة بالاحاديث والاسانيد المنذرة بخراب الامة التى تتولى النساء شئونها وتتصدر مجالس الحكم فيها . وما كادت تروج هذه الدعوة وتتناقلها الالسن فى المجالس والمحافل حتى بدأ المماليك يفكرون فى وجه الصواب . كانوا يرون أن حكومة شجرة الدر لاتخالف الشرع فى شىء ، اذ كانت مؤسسة على دعائم الشورى فكانت لاتبرم أمراً دون أخذ رأى الوزراء ووجوه البلاد فضلا عن مهارتها فى ادارة دفة الاحكام ، تلك المهارة التى تجلت فى شكل رائع ملموس لايدع مجالا لقول قائل ، ولكن ما العمل ؟ وكيف يمكن التوفيق بين وجهتى النظر في مصر والشام فى وقت عصيب يهددم فيه خطر الصليبيين ؟

بينما كان المماليك يفكرون فى هذا الامر ويقلبون الرأي على وجوهه ليتبينوا من خلاله وجه الصواب واذا باتباع (نوران شاه) يحثون أهل الشام على التخلص من حكم مصر بدعوى أنها

ذات حكومة غير شرعيه، فقاموا بدعوة أمير حلب (الملك الناصر يوسف الايوبى) وبايعوه اميراً على الديار الشامية ثم قاموا على أشياع شجرة الدر واستأصلوا شأفتهم فتم لهم ما أرادوا وفصلوا تلك القطعة الكبيرة عن الحكومة المركزية فى مصر

على أصحاب الغايات النبيلة والمقاصد الشريفة بذل النفس والنفيس فى السبل المؤدية الى تحقيق الغرض ولكن الذين نادوا بسقوط شجرة الدر لم يعملوا بهذا الدستور. انهم آثروا تضحية حكومة عظيمه فى سبيل أغراضهم الشخصية. كانت هذه الفئة الهادمة العاملة لمصالحها الشخصية تعمل على تعكير المياه كلما قاربت حد الصفو، رغم مهاجمات الصليبين وما يهدد البلاد الاسلامية من المصائب والاخطار فأدركت شجرة الدر بفطنتها وحسن درايتها حقيقة الحال فعقدت مجلساً من اركان الدولة واستشارتهم فى الامر وطلبت منهم أن يبينوا لها الطريقه المؤدية الى ارضاء السوريين والوسائل الموصلة الى حسن التفاهم بين القطرين الشقيقين.

كان الموضوع عويصا يتطلب رأيا حسنا وتدبيراً محكما فلم تشأ أن تطلق العنان لمشاعرها بل طلبت من وزرائها المعونة والتعضيد بعد أن طرحت الامر على بساط البحث بكل رزانة وثبات. اما المجلس فقد فحص الامر بعناية واهتمام وأظهر لها وجوب الاهتمام بما يؤدى الى راحة الشعب وسلامته مع بيان امتنانهم لها ولحكومتها وقر

رأيهم بالاجماع على ان تترك زمام الادارة الى عزالدين بن ايبك وان يعقد له عليها عقب تنصيبه للحكم.

تم تنفيذ القرار وتعين عز الدين بن ايبك سلطانا على مصر وأرسلوا الى الخليفة يشعرونه بتبدل الحال.

لم يتغير الحال كما زعموا، بل كانت شجرة هي الحاكمة تنهى وتأمر من وراء الستار عقب زواجها بأمير البلاد.

تربعت شجرة الدر فى قلب عز الدين كما تربعت في عرش مصر من قبل، فكان يخدمها خدمة العبد للسيد ولا يتواني لحظة واحدة عن سلوك السبل المؤدية الى راحتها ومرضاتها. كان يرى خدمتها دينا في عنقه يجب اداؤه فصار نقابا لها تبصر وتعمل من ورائه وأداة لسرورها ونعيمها.

لم تصل شجرة الدر الى هذه المنزلة اعتباطا ولم يحلها عز الدين من نفسه ذلك الاحلال اسرافا لقد كانت امرأة زاهية، زاهرة ذات جاذبية وذكاء وعلى علم ودراية فليس من السهل على المحتكين بها المتصلين بشخصيتها التوقى من قيود تلك الجاذبية

كان الملك الصالح يتلقى رغباتها كأمر يحتم تنفيذه ويرى فيها درة نفيسة في تاج حياته أما عز الدين فكان مفتونا بها بحرارة الشباب مع أنها أسبق منه فى مراحل العمر.

كان الاتابك عز الدين، ابيا، عاقلا، ذكى الفؤاد. فأحبه

المماليك وجعلوا لا يخرجون عن رأيه ومشورته في كل أمر .

* * *

بعد تعيين عز الدين ملكا على مصر وتسميته (الملك المعز أيبك) فرح الناس بحكومته المشتركة بينه وبين زوجته شجرة الدر وتطلعوا الى الراحة والسكون عقب تلك الانقلابات والتطورات لكنهم لم يدركوا أمنيتهم اذ تجددت الثورات في الشام مرة أخرى واتصل بالمصريين خبر قيام أحد أقربائه توران شاه مع نفر من اتباعه وأشياعه ، يعضدهم بعض المماليك ووجهتهم مصر فاضطرب المصريون ووقع الخبر عليهم وقوع الصواعق .

لم يقبل السوريون بحكم المعز وهاجموا مصر متمردين ساخطين صاخبين ، طالبين اقامة ملك من سلالة الايوبيين . ولم تنقشع سحابة غضبهم وتهدأ ثورتهم الا بعد أن أقاموا يوسف مظفر الدين أحد أبناء الملك مسعود ، من الاقاليم الشرقية ملكا على مصر وحلب

مصرنا هذه ، مصرنا المسكينة ، معرض الغرائب ، تحت سماء تسامحها يأتلف الخصمان ويجتمع الضدان ففي العام التاسع والاربعين بعد الستمائة من الهجرة ، كان على عرش مصر حاكمان ، أولهما الملك المعز ايبك وثانيهما الملك مظفر الدين يوسف ، تقرأ لهما الخطب وتضرب النقود باسميهما ويحكمان معا جنبا الى جنب غير أن

شجرة الدر ما زالت وراء الستار وفي يدها زمام الحكم الحقيقي تصدر أوامرها بسكون وهدوء وهي في دائرتها الخاصة فيهرع الحاكمان لتنفيذها والعمل بمشيئتها .

لم يكن الاثنان سوى لعبتين صغيرتين ، أما الحاكم الحقيقي للبلاد فهي الملكة عصمة الدين التي تروح وتغدو بثيابها المزركشة في قاعات قصرها الفخم المحتجب وراء أسوار القلعة

شعر ايبك باضمحلال سلطته فاشترى عدداً كبيراً من المماليك وعمل على اكتساب ثقتهم وتمضيد نفوذه أمام خصمه . وقد حدث ما كان يتوقعه فان رجال مظفر الدين حاصروا القلعة ذات يوم يريدون خلع ايبك ولكنه قاومهم مقاومة عنيفة وبعد أن شتت شمل اكثرهم تمكن من قتل زعيمهم (أق طاى) قاتل توران شاه ورمى برأسه من وراء أسوار القلعة وما كاد المحاصرون يرون هذه الحال حتى أركنوا جميعا الى الفرار وكانوا يبلغون سبعمائة فارس

بعد هذه الحادثة قبض المعز على خصمه مظفر الدين وحبسه فخلا له الجو مرة أخرى .

الفصل السادس

العشق نبات لاهوتى ، ينمو بطبيعته فى كل زمان ومكان وفى كل بلد واقليم ، فلا الرياح ولا العواصف ولا الامطار تعوق هذا النبات عن النمو والنضوج ، لانه ينشأ حيثما شاء وأينما اراد ولهذا النبات المجرب ، زهرة لطيفة جديرة بالنظر والاعتبار

ولكن لشمس العشق اشعة نارية تعمل فى هـذه الزهرة مالا تعمله الطبيعة لقد تؤثر على لونها فتصيرها باهتة شاحبة بعـد النضارة والزهاء ، وللعين دموع تزح بانهمالها وانسجامها مالها من رائحة عبقة واريج فياح وللقلب ثورات وهبات تنتثر معها اوراقها الجميلة فتذروها الرياح انها لزهرة رقيقة قد تذبل عند اقل اهمال فهى تنبت فى الارض العامرة والتربة الخصبة ويتناسب عمـرها طولا وقصرا بقـدر خصوبة التربة والمنبت فمن استطاع سبيلا الى تربية هذه الزهرة ، زهرة الطبيعة زنبقة النور ، عرف كنه الحياة فاذا علمنا ان الملمين بفن تربيته قليلون ادركنا كيف ان الكثيرين تذبل زهراتهم فى مدد قصيرة .

هكذا الحال مع شجرة الدرو المز فان زهرة حبهما واخلاصهما

اصابتها يد البلى بعد عواصف نفسية دامت اربعة اعوام بدأت عوامل الحياة والنمو تتقلص فى زهرة الحب النامية فى قلب المعز حتى ذبلت. اجل لقد ذبلت تلك الزهرة الناضرة بغرور شجرة الدر ذلك الغرور الذى اطفأ النيران المتأججة فى صدر حبيبها المعز

كانت الملكة عصمة الدين، أميرة تليق بسياسة الشعب وادارة الاحكام. أما فى منزلها، فى مملكتها الصغيرة فقد كانت مستبدة توقع الرهبة فى قلوب حاشيتها وتبعث السآمة والملل فى نفس زوجها.

كان المعز مفتونا بشجرة الدر، منذ زواجه بها عام ستمائة وثمانية وأربعين هجرية. كان يجلها ويحترمها من اعماق النفس وصميم القلب لذكائها وجمالها ومركزها وماضيها المجيد وكانت هى تعلم منه ذلك وتعتقد بدوام هذه المحبة فيرتاح نفسها وتفتخر بجمالها لم يخطر ببالها انه سيأتى على المعز يوم يتزوج فيه امرأة غيرها لو فعل ذلك لما غفرت له مثل هذا الذنب اذترى ان المعز انما صار سلطانا على مصر بسعيها وفضلها فكانت تجاهر بهذا الراى وتجابهه به ولا تجد لوما فى ان تقول له: «ماوصلت اليه من عز وجاه، انما وصلته من طريقى» فكان يخجل من ذلك ويشعر باضطراب داخلى

لم يأبه كثيرا لهذه الاقوال فى مبدأ الأمر ولكنه بدأ يشعر بوقعها الأليم على مر الايام. انه لاينكر فضلها وعظيم اياديها

عليه ولكنه لم ينشأ صعلوكاً حقيراً . قد كان ضابطاً عالماً عاملا ثم أميرا ذكي الفؤاد ، ذ شخصية ومكانة

*
* *

جمعت الملكة عصمة الدين الى حسن الوجه جمال النفس فهي لذلك امرأة جديرة بالحب ولكنها أكبر من ايبك سنا وبدأت عوامل الانهماك في المشاغل الدنيوية تظهر أثرها على أديم ذلك الوجه الناصع وأخذ نور بهجتها في الافول وكلما ازدادت خطوة في طريق العمر ، زاد طيشها واشتد نزقها الى أن صيرها الكبر ذات طبع ناري ومزاج عصبي ، تستبد مع من حولها تشاكس زوجها وتنغص عليه عيشه وتضيق دونه المذاهب والمسالك صباح مساء

أما هو فكان يغضب لهذه المجادلات اليومية فيزداد نفوره منها حتى أصبح يتغيب كثيراً عن القلعة وكان هذا التباعد يزيدها غيظا لانها بدأت تشعر بزوال محبته لها فاشتد تعلقها به وازداد هيامها وصارت ترى في كل حركة من حركاته وكل طور من أطواره حالا يستوجب الغيرة

كان لزوجها امرأة اخرى هي ام ولده الوحيد عقد عليها قبل زواجه بشجرة الدر ، فعلمت بهذا الامر وحكمت عليه ان يبتعد عنها بتاتا ثم خشيت الا ينفذ أمرها فأمرته باحضارها وتطليقها منه

فى الحال. تم لها ما أرادت ووصلت الى بغيتها ولكن ظلت نيران الغيرة تتأجج فى ذلك الصدر المتقد وعاد زوجها الى الابتعاد عن القامة والنفور من دائرة الحريم واتسعت شقة الخلاف بينهما حتى انقلبت على مر الايام - الى خصومة متينة انتهت بمأساة دموية فجيعة :

* * *

مهما ارتقى الانسان وعلت شخصيته فهو بشر لا يسلم من عوارض النقص

شجرة الدر امرأة ذات شخصية بارزة قل ان يوجد لها نظير شقت بغرورها ، ووصمت سلسلة حياتها بفعلة شنيعة من جراء هذا الخلق الفاسد

لقد تطرفت مع زوجها فى سوء الخلق الى حد الملل والى أحد أن استفزت فيه روح الانانية فطلب يد لؤلؤة بنت بدر الدين أمير الموصل وعرض امنيته هذه على المماليك فمارضه المخلصون منهم لشجرة الدر ولم يوافقوه على مايريد بل جاهروا بأنه لا يليق بأمير نبيل مثل المعز أن يرتكب مثل هذه الهفوة فغضب لذلك وأدى به الحنق الى القبض عليهم والقائهم فى غيابات السجون

ولما كانوا فى طريقهم الى السجن مر بهم الحراس من تحت الشرفة التى تجلس عليها الملكة فتأخر زعيمهم (سبكتكين) قليلا

ونادى بالتركية يقول : «نناشدك الله أيتها الاميرة ان تخبرينا عن سبب القبض علينا ، أننا رجالك المخلصون يريد الامير ان يعقد على لؤلؤة بنت امير الموصل فعصيناه لاننا نرى فى ذلك اهانه لاميرتنا» وكانت الاميرة اذ ذاك فى الشرفة فرفعت منديلها تشير اليهم انها فهمت قولهم ثم سيقوا الى السجن وقلوبهم تتأجج بنيران الانتقام التى لا يستطيع المعز اطفاء لهيبها

لم يكن المعز فى قصر القلعة كعادته بل كان مقيما فى قصره «مناظر اللوق» المشرف على النيل بجوار الازبكية ، كان نافرا من شجرة الدر يجتنب حرمه عملا بارشاد منجمه الذى أخطره بأنه يموت مقتولا من يد امرأة اما امرأته فكانت تريد الاستفادة من هذا الظرف فرسمت خطة باهرة للتنكيل بالمعز وأرسلت تدعوه الى القلعة مرارا بعد ان أعدت معداتها لهذا الغرض

لم تكن شجرة الدر ، تلك المرأة الحاكمة القديرة واعنا النبرة والحدة والحنق كل هذه العوامل كانت قد اتلفت جهازها العصبي وصيرتها شيطانا تتحكم فيه الجنون والهوس . قد انقلبت فيها خصال الرزانة وعلو الطبع وقوة الارادة الى صفات الغيرة والحرص والانتقام .

* *
*

لم يشأ المعز أن يجيب دعوات امرأته فى بادىء الأمر لأن اخطار المنجم ما زال عالقاً فى ذهنه ، ترتعد فرائصه كلما خطر بباله الا أن تكرر الدعوات أثر فى نفسه وتوهم من خلالها الصدق والاخلاص فأجابها الى ما أرادت وزار زوجته فى قصر القلعة ، حيث قابلته بالتجلة والاحترام مظهرة له كل عطف وحب بل عادت فى التملق والرياء الى حد تقبيل أياديه ومحو كل ظن سيىء من نفسه فركن اليها المعز كل الركون وقضى معها يومه وطاب فى مسائه أن يدخل الحمام ولكنه ما كاد يلج باب الحمام حتى فاجأه بضعة رجال تلمع السيوف المصلتة فى أيديهم ففهم قصدهم وأدرك أن ذلك من تدبير شجرة الدر فناداها باسمها وتوسل اليها بكل ما فيه من جهد وقوة. ويظهر أنها كانت على كثب من المكمن ، لانها لم تستطع ثباتاً امام توسلاته فاظهرت نفسها وطلبت من رجالها أن يحقنوا دماءه إلا ان الرجال لم يصغوا لقولها ، خشية غضبه وانتقامه أنهم نزلوا عند رأيها واخلوا سبيله. ثم هجموا عليه وكتموا أنفاسه فى ذلك المكان وبعد ان نفضوا ايديهم من فعلتهم الشنعاء اخفوا جثة الامير فى ردهة خارجية وانبثوا فى ارجاء القصر يشيعون انه اغمى على اميرهم وهو فى الحمام.[1]

---

١ تاريخ مصر الحديث

وقعت هذه الحادثة يوم الاربعاء فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول عام ٦٥٥ هجريه وانتشر فى اليوم التالى خبر موت المعز وارتقى أريكة العرش ابنه نور الدين وعند ما استلم نور الدين زمام الحكم وتربع فى دست الامارة بقصر القلعة أرسل يطلب أمه التعسة ويطلب شجرة الدر قاتلة أبيه وسبب شقاء أمه

وفى كتب التاريخ أن أم نور الدين أمرت جواريها فانهلن بالقباقيب على شجرة الدر ، على ذلك الرأس الجميل المملوء بالغرور ، الى ماتت شر موت ، فالقيت عارية الجسم لا يسترها سوى سراويل رقيقة من برج القلعة الى خندق مجاور لأسوارها . وقد سرق بعض اللصوص تكة لباسها المطرزة باللآلئ ولم يعرفها أتباعها الا بسروالها الفاخر فدفنوها فى المقصورة الخاصة بها داخل المسجد المعروف باسمها بجوار السيدة نفيسه بالقاهرة . ولقد فر بعض الاغوات الذين اشتركوا فى مقتل المعز وألقي القبض على البعض الآخر وصلبوا داخل القلعة

وبعد هذه الحوادث المتتابعة بدأت حكومة الملك نور الدين ابن ايبك .

***

حكمت شجرة الدر ثلاثة أشهر بمفردها وعشرين عاما مع

زوجها الصالح والمعز وأصابت عزاً وجاها لم تصبهما امرأة أخرى في العالم الاسلامي

يعدها المؤرخون خارقة من خوارق الدهاء ولا يذكرونها إلا بالثناء ويعرفونها للقراء بأنها عاقلة . قارئة . كاتبة . ذات دراية وفطنة ومما يؤسف له أن المرأة الكبيرة ، صاحبة الخيرات العديدة والحسنات الجمة . تلك التي ابتدعت لنا حسنة المحمل ، تموت ميتة شنعاء وتلقى في الخنادق كأصحاب الجرائم العادية . (وعلى الباغي تدور الدوائر) ان الملكة عصمة الدين ماتت على يد المرأة التي كانت سببا في تطليقها . لقد طردت ام نور الدين من قصر القلعة فدارت عليها الدوائر حتى ألقتها المطرودة من برج القلعة . لقد حرضت على قتل الوالد فقتلها الولد !...

العصمة لله والكمال له وحده والمرء عاجز مهما ارتقى ومهما علت شخصيته .

لم تكن شجرة الدر مثال الكمال من كل الوجوه ، وانما كانت حاكمة مدبرة . ذات قريحة وقادة وهي تحكم هواها وتتغلب على شهوة النفس فيها . ولكنها مالبثت أن هوت الى المستوى العادى فأصبحت امرأة لا اكثر ولا أقل منذ ركبت هواها وسارت مع تيار قلبها هذه الشخصية الغريبة التي قدمتها الى قرائي من بين نماذج المخدرات الاسلامية جديرة بالتقدير والاجلال

من ناحية الخدمات الجليلة التى بذلتها فى اوائل أيامها وبما كان لها من صدق الطوية فى ذلك العهد . والأمر الجدير بالاعتبار والتقدير هو الصالح العام أما الحياة الخاصة فلا دخل لها فى هذا الشعور ومن أجل ذلك نعدها من آلهات السياسة التى لم يسبق لها نظير

لقد مضى على موتها شهور وأعوام وأصاب الشرق تقلبات كثيرة وتطورات عديدة وانقرضت أمم ونشأت على انقاضها أمم ولكن لم تسطع بعد شرارة واحدة مثل تلك الشرارة التى سطعت من أنقاض الايوبيين

شجرة الدر الأيوبية جوهر نادر نفيس . ومن أغرب لآلى الشرق . كان دورها عجيباً وأيامها سلسلة من الحوادث ذات شئون وشجون . .

عملت ما في وسعها لتقف حائلا دون التفرقة بين المسلمين فى وقت عصيب فأدركت بغيتها بمهارة نسجلها هنا بفخار ولا نمالك من الدهشة تستولى أنفسنا للاضطراب الذى تخلل سلسلة أيام هذه المرأة الجميلة التى ختمت حياتها بتلك المأساة

حياة كل شخص زمان قائم بنفسه ونهايته بداية زمان آخر

***

(المعمورة)   يوم الخميس ١٩ رمضان المبارك سنة ١٣٣١

﴿ محتويات الجزء الاول ﴾

-١-

-٤-

﴿ الملكة عصمة الدين شجرة الدر ﴾



شهيرات النساء في العالم الإسلامي

بقلم

صاحبة السمو الاميرة المصرية الجليلة قدرية حسين

نقله الى العربية

عبد العزيز أمين الخانجي

الجزء الثاني

الطبعة الاولى

١٣٤٢ – ١٩٢٤

مطبعة السعادة بمصر

﴿ كلمة ﴾

نشرت قبل يومي هذا ، بعام ونصف ، الجزء الاول من (مخدرات الاسلام) ، فلاقى اقبالا واحتراما ، بين اصحاب العلم والعرفان ، من أهل لسانى المنتشرين فى الممالك والبلدان الآهلة بالاسلام .

وردت الى كتبهم ورسائلهم تطفح بمعانى التزكية وعبارات التشجيع ، فاغتبطت لذلك ، اذ كنت ارى بنفسى ثمار البذور القليلة التى غرستها بيدى في حدائق المنفعة العامة . فشكراً للمولى سبحانه وتعالى وحمداً له على نعمائه . وأبدأ اليوم بالجزء الثانى من ربات الخدور ، لأضم خمس بطلات شهيرات على الاربعة السالفات . وزيادة الاعضاء فى محفل ربات الخدور ، معناه زيادة التدليل والبرهان . وفى ذلك تقوية القناعة في الوجدان . فمعرفة بطلات الماضى أساس لرقى نساء الحاضر . والبناء المؤسس على قواعد ثابتة رصينة يبشر بالدوام والخلود

أولى البطلات فى هذا الجزء . هى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، كريمة فخر الانبياء . نتوج بذكرها الجزء الثانى . لأنها فخر النساء .

البطلة الثانية : هي رابعة العدوية ، مثل الزهد والتصوف

الثالثة : هي الشاعرة الشهيرة الخنساء . تلك العبقرية الخالدة

تلك التي فاقت شعراء الخلف برائيها .

أما الرابعة فأميرة المؤمنين زبيدة والخامسة الأميرة صبيحة ملكة قرطبة . وهاتان بطلتان حكمتا ردحاً من الزمن ، وسخرتا بلاداً لارادتيهما وصيرتا الشعب المحكوم منهما كالشمعة تفرغانه من قالب لقالب وفق هواهما . فهما لذلك مثالان للعظة ننسخ منهما دروس الاعتبار .

من قرأ ربات الخدور عرف تاريخ أيامهن وعاصرهن ونفذ الى مجالسهن الروحية فها أنذا أقدم هذا الجزء الى قارئاتى الراغبات في القدوة بسالفات العصر الاسلامى ، الى قارئاتى المتشوقات الى توسيع المدارك وشحذ القرائح ، لأكون واسطة الاتصال بينهن وبين محفل المخدرات .

سترى القارئة الكريمة ، في هذا المحفل المتضوع بعبير الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة . أشباحاً روحانية ، تتباين فى أشكالها وطراز لباسها عن المألوف فى محافل هذا العصر ، وستسمع القارئة العزيزة فى هذا المحفل دروسا تفيض بالحكمة وعظات بالغات . أما أجرى وثوابي فمحسوب بلا ريب في خزائن المولى الكريم عز وجل .

يجدر بي قبل اختتام كلمتي التنويه بذكر رسالة وردت الي من بين الرسائل العديدة الدالة على تقدير أبناء اساني لهذا العمل وهذه رسالة وصلتني من أمير البيان المرحوم (رجائي زاده اكرم بك) . وقد أردت اليوم نشرها لاذاعة ذكره واعلاء روحه الطاهرة .

كان للمرحوم قلباً كبيراً ، ومن الانصاف أن يلهج الانسان بذكر أصحاب القلوب . أطلب التوفيق من المولى للجميع آمين

الى صاحبة العصمة والكمال

الأميرة قدرية حسين هانم أفندى

تعلمين سيدتى ، ان الحقيقة الاجتماعية : « خير الناس من ينفع الناس » لاتفرق بين الرجال والنساء ولسموك من دلائل الفضل وأمارات العرفان ، بما تنشرينه بيننا من آثار قريحتك الوقادة منذ الصغر ، ما يجعلنى أن أرى لك عنوان (خير النساء) دون ما تستحقين .

تناولت بيد الفخار كتاب (مخدرات الاسلام) مع تلك الجملة التلطيفية في حق هذا العاجز ، وبدأت مطالعته فى الحال ، فأتممت قراءته فى مدة وجيزة وما كدت أنتهى من تلاوته وتصفح مزاياه ، حتى تكونت فى ذهنى عقيدة تقول : مثل هذا الكتاب الكامل ، الحاوى لمثل هذه الآراء الناضجة ، لاتستطيع الاتيان بمثله من بين شهيرات العصر سوى الأميرة أيدها الله .

كنت قرأت شيئاً عن أمهات المؤمنين وسيرتهن العبقة سواء أكان فى (قصص الانبياء) أم فى (روضة الاحباب) ولكن ما قرأته لم يكن منسقاً منظماً وفضلا عن ذلك فان أسلوب

(روضة الاحباب) لا يتمشى مع روح العصر. و (قصص الانبياء) كتاب قيم جليل، قليل أمثاله، ولكن العين تقع على السجع والتكلف فى مواقع كثيرة منه فيضيع بهاؤه ورؤاه من نفس القاريء. أما (مخدرات الاسلام) فيفوقهما ترتيبا ويفضلهما اسلوبا.

مولاتى الأميرة

ثقى تماما ان مواهب العرفان والفضيلة التى تتحلين بها تجملك فى أعلى المراتب التى ترنو اليها أنظار أفاضل الرجال والنساء. ففى قريحتك الوقادة، تلك القريحة التى لاتفتأ تعمل على توسيع دائرة معلوماتها الفنية وتحقيقاتها العلمية، وفى بيانك العذب، ذلك البيان السلس الساحر، مايدهش الالباب ويحير العقول.

قرأت كلمتك الاولى التى صدرت بها الكتاب بلذة ساحرة دفعتنى الى ادماج نفسى فى طيات الكتاب، أقرأه منها اليكا متشوقا حتى النهاية.

ما أعذبه بيانا وأسلسه اسلوبا وأملحه شرحا! أكاد لا أتخطر كتابا جمع مثل هذه المحسنات البديعية. فمثل هذا الاسلوب لهو السهل الممتنع.

يا صاحبة العصمة

اذا كان كتابك يترك في نفسى مثل هذا الاثر وأنا من

صنف الرجال ، فما بال ربات الخدور اللواتي يسعدهن الحظ بتلاوته ؛ كلما فكرت فى ذلك ، وفى الفوائد الجليلة ، التي تجتنيها السيدات المصونات من قراءته ، وفى خطره الكبير من الوجهة الاخلاقية والاجتماعية ، لا يسعنى الا الركوع خاشعاً ، حاسر الرأس ، أمام ذلكم القلب الطاهر النابض فى سبيل الغيرة القومية ، الفائض الجائش فى سبيل العلم والاخلاق ، فأتمنى لك فى خضوعى وتقديسى عيشاً هنيئاً مرفهاً ، وتوفيقاً من المولى الى طبع ونشر الأجزاء التالية من كتابك اللطيف وعوناً منه جل وعز على اظهار مئات من مؤلفاتك النافعة الجليلة .

شعورى عن الكتاب وتقديرانى لمحتوياته ، لا تقف عند هذا الحد ، فهى كثيرة ان اتسع المجال اسردها على الوجه الذى أرضاه ، يعجز عن ذلك قلبي الذى أصابته الشيخوخة قبل صاحبه فلذلك يامولاتى أختم تصديعاتى بتقديم وافر الشكر والاعظام والتهنئة

استانبول ١٩ تشرين اول سنة ١٣٢٩ رجائى زاده

اكرم

- ٥ -

سيدة النساء

فاطمة الزهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

لم تعمر السيدة فاطمة رضى الله عنها ، طويلا : بل كان عمرها قصيراً كحياة الزهور التى تزهر وتذبل فى ربيع العمر إلا أننا مازلنا نرى حتى اليوم ثمار هذه الزهور النادرة ومازال أريجها الفياح يعطر عصور الاسلام جيلا بعد جيل . فهى اذاً دوحة نامية خالدة ذات غصون وفروع مادام الملوان .

لسيدة النساء صفحة فى التاريخ نزيهة نقية لا تقع العين منها على ضجيج الحوادث وجلبة الوقائع ولكن في سلسلة أيامها النقية الصافية مايجذبنا جذباً شديداً ، لان هذا الصفاء الدال على الشخصية العالية من الدواعى الكبيرة لجذب القلوب ولفت الانظار .

أمنا السيدة فاطمة رضى الله عنها ، ناصية مشرقة من أطهر النواصي وأنقاها وألطفها وأشدها احساساً فى الاسلام ولصفاء

روحها الظاهر على وجهها المبارك الطاهر سميت بالزهراء .

لا أدرى كيف أجيل القلم فى تسطير سيرتها العبقة دون التعرض لسيرة والدها الرسول فخر الكائنات ؛ حياة كليهما متصلة ببعض اتصالا شديداً متماسكا فاذا عبرت عن نفسية أحدهما لا أستطيع تجاوزاً عن نفسية الآخر .

ومما يؤسف له أن مؤرخى الاسلام لم يتسع الوقت لأحدهم ليسردوا لنا سيرة كاملة لهذه الكريمة أقول ذلك وقد شعرت اثناء كتابتى عنها حاجتى الى الرجوع الى مايزيد عن عشرة كتب من امهات التاريخ وليتنى استطعت ان اخرج من معلوماتى المقتطفة منها بما يروى الغليل بل وقفت جهودى عند حد تكوين سيرة مختصرة فحسب أحوال بطلا تناوشهير اتنا محاطة على الدوام بالغموض والابهام فان الاقدمين كانوا يعتبرون هذه من المسائل التى لايجوز اذاعتها كما هو ظاهر من كتبهم . انما نعلم اسماء سيدات عديدات لهن ذكر عاطر وشهرة فائقة فاذا حاولنا ان نحيط بأحوالهن احاطة تامة وان ندرك دقائق سيرهن ادراكا كاملا كلفنا انفسنا مالا نستطيع وحملناها مشقة كبيرة في هذا السبيل .

أقول مستسمحا سيدات اليوم انه كان لشهيرات الأمس عقلية رصينة وغاية ثابتة فى الحياة ومع ذلك فقد ظلت الوان المساعى التى بذلنها مخفية وراء ستور الاهمال .

نحن المسلمين قصرنا سعينا للحال نداب من أجله فحسب ؟ أما الاقتداء بالسلف وأن نكون قدوة صالحة للخلف فهذا أمر لا يخطر على بالنا ولا نفكر فى شأنه وقد كان من أمر اهتمامنا بالحال أن وصلنا الى مانحن فيه من سوء المآل ..... اننا لا نفكر في ما ضينا ولا نعمل لمستقبلنا ، فنحن كتلة بشرية يعوزها الرحمة والارشاد .

أزيدهنا من قبيل الاستطراد ان لدينا من الآثار العتيقة الشيء الكثير ولكنها صغيرة كانت أم كبيرة فهى مشتتة مبعثرة أيان كان موطنها حتى انه لا يوجد بين ايدينا دليل صادق يرشدنا اليها ويدلنا على مفاخر اجدادنا. وهكذا التاريخ الاسلامى بين دفتيه شخصيات عالية نفخر كثيراً بوجودها ولكننا لا نعرف سوى أسمائها أما دقائق حياتها وتفاصيل شئونها فانها مبهمة غامضة لا يمكن الوصول اليها حتى اليوم .... فلو أننا عنينا بوضع تلك الشخصيات النادرة في معرض ذكريات الماضى لما أصبحنا غرباء عن عالمنا الاسلامى ولما كان مثلنا مثل السائح الغريب المفتقر الى من يرشده وهو فى بلاده

***

ولدت فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم

من خديجة الكبرى رضى الله عنها وقريش تبنى الكعبة بمكة المكرمة والنبي صلوات الله عليه ابن خمس وثلاثين أى قبل هجرته المباركة بسبعة عشر عاماً وكانت أصغر بناته وأحبهن اليه (١)

كانت سيدة النساء فاطمة ، مباركة ذات ملامح جذابة ولون أبيض وقلب مفعم بالاحساس ، صبيحة الوجه ذكية القلب

تتأثر القلوب البشرية الحساسة من مظاهر الصفاء والجفاء كثيراً ويكون نصيبها من لذائذ الحياة ومتاعبها أشد من سواها وكريمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من هذا الصنف من النساء ولهذا السبب نرى للاكدار والمسرات أثراً عميقاً فى حياتها المشرقة القصيرة .

سيرة حياتها فى التواريخ المعول عليها مقتضبة مختصرة فليس فيها ما يشير الى أفكارها الخاصة ولا يوجد فيها للأسف ما يشرح أيام حياتها قبل زواجها وبأى شأن من شئون حياتها كانت تشغل فراغ حياتها واننى مع علمي بمكانتها العالية من قلب رسولنا الهادى فلا أعلم شيئاً كثيراً عن نشأتها وأيام حداثتها وأي جو من الأجواء خلقته فى منزل أبيها صلوات الله عليه قبل زواجها ؟

---

١) الدر المنثور

الفصل الثانى

تم زواج السيدة فاطمة الزهراء من الامام على كرم الله وجهه في شهر رجب من السنه الثانية للهجرة النبويه المباركة، ولقد كانت سيدة النساء اذ ذاك فى أزهى أوقات الحياة، فى الثامنة عشرة من عمرها أما الامام على فقد كان يبلغ الحادية والعشرين، كلاهما شخصيتان يحيط بهما جلال الايمان ونور الهدى، متكافئتان متعادلان من كل الوجوه مناسب أحدهما للآخر كل المناسبة :

كلاهما عالى الفكر رقيق الحس حميد الخلق، صبيح الوجه فكلاهما زوجان مفتونان بالمعالى، عاشقان مغرمان بالمحامد.

بدأت حياتهما المشتركة التي امتزجت فيها الفضيلة بالكمال والاصالة بالجمال على هذا الوجه من الصفاء والاخلاص :

حضر الامام على ذات يوم من أيام السنة الثانية للهجرة الى الدار النبوية بنفسه، وبعد أن دخل الدار سلم على الرسول فخر الكائنات وسكت (١)

فسأله الرسول ما اذا كان يطلب شيئا فرد عليه مجيبا بأنه حضر ليطلب كريمته السيدة فاطمة فقال له الرسول : مرحبا أهلا

---

١) السيرة الحلبية

ولم يزد على ذلك بل ظل ساكتاً بعدها مما اضطر علياً الى العودة محتاراً مدهوشاً

لم يستطع أن يميز وجه الحقيقة من رد الرسول فسأل بعضا من الانصار فبشروه وطيبوا خاطره وأفهموه بأن فى هذا الرد ما يشعر بالقبول والايجاب ففرح الامام واغتبط بذلك.

ونرى الرسول صلوات الله عليه بعد قيام على يطلب كريمته السيدة فاطمة ويخبرها بهذا الامر ويسألها رأيها فلا تجيبه بل تطرق ساكتة فيعد فخر الكائنات سكوتها علامة الايجاب والرضى فيقرر اتمام عقد الزواج. ثم يرسل بطلب على كرم الله وجهه ذلك ويسأله هل عنده من شيء فيجيبه أنه لا يملك سوى فرسه ودرعه فيأمره ببيع الدرع لتجهيز السيدة فاطمة بثمنها

يهرع على الى السوق فيبيع الدرع الى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً ويعود بالثمن معقوداً فى طرف ثوبه ويضعه أمام الرسول وهو يقول: « ها هو بدل الدرع يارسول الله » فيقبض الرسول بعض دراهم منها ويناولها بلالا ليشترى بعض الطيب والروائح ويسلم الباقى الى ام سامى لتشتري الجهاز، والى القارئ جملة ما بعثه الرسول مع ابنته سيدة النساء:

ثوبان من الصوف

خميلة

سواران من الفضة

طاقية

قدر

رحي

وعاءان صغيران للماء

وعاء صغير للماء

كوز

حشيتان : احداهما من ليف النخل والاخرى من قطع الجلد .

أربع وسادات: اثنتان منها محشوتان صوفاً والاخريتان ليفاً

هاهو جهاز سيدة النساء ، كريمة فخر الانبياء في السنة الثانية من الهجرة فما أبلغه درساً في الاقتصاد للامة الاسلامية !

***

وبعد أن أحضرت ام سلمي ذلك الجهاز ، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم جمعاً غفيراً من الانصار ثم خطبهم خطبة بليغة أثنى فيها على الله ماهو أهله وذكر فيها فوائد الزواج وختمها بقوله : قد زوجت فاطمة من علي بأمر الله : — ثم دعا لهما عقب ذلك بحسن المعاشرة وبالذرية الصالحة وعند ماتم عقد النكاح على هذا الوجه البسيط أحضر الرسول للحاضرين من الانصار وعاء

فيه بعض التمر وقدمه اليهم بقوله : تخاطفوا :

هكذا تم زفاف سيدة النساء وابنة فخر الكائنات بلا ضجيج ولا ضوضاء ولكنه بالسرور يملأ أرجاء القلوب ، بالصفاء الذى يعدل الصفاء يشعر به المرء أيام الاعياد — ما السعادة ؟ أليست صفاء القلوب فاذا كان القلب مغموما كئيباً فما هي قيمة الحياة مهماازينت وأنيرت وحف بها أسباب الانس وألوان السرور !

بعد ان تفرق المدعوون طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمي وأمرها بأن تذهب بكريمته الى دار على وبأن تخبرهما انه آت اليهما عن قريب ، فنفذت أمره وسارت بسيدة النساء الى دار زوجها

أما الرسول فقد صلى صلاة العشاء ويمم عقب الصلاة دار على وفى يده قربة من الجلد تستعمل لسقى الماء وعند وصوله دار صهره قرأ عليها سورة المعوذتين وبعضاً من الادعية وأمرهما بأن يشربا ويتوضآ من الاناء ثم أخذ قايلا منه ونثره على رأسيهما وعند ما أراد مفارقتهما وقدهمّ بالقيام كانت فاطمة رضى الله عنها تبكى فخاطبها بما معناه :

— « أي بنيتى قد تركتك وديعة عند رجل ، ايمانه أقوى من ايمان اى انسان آخر وعلمه اكثر من علم الجميع انه من افضل قومنا اخلاقاً وأعلاهم نفساً »

أهدى نفر من الانصار الكرام سيدة النساء كبشاً ، وبضع كيلات من الذرة بمناسبة هذا الزفاف وكانت الدار النبوية قد ارسلت اليهما بعضاً من التمر والزبيب فأولما من هذه الاشياء وليمة حسنة

على هذا الوجه تم عقد الشركة القلبية بين سيدة النساء فاطمة والامام على كرم الله وجهه فلا يمكن المزيد على هذا النوع من الصفاء والضرب من البساطة — لأنْ يحب الانسان ويحب وليصير سعيداً ويسعد من حوله هذه امور تتوقف على مايؤسسه المرء من دعامات الحب فوق اسس الاخلاص ليعيش فى مأوى محكم يقاوم عواصف الدهر وأزمات الزمان وتزيده آلام النفس قوة وتجعله مواسم العمر ازهى وابهر مما كان

بمثل هذه المتانة والرزانة احب على زوجته سيدة النساء وببركة لدعاء النبوى كنت ترى اشراق الشمس وألوان السماء الصافية ونشوة الشباب وما الى ذلك من المعنويات مجتمعة فى دار على تقطع مراحل العمر مع ذينك القلبين الطاهرين وتغمرهما بانوارها الزاهية

كل يوم من هذه الايام السعيدة فى سلسلة العمر البشرى تلك التى تمر بين انوار السرور واضواء الابتسامات ، ألا تكون كالجواهر النفيسة قيمة بمقدار ما يكون نصيبها من تأثير

وانسياق فالأوقات المملوءة بالمحبة هي أوقات الياقوت وايام الامل تشابه الزمرد والازمان التى تمضى بالصداقة تحاكى الفيروز والاعمار التي تنقضى بالوئام والاتحاد تكون كاللاآلى فهذه الاوقات النفيسة كم هى جديرة بالاهتمام والعناية ! هذه النفائس بعد ان يمضى وقتها وبعد ان تتزين بها النحور يجب ان تصان فى محافظ قيمة يجب أن يعنى بشأنها لئلا يصيبها أذي او يعتورها فساد او يلحقها غبار ينقص ويقلل من شأنها، فاذا ماانقضى ربيع الحياة ومضت انوار العمر وذبلت ازهار السرور والبسمات فان اخراج هذه النفائس من مكامنها للتملى بمشاهدتها واعادة الذكريات الحلوة برؤياها وتجريد خواطر الصبا بواسطتها، سعادة يالهامن سعادة !

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر كريمته العزيزة بأن تقوم بما يخصها في هذه الحياة من شؤونه واعبائه أى كل مايتعلق بادارة المنزل من خبز وطبخ وكنس وتنظيف كما كان علي يقوم بما يترتب على الرجل من وظائف الحياة خارج المنزل ، اذ كان يرعى الابل ويشترى لوازم بيته من السوق

وهما فى ذلك واذا بعلي يقول لزوجته يوماً (لقد شقوت حتى اسليت صدرى وقد جاء الله بسبي فاذهبي فاستخدمى) فقالت (وانا والله قد طحنت حتى محلت يداي) (١) فأتت النبى صلى الله

---

(١) روضة الاحباب

عليه وسلم فقال ماجاء بك أى بنية ؛ فقالت جئت لأسلم عليك واستحيت ان تسأله ورجعت فأتياه معاً هى وزوجها ، فذكر له على حالهما قال لا والله لا أعطيكما وأدع اهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم فرجعا : فأتاهما وقد دخلا على قطيفتهما اذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما واذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما فثارا فقال : « مكانكما الا أخبركما بخير مما سألتمانى فقالا بلى فقال كلمات علمنيهن جبريل تسبحان فى دبر كل صلاة عشراً وتحمدان عشراً وتكبران عشراً واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا اربعاً وثلاثين ، فسكتا وعملا باشارة الرسول.

لفاطمة الزهراء من الاولاد خمس ثلاث صبيان وبنتان وهم الحسن والحسين ومحسن وام كلثوم وزينب وقد مات محسن صغيراً (١)

كانت رضى الله عنها ذات عقل ودراية ، عالية النفس تجيد الشعر وتعرف مسائل الفقه والشريعة ولها المام بالتاريخ ولم يأخذها الغرور يوماً لعلو منزلتها فى الاسلام وكانت سلسة القياد حلوة اللسان تحب معونة الفقراء كزوجها على وقد كان اكثر خرجه في وجوه البر والقرب فكان له ارتفاع طائل من أملاكه

---

(١) الفخري

يخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرباس وبالقرص من خبز الشعير (١)

مرض الحسن رضى الله عنه ذات يوم فى ابان صباه واشتدت عليه وطأة المرض شدة أقلقت بال ذويه وبينما كان سيدنا على كرم الله وجهه فى المسجد مع نفر من اصحابه ، مطرقاً حزيناً على حالة ولده واذا بهم يشيرون عليه بأن ينذر أمر الله اذا عاودته الصحة(٢) ولما عاد الى داره نوي أن يصوم ثلاثة أيام لوجه الله فاستصوبت السيدة فاطمة هذا الرأى وشاركته فى الصيام وقد اعتقد الحسين أيضا أن في مثل هذا النذر شفاء أخيه فنسج على منوال أبويه فى الصيام وكان الامام على كرم الله وجهه قد أحضر مقداراً من الشعير من احد معارفه فطحنت السيدة فاطمة نحو ثلثه وجعلته خمسة أرغفة وبينما كانت هذه العائلة العلوية المباركة على المائدة انتظاراً لوقت الافطار ساعة الغروب ، مر فقير على بابهم وسأله شيئاً من القوت فترك على مابيده وتبعته السيدة فاطمة وناولا الرجل جميع الأرغفة المعدة للطعام ذلك اليوم وقد حدث لهما ذلك فى اليومين التاليين من صيامهما حتى ان العائلة جميعها اضطرت ان تمسك عن الطعام والشراب ثلاثة ايام متواليات اللهم الاقليل من الماء يترشفانه رشفا ولكن الله قبل صيامهم اذ ان الحسن

(١) الدر المنثور ٢ الفخرى

اخذ يتماثل نحو العافية فى اليوم الرابع ففرح والداه بذلك فرحاً شديداً واخذا الحسن والحسين الى جدهما الرسول صلوات الله عليه وسلامه وقصا عليه ما وقع لهما وقد اخبره الأمام (١) كرم الله وجهه مالاقته السيدة فاطمة من عناء وشدة فى ايامها الثلاث فبشرهما النبي فخر الكائنات بأن الله قبل منهم اصيامهما وبرهما

لا أدرى بأي لسان أصف مثل هذا العمل الصالح وكيف اصور للقارئ أمثال هذه النفوس الطاهرة . أمثال هذه الحوادث تبعث الامل والتسلية فى النفوس وتغرى المرء بالاقتداء بمثل هذه التضحيات الدالة على الكمال الخلق .

كانت السيدة فاطمة امرأة من بنات حواء مثلنا ، ولكنها نزعت طول حياتها الى العلو ووقفت دقائق العمر على مافيه صلاح النفس وكمالها ولنا من ذلك مثال جدير بالاقتداء ، ودرس اخلاقى بليغ .

تلك الحياة النزيهة الصافية يصيبها مايعكر صفاءها ذات يوم فنرى عليا في طريقه الى المسجد مغموماً كئيباً يتنفس الصعداء حتى اذا وصله وصلى قليلا تغلب عليه النعاس فنام منزوياً فى أحد الاركان . فرآه الرسول على هذه الحالة وكان قد علم بالنزاع الحاصل بينه وبين كريمته السيدة فاطمة فتقدم نحوه

(١) الفخرى

ومسح ما عليه من التراب وهو يقول : « ما جلوسك هنا يا أبا تراب (١) » ثم أمره بالعودة الى داره . فأصبح يلقب بذلك منذ ذلك وكان ذلك من دواعى سروره

*
* *

كانت السيدة فاطمة تشابه اباها فى كلامها وتحاكيه صلى الله عليه وسلم فى مشيتها محاكاة تامة تثير دهشة الناس اما محبتها لوالدها فخر الكائنات تلك المحبة الخارقة للعادة ، فان الكتب والاسفار مشحونة بقصائدها واحوالها وحوادثها في هذا الصدد .

وأستطيع أن أقول ان هذه المحبة التى تفوق كثيراً محبتها لزوجها وأولادها كانت محور حياتها النزيهة والعنصر الأساسى فيها . فان آثار الشفقة والحنان التى كان يظهرها لها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ونصائحه الأبوية وكلماته الطيبة . هذه المعنويات هى التى سطع بريقها وأشرق نورها فى تلك الحياة الطاهرة التى دامت ثمانية وعشرين ربيعاً . فصحبتها الروحانية لوالدها الرسول هو الذى رفع شخصيتها وألقي شعاعا من النور على نسويتها قد كانت عالية النفس بفطرتها ولكنها بهذا الاتصال الروحى تمكنت من أن تكون ذات شخصية لاهوتية وأن تكون مظهراً لعنوان سيدة ربات الخدور .

---

(١) تاريخ الخلفاء

كانت السيدة فاطمة الزهراء محبوبة من أهلها يحبها الجميع أما هي فقد كانت مشغوفة بحب والدها اكثر من أي انسان آخر كانت تحب الرسول فخر الكائنات من اعماق القلب والروح. وقد تركت ذكريات حسنة في قلب كل انسان عرفها أثناء فترة السنوات العشرة التي مضت من يوم زواجها حتي ساعة وفاتها، فكان الامام على ينفذ كل طلب لها ويعمل بكل كلمة تقولها وكان أولادها وعيالها يطيعونها ويحترمونها في كل حين ولحظة.

كانت تحب أولادها وتعتنى بشأنهم. وكانت في صلاتها وعبادتها، في مبراتها وخيراتها من أكثر السيدات أنساً في محفل ربات الخدور.

روى عنها أحاديث نبوية كثيرة ونظمت قصائد ذات أبيات عامرة وأظهرت دراية ومهارة في حل كثير من المعضلات.

على هذا النحو البديع مرت حياتها المذبة حتى السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية المباركة، تجبر القلوب الكسيرة وتمين المحتاجين وتغيث الملهوفين. وقد ظلت هذه الحياة السعيدة على هذه الوتيرة حتي السنة الحادية عشرة من الهجرة أي في العام الذى انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الى حوار ربه فتناثرت أوراق تلك السعادة وأظلم قلبها بعد ان غاب عن سمائه تلك النجمة

العالية التي سطعت فيه ردحاً من الزمن وهكذا الدهر لا ينقضي يوم حتى يعقبه ليل

أقبلت ذات مرة تزور الرسول صلوات الله عليه وكان معه السيدة عائشة فقال مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه ثم أسر اليها حديثاً فبكت ثم أسر اليها حديثاً فضحكت فقالت السيدة عائشة « ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن ؟ فسألتها عما قال ؟ فقالت ما كنت لأفشي [1] على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سره ، فلما قبض سألتها فأخبرتها « انه قال : ان جبرائيل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة وانه عارضني العام مرتين وما أراه الا قد حضر أجلي وانك اول أهل بيتي لحوقاً بي ونعم السلف انا لك فبكيت ، فقال : ألا ترغبين ان تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت »

لم تترك السيدة فاطمة أباها الرسول لحظة واحدة وهو على فراش الموت فقالت له يوماً وهي تبكي : « انك يا أبي تعاني سكرات الموت هلا أقمت من خواص صحابتك من يليك في أمر النظر في شؤون العامة قبل ان تنقل من دار جهادك الى الآخرة مقر خلدك وسعادتك . وها قد بدأ النحول والاعياء يظهران عليك فلو تعلم مقدار محبتي لك انك قد خلفت لي ذكريات

---

(١) العقد الفريد

كثيرة تذكرني بك أما أنا فلا أملك شيئاً أعده . قلبي أسيف ءاؤه الحزن أحاول اليوم تعزيته انني سأفقدك فوامصيبتاه وما أشد بلواى اما أنا لايرثى لحالى انسان» فأجابها الرسول ءامعناه أى : « بنيتي هذا يوم لم يبق لى فيه شأن مع أحد وسوف أرى جزاء ماصنعت ان خيراً وان شراً لقد علمت حالهم ومضيت في أمرهم بالعدل والله على ما أقول شهيد . حافظت على التأنى وجاهدت من أجلهم وارتديت لباسهم وصليت معهم دون أن يعتريني فخر أو كبر ولم أتخذ لنفسي ما يشبع جوعى ولم أرتد ثوبا ناعماً يرفه جسمي بل قضيت حياتي فى فقر وضرورة فاذا انتقلت الي جوار ربى لينظروا فى شأن أنفسهم بنفسهم وأعطى اليوم لباسى الذى أتقى به البرد والغطاء الذى أتدثر به وتلك الحشية المصنوعة من ليف التمر التي اجلس عليها وقاية الرطوبة » . عند ماتوفى صلوات الله عليه لم يكن معه سوى السيدة عاشة وعمه العباس وكريمته فاطمة وزوجها الامام على كرم الله وجهه

لقد حزنت الزهراء حزناً شديداً لوفاة فخر الكائنات، ودام حزنها الى أن توفاها الله، فلم يظهر على وجهها أمارة من السرور طول تلك المدة

خيل اليها بعد مصيبتها ان العالم كئيب مغموم وان الشمس مظلمة والسماء مغبرة قاتمة . ذلك لان المناظر التي يراها المرء من

خلال الدموع تظهر غبراء باهتة لونها يغم الناظرين . كثرة دموع اليأس تقلل بهجة الحياة وتنقص مقدار اذواقها فاذا بكى القلب دممت العين . ومافي العالم من جاذبية وأشواق يتوقف على ما يفيضه القلب من السرور والبشر اذ تنعكس أضواء العالم على مرآة القلوب فاليوم الذي نشعر فيه بالحزن والكآبة فهو يوم اغبر لاطعم ولا لون له أما ايام سرورنا فهي ايام بيضاء ذات الوان يشع من خلالها كل بريق للانس والصفاء . وكما ان رونق الحياة متوقف على نشاط الانفس فهناك علاقة وارتباط بين جواذبها واحساس ذواتنا .

وقد أعقب بكاء الزهراء فترة هي فترة السكون والهدوء ودل ذلك على أن ارتباطها بالحياة الدنيا قليل آخذ في الانحلال رغم ما كانت تشعر به من الحنو والمحبة الى أهل بيتها ، وكانت تشعر بأن فراقها سيكون سهلا مستساغا لانه سيوصلها الى حبيب قلبها ، الى والدها الرسول صلوات الله عليه

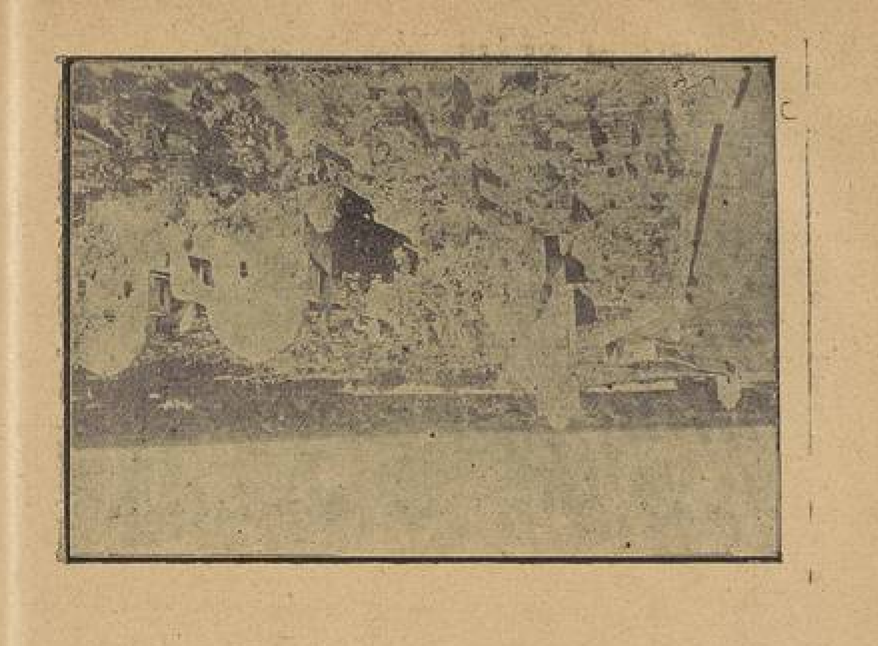
الرابطة القلبية التي تربطنا بهذه الحياة الفانية منشؤها أننا نعيش فيها مع من نحبهم فكل منا يربطه بالكتلة البشرية رباط معنوي كالخيوط الحريرية المتماسكة في شيرازة واحدة فاذا انحلت احداها قلت احدى الروابط واذا ما انفصمت عراها بمرور الزمن لم تبق لنا علاقة بكائن ما وأصبحنا ننظر الى الحياة بجمود وهدوء

وقد يحدث احيانا ان انفكاك رابطة من اقرب الروابط الى قلوبنا — كرابطة الزهراء بأبيها الرسول — يؤدى الي فصم عرى الروابط الأخري فلانشعر اذ ذاك الا بالأمل يحيي فى النفوس انتظاراً ليوم الوصال.

زارت الزهراء قبر ابيها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بأيام واخذت بيدها حفنة من ترابه واستنشقتها بشوق زائد واخذت تبكى ولهة ثم لم تمالك ان فاهت بهذه المرثية :

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران
والارض من بعد النبي كئيبة ... أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فلتبكه شرق البلاد وغربها ... ولتبكه مضر وكل يمانى
وليبكه الطود المعظم جوه ... والبيت ذو الاستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك وصفه ... صلى عليك منزل الفرقان

فلم يسمعها انسان حتي بكى معها وبعد ان افاضت دموع العين بما في القلب من نيران الحزن عادت الى منزلها واجمة مطرقة؟



الفصل الثالث

نصب الخلافة

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وارتفعت الضجة عليه ، دهش اصحابه دهشة عظيمة ، وطاشت احلامهم ، والخموا واختلطوا ، وصاروا فرقاً ، وتفرقت احوالهم ، واضطربت امورهم ، فكذب بعضهم بموته وصمت آخرون ، فما تكلموا الا بعد التغير ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وحق لهم ذلك للرزية العظمى ، والمصيبة الكبري ، التى هي بيضة المصر ويتيمة الدهر ، ومدي المصائب ومنتهى النوائب .

ولقد سرى هذا الاضطراب النفسى الى اصحاب الرسول وأنصاره الكرام وزاد فى حيرتهم الاشاعات التى راجت عن خلافة أبي بكر لم يعيبوا على ابى بكر شخصيته وانما حنقوا لتوليه أمرهم بلا مشورة . ثم سعت رجالات من المهاجرين والانصار الى سقيفة بنى ساعدة ، وهناك بعد جدال وحوار — بسطوا ايديهم الى ابى بكر يبايعونه وكفَّ علي عن البيعة كرامة

لزوجته الزهراء ، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً . وانضم اليهم ابو سفيان بن حرب رأس بنى أميـة والزبير بن العوام بطل قريش وحوارى رسول الله وأقام على والزبير بدار فاطمـة لا يبرحانها (١)

وقد أدي ذلك الى سعى عمر بن الخطاب بقبس من النار الى بيت على كرم الله وجهه ليحرقه وهناك خرج له الزبير والسيف مصلت بيمينه ، يريد ان يصدع به رأس عمر ، ثم تحايل عليه عمر ومعه خالد فأخذاه وأخذا من بعده علياً للمبايعة ولما رأت السيدة فاطمة زوجها يساق قسراً فولولت وقالت :

يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله .

الا أن عمر كان قد ساق عليا الى مجلس البيعة ، حيث ابو بكر ، فقام له وقال واعتذر اليه بأن بيعته كانت فجأة وانه لم يقبلها طمعاً فيها بل حياطة للاسلام ووقاية من شر الفتنة فأجابه الامام على والزبير :

— مانفسنا عليك ماساقه الله اليك من فضل وخير ولكننا نرى ان لنا في هذا الامر شيئاً فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد

وعند ماسكنت الخواطر وهدأت الثوائر قام ابو بكر الى دار فاطمة وطلب منها الصفح عن عمر فصفحت عنه . ولقد تمكن ابن الخطاب ان يملك روعه فى مثل تلك العاصفة الهوجاء التى اصابت الاسلام فسعى بكل ما فيه من قوة وجلد حتى انقذ المسلمين من شر فتنة كادت تقع فتقوض الاسلام من اساسه — رضى الله عنه . (١)

تلك مسألة الخلافة وقد كادت تزعزع بنيان الاسلام وقد كادت تتخضب فيها بالدم رأس من أرفع رؤس المسلمين لولا عناية من الله أوقفتها عند حدها . لقد كانت همة عمر سبباً فى انقاذ روح الاسلام للمرة الثانية . لقد التزم عمر أخف الضررين فهاجم دار السيدة فاطمة ولكنها انتهت بالصلح وعادت بالصلاح وفهمت سيدة نساء العالمين من هو العامل المجد فيها ؛ ولم تمتنع عن مصالحته فما اسمى تلك الفضيلة ! ان القلم ليعثر عياً وعجزاً حين يعرض لتلك الفضائل الملكية المقدسة التي كمل الله بها سيدة نساء العالمين .

بعد وفاة أبيها فخر الكائنات ببضعة ايام ناولت مولاتها بعض الدراهم وطلبت منها ان تنادى فى السوق من يقبل صدقة بنت رسول الله واذا قبلها أحد ان تحضره اليها ففعلت وكان الرجل من فقراء

---

(١) شرح ابن ابى الحديد

المغرب من بلاد البربر فحدثته السيدة الزهراء حديثاً مآله ان الرسول أنبأها بأن ابنيها الحسن والحسين يستشهدان فيفر اولادهما الى المغرب ويحميهما أهل البربر(١)

انى لا أتمالك من الحيرة تستولى نفسى عند سرد هذه الحادثة . فقد حدث أن استشهد الحسن والحسين وفر اولادهما الى المغرب وحماهم المغاربة من اهل بربر ثم تفرعت من اصولهم الدولة الفاطميـة الزاهرة التي حكمت شمالى افريقيا من أقصاها لأقصاها .

كان العالم الاسلامى مظهراً للمدهشات من الوقائع ، تظهر حيناً ثم تختفى آونة أخرى كالحادثات الجوية فلا يبقى من أشكالها وأحوالها فى لوحة الخاطر سوي أشباح ضئيلة .

---

(١) الدر المنثور

الفصل الرابع

حادثة الفدك

ما دامت الدنيا فالمنازعات باقية لا تزول . وما دام الملوان فقانون تنازع البقاء سرمد خالد ، يعمل الناس به ويزعجون أنفسهم فى سبيل تنفيذه .

اعترضت حادثة الفدك أيام الأحزان والأكدار التى قضتها السيدة فاطمة الزهراء عقب وفاة ابيها فخر الكائنات فكانت ضغثا على ابالة . وفدك هذه عزبة نخل كانت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، يصرف منها على أهل بيته وينفق الباقى فى مصالح المسلمين وبعد أن توفى صلوات الله وسلامه عليه طلبت السيدة فاطمة فدك من سيدنا ابى بكر ويروى المؤرخون الحادثة على الوجه الآتى (١) : حضرت السيدة فاطمة ذات يوم الى خليفة رسول الله وقالت له : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى فدك وشاهداى على وأم أيمن .

فأجابها أبو بكر

(١) شرح ابن أبى الحديد

- لا أرتاب فيما تقولين وقد اعطيتك فدك

ثم حرر لها حجة بذلك على قطعة من الجلد وسلمها اياها وفيما هى عائدة الى دارها قابلها عمر وسألها من أين هى آتية فأخبرته بما تم فلم يرق ذلك فى نظره وأخذ الحجة من يدها ورجع بها الى ابى بكر وسأله عن الحقيقة فاصدقه الخبر فقال ان عليا يريد أن يملك فدك وأم أيمن امرأة. ومحا ما على الحجة من كتابة ومزقها فى الحال وقد اغبرت فاطمة من ذلك وراجعت ابا بكر وهى تعلم قول ابيها (اننا معشر الأنبياء لا نورث) وعند ما بلغها اجماع ابى بكر على منعها لاثت خمارها واقبلت فى لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ فى ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخلت على ابى بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والانصار فضرب بينها وبينهم ريطة بيضاء، ثم أنت أنة أجهش لها القوم بالبكاء ثم امهلت طويلا حتى سكتوا من فورهم، ثم قالت:

« أبتدئ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم» وذكرت خطبة طويلة جيدة قالت في آخرها:

« فاتقوا الله حق تقاته وأطيعوه فيما أمركم به فانما يخشى الله من عباده العلماء، واحمدوا الله الذى لعظمته ونوره، يبتغى من

في السموات والارض اليه الوسيلة ؛ ونحن وسيلته في خلقه ونحن خاصته ومحل قدسه ونحن حجته في غيبه ونحن ورثة انبيائه أنا فاطمة ابنة محمد أقول عوداً على بدء وما أقول ذلك سرفاً ولا شططا فاسمعوا بأسماع واعية وقلوب راعية لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤف رحيم فان تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم . ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي . أفحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . إيها معاشر المسلمين أأبتز إرث ابي . أبى الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي لقد جئت شيئاً فريا . فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . ثم عدلت الى مسجد الأنصار فقالت :

« يامعشر البقية وأعضاد الملة وحضنة الاسلام ماهذه الفترة عن نصرتي والونية عن معونتي والغمزة في حقي والسنة عن ظلامتي اما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (المرء يحفظ في ولده) ؛ سرعان ما أحدثتم وعجلان ما أتيتم ان موته لعمري خطب جليل استوسع وهنه واستبهم فتقه وفقد راتقه وأظلمت الأرض له

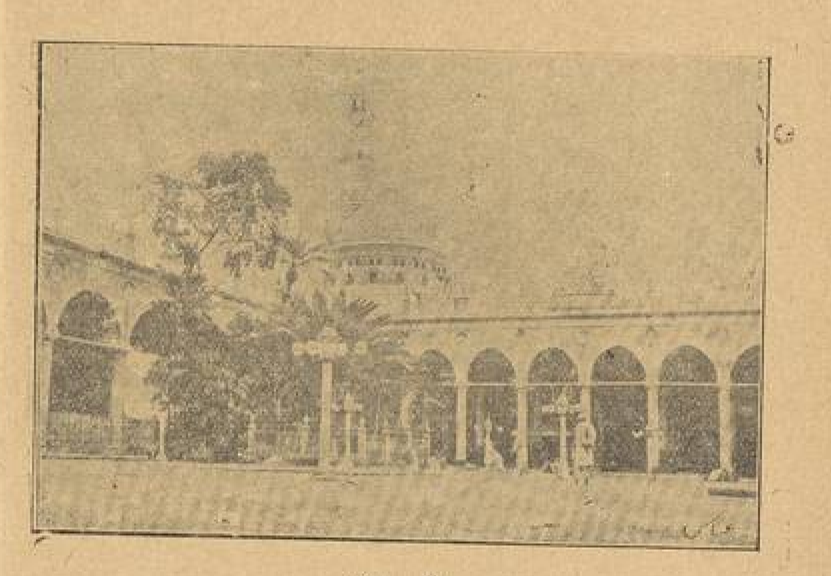
وخشعت الجبال وأكدت الآمال . أضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وازيلت المصونة وتلك نازلة اعلن بها كتاب الله قبل وفاة رسول الله . إيها بنى قيلة ، اهتضم تراث ابى وانتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والمدد ولكم الدار والجفن وانتم نخبة الله التى انتخب وخيرته التى اختار ألا وقد ارى ان الجلدتم الى الخفض وركنتم الى الدعة فجحدتم الذى وعيتم ألا وقد قلت لكم ماقلت على معرفة منى بالخذلة التي خامرتكم وخور القناة وضعف اليقين فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر ناقبة الخف باقية العار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة فبعين الله ما تعملون وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

فأجابها ابو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يابنة رسول الله والله ماخلق الله خلقاً أحب الى من رسول الله ولوددت ان السماء وقعت على الارض يوم مات ابوك والله لأن تفتقر عائشة احب الى من ان تفتقري اتراني اعطي الاحمر والابيض حقه واظلمك حقك وانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما خلفناه صدقة ولست تاركا شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به الا عملت به » ثم تعهد لها بعد ذلك

ان يدفع اليها مايخصها من نصيبها وينفق باقيها فى شئون المسلمين فقامت من مكانها وتوجهت نحو قبر ابيها تستشهد بأبيات ملوءها الشكوى واشهاداً أبيها على ما كان من هضم حقها . ثم نهج عمر في خلافته على منوال ابي بكر فى صدقة فدك وكذلك كان شأن عثمان وعلى رضى الله عنهم وعند ماتوفى الحسن بن على في خلافة معاوية بن ابى سفيان قسمها بين مروان بن الحكم ويزيد بن معاوية وعمر بن عثمان بن عفان ـ وأما فى خلافة مروان بن الحكم فقد انتقلت جميعها اليه من طريق الميراث الى ابنه عبد العزيز وعند ما ولى الأمر عمر بن عبد العزيز اعادها جميعها الى اولاد فاطمة

ثم انتقلت الى العباسيين عند ما آل اليهم الحكم وبأفول دولتهم انتقلت الى الفاطميين وكانوا يوزعون تمرها على الحجاج الى ان قطعت اشجارها فانتهت بقطعها حادثة فدك التى امتدت عصرين متواليين .



الحرم المدنى

- ٦ -

تاج الرجال

رابعة العدوية رضى الله عنها

الفصل الخامس

وفاة الزهراء

عاشت سيدة النساء بعد ابيها فخر الكائنات ستة اشهر وتوفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة احدى عشر هجرية بالغة من العمر عشرين سنة .

وقد كانت بجانبها ساعة أن حضرتها الوفاة ام سلمي ، فقالت لها :

اسكبي لى غسلا يا أماه

فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ثم لبست ثيابا لها جدداً ثم قالت

« اجعلى فراشى وسط البيت » فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ثم قالت : « انى مقبوضة الساعة وقد اغتسلت فلا يكشفن لى احد كتفاً » ثم دفنت ليلا فى البقيع وصلى عليها ابو بكر والصحابة والانصار ونزل قبرها الامام على والفضل بن عباس رضى الله عنهما .

وبعد ان دفن الامام على زوجته المحبوبة جاء الى قبر الرسول وناجاه بهذه الكلمات :

« السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قل يارسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز . فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك ، فانا لله وانا اليه راجعون فقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد . . وأما ليلى فمسهد ، الى أن يختار الله لى دارك التي انت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لاقال ولاسئم، فان أنصرف فلاعن ملالة، وان أقم فلاعن سوء ظن بما وعدالله الصابرين »

بلى ان الله مع الصابرين ! ان الله الذى يبتلى عبده بالمصيبة، يهبه صبرا يعادل مصيبته ويوازى نكبته ، يرفع تلك القلوب الحزينة التى أحرقها بنار الالم ويجليها . وشدة النكبة وعظم قدرها تكون بنسبة ما فى القلوب من حس فلذلك نري القلوب الحساسة تزيدها صدمات الحزن جلاء وقدراً واعتباراً . الأكدار سلم يرقاه المرء ليصل الكمال ، اما السعادة فتسوقه الى مهواة الانانية . القلوب السعيدة

محرومة من مظاهر الرحمة والتسامح أما القلوب الطافحة بانواع الهموم ففيها منافذشتى للانس فسرعان ماتأتلف بأحزان الآخرين وتختلط بآلمهم وتفهم حاجاتهم .

ينظر المتألمون الى الحياة بنظرات ملؤها الشفقة وآيات الحنان وكذلك كان الامام على كرم الله وجهه اثر عليه الخطب وكان وقعه شديدا على قلبه الحساس . كان يبكى دون أن تطفىء الدموع نيران قلبه . كيف لايحزن وقد اشتد يتمه بعد فراق زوجته عقب فراق الرسول صلى الله عليه وسلم

فراق هذين الحبيبين ؟ حرمان ممض وجرح فى القلب لايندمل وكلما فكر فى الايام اللذيذة التى قضاها بصحبة سيدة النساء وتذكر خطر وقعها فى قلبه الطاهر ، وكيف كانت أيام عمره التى عاشها والتى مات بموتها ، ازدادت لوعته واشتدت كآبته فلا يجد السلوى الا فى احضان قبرها ، فيترك روحه تطير سابحة فوق التربة ، تعانق روح حبيبته وتناجيها وتكشف لها عن مكنون مضضها وجواها . كان يسائل الترب والاحجار (١) ينتظر منها رد السؤال ولكن اين لها ان تجيب ؟ . . .

***

ألطف الزهور وأقربها الى الحس وآخذها باللب ، تلك التي

---

(١) الدر المنثور

تنشر أريجها وقت غروب الشمس ثم تنام فى مقتبل الليل ، أجمل الورود أقصرها عمراً .

حمرة الشفق وبهاء الفجر لايدوم جمالهما طويلا بل لمدة محدودة فالنغمات والشعر والسرور ، كل ذلك معنويات سريعة الفناء . كذلك الابتسامات والغمزات ومعاني الحب ، ذكريات للروح محدودة مدتها ونجوم تبدو فى سماء الحياة قصيرة أمدها .

الربيع بهجة الحياة ، وخير مواسم الربيع أقربها زوالا واسرعها ذبولا كذلك نفائس الحياة : الورود والزهور والنغمات وساعات الفجر وذكريات الشباب والمواسم ، أبهجها والطفها وأملكها للنفس اقصرها اعماراً .

لأن يحب المرء ويحب فيعيش محترما معززاً مدللا زمناما ، ثم يأفل بعد ذلك كما تأفل ساعات الغروب ، تاركا وراءه ذكرى خالدة وألماً ممضاً وأسفاً دائماً ، مرتفعاً نحو النور والسرور والسعادة لأن يكون محبوبا على الدوام . . . فينثر حوله البسمات والنغمات ليعيش فى جو من الأنس والطرب والشعر ثم يترك ذلك وراءه فتبقى فى القلوب ذكراه الممزوجة بالحزن واللوعة والاسى ، تلكم تاريخ القلوب المحبوبة كثيرا الآفلة سراعا

من بين هذه القلوب ، قلب سيدة النساء فاطمة الزهراء ،

وتاريخ حياتها، ستمد من تلك العناصر المعنوية . وكما كانت الرحمة والشفقة من لوازم تلك الحياة ومن ألصق الشئون كذلك المحبة والظرف من أدوات زينتها وكمالها .

كانت قرة عين والدها والزوجة المحبوبة للامام على والام الحنون للحسن والحسين رضى الله عنهم وقد امتازت فى صفاتها الثلاثة كابنة وزوجة وأم بمزايا قل أن تجتمع في سواها وبفضائل مزدانة بالجلال والكمال

كانت حياتها الزوجية مع الامام كرم الله وجهه قصيرة جميلة وكذلك أعمار الورود الجميلة والزهور النضرة ، فمضت في ربيع العمر كما تمضى ألوان الغروب وحمرة الشفق بعد أن تترك وراءها ذكريات من الحسن والجاذبية ، فتبدل بموتها جمال الربيع وانقلب الى خريف ممض لو عاشت سيدة النساء ، لما ذكرها المسلمون الى يومنا هذا باللوعة تتملك أفئدتهم ولما كنا نتحدث عن آحزان الامام على بمثل هذه الشدة

مثل الشخصيات الماضية نذكرها بالاحترام والاعظام ونبحث عن أحوالها الخاصة بوضوح وجلاء أملا فى تجديد العهد ورغبة فى احياء الاسم ، كمثل الصور الشمسية التى نحتفظ بها لرجال نعرف اسماءهم ولا نتذكر اشخاصهم . وكلما تجسمت أشكالهم وانظارهم واشباحهم أمام أعيننا ازددنا حبا لهم واشفاقا

عليهم وكما نعيد فى الاذهان ذكريات الايام الحلوة التى نقضيها فى مقتبل العمر كذلك نرى جمالها ماثلا فى الذهن أما الذين نحفظ فى الذاكرة أيام حياتهم بالتفصيل ونستعرض في المخيلة ابتساماتهم ودموعهم وآلام نفسهم فاننا نذكرهم دائما بشيء من الاسف والحزن يتملك أنفسنا :

الا انما الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامر لذة ... فأفنيتها هل أنت الا كحالم

فما قيمة المنازعات والمجادلات وانواع المنافسات؟ ما قيمة كل ذلك مادامت دنيانا احلام نائم ومادامت سعادتنا فيها سعادة الحالم؟

رابعة العدوية

السيدة رابعة العدوية هي أم الخير بنت اسماعيل ومن موالى آل عتيك (١)، مولدها البصرة واننا وان كنا لا نعلم تماما تاريخ ميلادها من المراجع التي بين ايدينا الا انه نظرا لوفاتها عام ١٣٥ (٢) ولانها عاشت نحو ثمانين سنة فانها تعتبر بحق من ربات الخدور في اوائل العصر الهجري .

افنت حياتها في العبادة والتقوى واصلاح النفس وكبح جماح الشهوات فقد كانت نموذج الكمال في عصرها، آثرت كل تضحية وعاشت فقيرة معوزة لتصل الى هذه الدرجة العالية، فهي بحق من اعيان عصرها في الاسلام

كانت تفوق نساء زمانها وتمتاز عليهن لا بالزهد والتقوى فحسب، بل بفضلها وعرفانها، بعلمها وأدبها، حتى رنت اليها الابصار وتطاولت نحوها الاعناق . كان يتلذذ بصحبتها ويستفيد من معاشرتها أمثال حسن البصرى التقى الشهير، وشقيق البلخي الصوفي العظيم، وسفيان الثوري المجتهد الكبير، والملك دينار،

---

(١) ابن الجوزى (٢) ابن خلكان

حاكم الكرج والشاعر البليغ كل هؤلاء الافاضل صاحبوها وجالسوها وحضروا مباحثها فى الدين والعلم فاجلوها وقدروا عقلها وذكاءها ، وأعظموا حال زهدها وتقواها

مات أبواها فى مقتبل عمرها فنشأت فى وقت استحكمت فيه حلقات الغلاء والقحط في مدينة البصرة ، فأوقعها نكد الطالع تحت أسر رجل ظالم مستبد احتبسها عنده مدة ثم باعها الى رجل آخر بعد ان اذاقها أنواع العسف والعذاب ولم يكن حالها فى هذه الدار الثانية خيرا مما كانت عليه فى الاولى . فقد تعذبت كثيراً وقاست شدة مريرة قابلتهما بصدر رحب دون تململ أو تذمر ، اذ كانت ترى الشكوى مزرية بها

وبينما كانت ذات يوم تهرول مسرعة مجتازة ازقة البصرة رماها أحد المارة بنظرة منكرة فارادت أن تعرض عنه ملفتة وجهها فزلت قدماها فسقطت على الارض فانكسر زراعها . لم تقو على النهوض من مكانها فظلت مغشيا عليها مدة لشدة ما أصابها من الالم . وعند مارجعت الى صوابها رفعت نظرها خاشعة الى السماء تناجى ربها : « رباه ، قد انكسر ذراعى وأنا أعانى الألم واليتم ، وسوف احمل كل ذلك وأصبر عليه ، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ويفكك أوصال الصبر فى نفسى ؛ منشؤه ريب يدور بخلدى وهل أنت راض عنى يا الهى ، هذا

ما أتوق الى معرفته . » وما كادت تتم نجواها حتى سمعت هاتفا يقول : لك يا رابعة عند الله مرتبة تغبطك الملائكة من أجلها (١) فنسيت بعد ذلك ما اعتراها من الآلام وقفلت راجعة الى دار سيدها آمنة مطمئنة .

لم ينم سيدها ذات ليلة فسمع صوتا يرن في ارجاء داره فخرج من غرفته يتلمس مبعث الصوت حتى قادته اذناه الى غرفة رابعة حيث رأى ما أدهشه وحير لبه : رأى رابعة تعبد ربها بخشوع ينم عن ايمان عميق فوقف يراقبها ويسمع مناجاتها واذا بها تقول « ربي انك تعلم أن أشد ما أتوق اليه هو عبادتك وتأدية مالك من حقوق ، ولكنني أسيرة لا أملك حريتي الشخصية فلا سبيل الى تحقيق هذه الغاية فلتعذرني يا الهي »

فبهت سيدها ووجد من العار ابقاء فتاة طاهرة عفيفة كرابعة تحت ذل الاسر فلما مثلت امامه فى اليوم التالى قال لها : « انت حرة طليقة يارابعة ولك الخيار في أن تمكثي هنا أو تذهبي الى حيث تشائين » فآثرت هي أن تترك دار مولاها لتعيش من كسب يدها ومنذ ذلك اليوم أصبحت حياتها درسا ممتعا وعظة بالغة اذ وقفت حياتها على أعمال البر والخير ، واضعة نصب عينها الدستور النبوي الجليل « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك

---

(١) تذكرة الاولياء

تموت غداً » فامضت الثمانين عاما التى عمرتها لم تخل بحرف من هذا الحديث الشريف اذ كانت ترى لذة فى تضحية راحتها الدنيوية فى سبيل سعادتها الخالدة

تجاذبت ذات يوم اطراف الحديث مع احد مشاهير الصوفيين فشكا اليها دنياه الفانية فلم تطق احتمالا لشكواه فأجابته « انك ياهذا تكثر ذكر الدنيا وترددها على لسانك فأنت مفتون بها ، مشغول بمحاسنها اذ ان الرجل كثيرا مايذكر ويفكر فى المتاع الذى يريد أن يستحوزه ، فلو انك قطعت كل صلة بدنياك لما ذكرت شيئا من محاسنها او مساويها . » ومن غرائب رابعة انها كانت ترد كل مايعطيها الناس (١) وتقول « مالى بالدنيا حاجة » وقد مرضت ذات يوم فلزمت فراشها ولما عادها حسن البصرى مستسفرا عنها وجد أمام بابها تاجرا يبكى فسأله متحيرا : مابك ولم تبكى ؟ فأجاب —

أحضرت كيسا من الذهب لرابعة وانني مضطرب لاأدرى اتقبله أم ترفضه فادخل بالله وانقذنى من هذا الاضطراب . فدخل حسن البصرى ونقل اليها ما كان من أمر التاجر . فأجابت : « الا تعلم ياحسن أن الله يرزق حتى عباده الذين هم عنه لاهون فما بالك بمن يكن فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر

---

(١) ابن خلكان

السموات عز وجل . . إنني ياحسن لم أتوجه الى غير الله منذ اليوم الذى ادركت فيه قدرته الألاهية . كيف أستطيع قبول هدية هذا التاجر وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أو من حرام (١) فمحال على قبولها فاذهب اليه واشكره مع تقديم عذرى له

حادثة أخرى : زارها أحد التجار يوما ما فوجد دارها خربا يحتاج الي اصلاح وتعمير فأخبرها أنه يعطيها دارا من دوره مؤقتا فقبلت رابعة ذلك وانتقلت الي الدار الجديدة . كانت دار الرجل يحف بها أسباب النعيم والرفاهة وتزدهى جدرانها بأنواع الزينات والزخرف . ولما كان نظر رابعة لم يتعود ان يقع على أمثال هذا الزخرف فقد أطالت النظر فى الغرف الزاهية بصنوف الزينة وضروب الاشكال المبهجة ولم تتمالك أن تمتنع من هذا الامر وهى حيرى والهة وبعد ان أمعنت النظر فيما حولها وتأملت طويلا ما يحيط بها رجعت الى نفسها فخرجت من الدار توا وهى تقول:

«سوف لا اعود ثانية الى هذه الدار ولو مكثت بها لتلفت نفسى بهذه الاشياء الجميلة فيستهوينى لطفها فيحول دون ما انا صائرة اليه من الاخذ باسباب الآخرة»

---

(١) تذكرة الاولياء



(رحمة العبادة)

***

كانت تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فتنهض فزعة وتقول « يا نفس كم تنامين ؛ والى كم تنامين ؛ يوشك ان تنامي نومة لاتقومين منها الا لصرخة يوم النشور ، (١) وكان هذا دأبها حتى ماتت كانت رحمها الله عابدة قانتة زاهدة فانية فى الله ترى كل شيء ماخلا الله باطل .

ولها كرمات تسمع هتاف الهتاف اليها فتركت كل مافى الدنيا من متاع وغرور لتصل الى طريق الذات العلية وبذلك عدت من اعيان النساء الصالحات فى العالم الاسلامي

قالت في مناجاة لها : الهي احرق بالنار قلبا يحبك » فسمعت هاتفا يقول « ما كنا لنفعل ذلك »

كانت لها شخصية ممتازة ولم تصل فاضلة ممن عاصرتها الى مثل ماوصلت اليه أم الخير فقد جمعت مزايا كثيرة اكسبتها لقبا جديراً بالاحترام خلد لها اسما عاطراً فى صفحات التاريخ اذ كانت تدعى (تاج الرجال) سئلت ذات يوم : هل يتوب المولي عز وجل حقيقة عن عباده النادمين ؟ فأجابت ، لو أن الله لم يعط الندامة لعباده فكيف يتوبون فما دام أشعرهم بالندامة وألقي اليهم حسن التوبة فمن البديهى أن يشملهم بواسع عفوه وان يقبل توبة التائب منهم

---

(١) قاموس الاعلام

وسئلت يوماً هل تحبين الله كثيرا فقالت : بلا ريب فقيل لها : الا تعدين الشيطان عدواً لك فأجابت ان محبة الله قد ملأت ارجاء قلبي فليس فيه متسع الى القلق والاضطراب من عداوة الشيطان (١)

كان يزورها كثيرون من الناس لشهرتها وشيوع صيتها ، ويتبرك بمجالسها رجال من افاضل اهل العلم ويجدون في محاضراتها انسا عميقا

وعندما ماتت زوجة حسن البصرى طلبها للزواج فلم تقبل وارسلت اليه قصيدتها المشهورة التي ضمنتها كثيرا من التغزل الالهي وقد سألها عقب ذلك في محادثة دارت بينهما « أليس لك رغبة في الزواج قط ؟ » فأجابت تاج الرجال : انما يتزوج من يملك ارادته بنفسه أما أنا فليس لى ارادة . ان أنا الا عبدة المولى عز وجل « وضعت نفسي تحت ارادته وتصرفه » فقال لها الحسن البصري : كيف وصلت الى هذه الدرجة من الزهد والصلاح فأجابت أم الخير : « بمحو النفس وفنائها تمام الفناء »

قال لها أحد العلماء الأفاضل ذات يوم أثناء زيارته لها : « ان المولى فاطر السموات يارابعه يكافىء الذين يصطفيهم من عباده بموهبة من المواهب لتزداد قدرهم ولكن من الغريب أننا لم نجد مثل هذه القدرة والكفاءة فى امرأة . فكيف وصلت الى هذه المرتبة وكيف أصبت مثل هذه السعادة ؟ »

---

(١) ابن خلكان

فأجابت : « أنت محق فى ذلك لأن النساء لم يفتتنوا يوما من الايام بكفاءتهم فلم تتظاهر بدعوى القدسية »

تاريخ أم الخير مملوء بالمدهشات من الغرائب ننقل هذه الحادثه كانموذج لما سواها

كان من عادتها ان تعتزل الناس فتخلو الى ربها للدعوة والمناجاة فكانت تصوم سبعة ايام وتنقطع الى العبادة والزهد ليال لا تفتر أثناءها عن مناجاة النفس بهذا الخطاب « الى متى تعذبين نفسك يارابعة وتحمليها مشقة ليس بعدها مشقة ، وهى فى ذلك وأذا برجل يدق عليها الباب وفي يده صحن من الطعام يتركه لديها ثم ينصرف . أما هى فتأخذ الصحن وتضعه فى زاوية من الغرفة وتتشاغل باصلاح القنديل وهى على ذلك الشأن فتدخل هرة فتأكل الطعام الذى فى الصحن وطالما تعود رابعه ترى الصحن خاويا فتقول رابعة فى نفسها « لا بأس أفطر على الماء » وعندما تذهب لتعود بالماء ينطفىء القنديل فلم تطق احتمالا وتقول : اللهم لم هذا العذاب ؟ فتسمع هاتفا يقول :

لوشئت يارابعة وهبناك جميع ما فى الدنيا ومحونا ما فى قلبك من نار العشق لان قلبا مشغولا بحب الله لا يشغل بحب الدنيا . سمعت ذلك فعزمت على أن لا تعود فتتمنى سعادة الدنيا وراحتها بل ظلت ثلاثين عاما تذكر ربها ولا تعيد تلك الجملة أو غيرها مما

ينم عن الشكوى والألم بل كان وردها : رب لا تجعل فى قلبى مكانا لغير حبك .

قال عنها الملك دينار وقد كان شغفا بها مفتونا بفضلها :

«ذهبت أزور ام الخير يوما فوجدتها على حصيرة بالية وموضع الوسادة قطعة من الآجر وتشرب من اناء مكسور فقلت لها : أعرف يا ام الخير اصحابا لى من ذوات اليسار فاسمحى لى ان اذهب اليهم واطلب منهم معونتهم في أمر رفاهيتك وراحتك فردت طلبه قائلة : ان الله رازق الاغنياء يهون على الفقراء ايضا حاجاتهم فما علينا الا الصبر والقناعة ورضاء الانسان بما قسمه الله فرض محتم .

وقد زارها ذات يوم سفيان الثورى احد الصالحين المعاصرين لها ومعه فاضل آخر يدعى عبد الواحد فوجداها نحيلة الجسم واهية القوى فلم يتمالكا نفسيهما من البكاء فقال لها سفيان الثورى قدس الله سره : هل لا طلبت من الله يا أم الخير ان يخفف بعض الالم . فاجابت . من هو الذى يعذبنى ويسبب آلامى ؟ فقال هو الله . فاجابت : اذا كان هذا أمر ربى فكيف أخالفه وأطلب منه تخفيف الألم . فاجابها : لا أستطيع ان أرد عليك وها أنا ذا أكل اليك امورى بدل ان أشتغل بامرك (١) فاستمرت تقول :

(١) مشاهير النساء

ولم تكن ياسفيان راغبا فى الدنيا كل هذه الرغبة لـكنت انسانا كاملا . فلم يتحمل سفيان مزيداً واجهش فى البكاء وهو يقول : هل أنت راضٍ عني يارب . فقالت له : الا تخجل فتسأل ربك ما اذا كان راضيا عنك فما الذي صنعته لتفوز برضاه فسكت.

وزارها يوما بعض أهل الفضل وسألوها لماذا تعيش منزوية ولا تتزوج فاجابت انما يشغل خاطرى ثلاثة أمور : اولاها هل أموت وأنا على ايمان كامل . والثاني هل أنال صحيفتي بيدى اليمنى يوم الحساب والامر الثالث لاأدرى مع أى فريق أكون يوم الحشر أمع الذاهبين الى الجنة أم مع الهالكين فى جهنم . فاذا كنت مشغولة الاب امثال هذه الأمور فكيف أبحث عن الزواج

* * *

سألها سفيان الثوري أيضاً وكان من كبار المتصوفين فى عصره : كيف هو ايمانك يا رابعة وكم هو مبلغ اعتقادك بالله تعالى فأجابته تاج الرجال : « لا أعبد ربى خوفاً من ناره أو شوقاً لجنته وانما أعبده لمحض المحبة والاخلاص » ثم أخذت تناجي ربها بهذه الكلمات : (١)

« الهي احبك لوجهين : لحبي وهيامى لك ولأنك أهل للمحبة والعبادة فباشتياقى ومحبتى اذكر اسمك واشغل بذاتك

---

(١) مشاهير النساء

العلية وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة فلا يقف حمدك وثنائى لأمر منهما وانما لك الشكر ومنك الفضل للحالين »

وكان كفنها وهو عباءة من الصوف لم يزل موضوعا أمامها تستصحبه معها أينما ذهبت وعند ما اقتربت منيتها وشعرت بالوفاة طلبت «عبدة بنت ابي شوال » وقد كانت صديقة مخلصة لها فأوصتها بأن يكفنوها (١) بتلك العباءة فلما ماتت عملت بوصيتها فرأتها فى المنام بعد دفنها بعام برداء اخضر وغطاء اخضر على رأسها فقالت لها متعجبة : ماذا صنعت بكفنك الصوف فاجابتها قد عوضنى الله عنه بهذه الثياب كما ترين .

***

وكان موتها عام ١٢٥ هجريه وقبرها في رأس جبل الطور شرق القدس يزوره الناس حتي اليوم

وان القارئ يرى من خلال ما شرحناه أنها رحمها الله شخصية غريبة ذات مزايا انفردت بها من بين ربات الخدور فى العصر الاسلامى كما كانت مثالا نادراً للتصوف والزهد والخشوع عمرت ثمانين سنة كانت فيها مثال الكمال والعمل على التدرج الروحي . ضحت دنياها لقاء أخراها . اذ كانت تستطيع أن

---

(١) ابن خلكان

تعيش مرفهة منعمة كمعاصريها ولكنها لازمت الفقر والضرورة وأنواع العذاب والمشقة لمحو كل عاطفة دنيوية من نفسها

لا يمكن الوصول الى درجة الكمال التى وصلت اليها رابعة اذ يصعب تضحية دنيانا لاجل آخرتنا فى مثل هذا العصر الذي اشتدت فيه الرغبة فى الحياة والصدوف عما سواها، وانما لو اتخذنا من حياتها اليومية دستورا ننسج على منواله نزيد في تدرجنا الروحى ورقينا الكمالى.

لو أننا فهمنا أوامر النبي وتعاليمه التى جاء بها منذ أربعة عشر عاما لعملنا للدنيا والآخرة معاً ولكننا ارتقينا نحو ذرى الكمال



الخنساء

— ٧ — الخنساء

قبل الاسلام

هى الشاعرة الجليلة ، بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، ونسبها يتصل بسليم وعيلان الى قبيلة مضر الشهيرة .

كان أهلها من سكان البادية ، العائشين تحت ظلال خيامهم المنصوبة وسط المهامه والقفار ، حيث لا قانون ولا سلطان ، وحيث هم أحرار طلقاء من كل قيد وذل .

كان قومها — كشأن العرب سكان البوادى — على طباع متنافرة وخصال متضادة تجمع بين المحامد والمثالب : فبين تراهم فى ذروة الكمال من الشهامة والمروءة والأنفة والاباء وكرم النفس واذا بهم فى أدنى مراتب الفوضى والهمجية وشدة الطبع يحبون سفك الدماء ويركبون في سبيل أخذ الثار متون الشطط ويتجاوزون فى ارتكاب الشدة حدود الانسانية . جعلوا القتال وخوض غمرات الحروب والطعان ديدنا لهم واشتد طلبهم للثارات حتى كانت القبائل جميعاً تطلب الثأر من بعضها كالحلقة المفرغة التى لا يعرف مبدؤها ولا منتهاها . ومن أجل ذلك كنت تراهم في عداوة مستمرة وخفيظة متصلة وبغضاء تضطرم

فى الاحشاء ، فيقضون أعمارهم فى الغزوات والغارات يشنونها على بعضهم البعض ، يتسيطر غنيهم على فقيرهم ويتغلب قويهم على ضعيفهم ، ومن أجل ذلك انفرط عقد السعادة من بينهم وساد الشقاء في ربوعهم .

فى مثل هـذا الزمن من أيام الجاهليـة ، وفى أظلم أدوار الوثنيـة ، فى عهـد الحروب والغزوات ، فى الايام الدموية من تاريخ العرب ، تنشقت الخنساء نسيم الحياة .

كانت من أعز بيوتات العرب نسباً وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عن قبيلتها المضرية ويعدها حصن القبائل العربية وقد حدث اصحابه رضوان الله عليهم بأنه من بنى العواتك احد افخاذ سليم بن عيلان بن مضر

وقد اشتهرت قبيلة الخنساء بشجاعة ابنائها وكرم طباعهم وفصاحة منطقهم واجادتهم قول الشعر . وكان لها اخوان تحبهما محبة شديدة ، هما صخر ومعاوية ، وقد كانا من أشجع العرب وأفصحهم نطقاً وأدرعهم شـكلا وأصبحهم وجهاً ، فكان ابوهما عمرو يأخذهما فى المواسم والمحافل ويحضر بهما مجالس العرب ويفاخر بهما الشيوخ والاقران ، متحدثاً بجمالهما ونجابتهما فتقع اقواله منهم موقع الرضى والقبول

وسميت الخنساء فى بادئ الأمر (تماضر) لبياض

لونها (١) اذ كانت العرب تسمي المرأة ذات البشرة البيضاء تماضر ثم غلب عليها اسم الخنساء ، مؤنث كلمة أخنس ، صفة من الخنس اى تأخر الانف عن الوجه او انخفاض قصبته وتأتى ايضاً بمعنى الظبية فاطلقت عليها الكلمة من طريق الكناية

كانت شاعرة بفطرتها . بدأت تقول البيت والبيتين منذ الصغر اذ كانت فتاة كريمة النفس ، متينة الاخلاق ، ذات وقار وشمم ، تكرة النفاق والمداهنة

كانت فى أول عمرها من أجمل نساء عصرها ، رآها دريد ابن الصمة يوماً تهنأ بعيراً لها ثم تجردت واغتسلت وهو ينظر اليها خفية فأعجبته وقال فيها قصيدة مشهورة يصفها ويمدحها ويبوح لها بمكنون صدره (٢) . وقد خطبها الى أبيها فى اليوم التالى . فأجابه أبوها :

— مرحبا بك يا أبا قرة انك للكريم لا يطعن فى حسبه

---

(١) زهر الآداب

(٢) ومن هذه القصيدة قوله :

حيوا تماضر واربعوا صحبي ... وقفوا فان وقوفكم حسبي
ما ان رأيت ولا سمعت به ... كاليوم طالي أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه ... يضع الهناء مواضع النقب
أخناس قد هام الفؤاد بكم ... واعتاده داء من الحب

والسيد لا يرد طلبه والفحل لا يقرع أنفه ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة

ثم دخل اليها وقال لها : «ياخنساء، أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم ، دريد بن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين» ودريد يسمع قولها فقالت :

- يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم ؟ هامة اليوم أو غد ؟

فخرج اليه أبوها فقال :

- يا أبا قرة قد امتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد

فقال:

- قد سمعت قولكما . وانصرف يائساً حزيناً .

وقد عاود الطلب مرة أخرى وكان يمت الى معاوية ، أخيها من أبيها بحبل النسب ، فطلبها من أخيها هذا وألحف عليه في الطلب ، وقد حضر اليها أخوها وقال :

- تعلمين يا أختي ما بيني وبين دريد من المودة والالفة وقد طلبك مني وأرجو ان تقبليه زوجا لك فانني راغب في ذلك .

فأجابته :

- ما أعجب هذا الامر ألم تجد غيري لسعادة صديقك .

- نعم يا خنساء انني راغب في ذلك رغبة شديدة .

ـ حسناً دعني أفكر في ذلك ويحسن أن توسل الىّ دريد فاشافهه بنفسي .

فقام الاخ مسرعا نحو صديقه وأخبره بما دار بينهما وأتم الحديث بقوله :

ـ قم اليها فانها طلبت مقابلتك .

فأصلح دريد هندامه وامتطى فرسه حتى جاء خيمتها وقد استقبلته بالمودة والبشر واكرمته وأعدت له وسادة يتكئ عليها عند جلوسه ودار بينهما حديث طويل سألته خلال كلامها عن أشياء كثيرة ثم قدمت اليه قدحا من اللبن كعادتهم . وكانت تراقبه وتتمعن في حركاته وهو يشرب اللبن ولم يفتها شيء مما أتى به حتى رسخ فى ذهنها تماماً أنه لا يصلح بعلا لها ولم تشأ ان تخبره ذلك في الحال بل قالت له :

ـ اذهب وسيأتيك قولي فيما بعد

فعلم دريد أنه لا مجال للمزيد فقام من فوره ووصله عقب ذلك رسول الخنساء يحمل اليه هذه الرسالة :

ـ أنت شيخ طاعن قد ضعف بصرك ووهت قواك ومضت أيام شبابك فمالى اليك من حاجة .

فحنق دريد لذلك وأراد أخوها معاوية أن يزوجها منه قسراً ولكنها أصرت فى الرد وأنه لاسبيل الى ما يريد فاشتد حنق

دريد بعد هذا الرد القاطع وبدأ يهجوها بلاذع القول وقارص الكلام وعند ما بلغها ذلك قالت :

ـ مادمت رفضت الزواج منه فلم يبق ما أقوله له فليهجني ماشاء أن يهجو وما كنت لاجمع عليه أن أرده وأن أهجوه في هذا الرد مايشعر بالاحتقار والامتهان وانه لأ بلغ من كل هجو قاله دريد فهل بلغه ذلك؟ لو سمع قولها لاستشاط غضباً فوق غضبه

وبعد هذه الحادثة تزوجت برواحة بن عبد العزيز السلمى [١] وبعد أن مات خلف عليها عبد الله بن عبد العزى من بنى خفاف فولدت له عبد الله ثم خلف عليها من بعده مرداس بن أبى عامر السلمى فولدت العباس ويزيد وحزن وعمرو وسراقة وعمرو. وجميعهم شعراء وقد امتاز العباس من بينهم بالشجاعة واجادة الشعر وأدرك الاسلام وتشرف به ثم مات فى موقعة القادسية مع ثلاثة اخوة له بعد أن أبلوا بلاء حسناً

وكما كانت تحب أولادها فقد أحبت أخويها معاوية وصخر بل أن حبها لهما كان يفوق كل حب واعزاز وقد كانت تفضل صخراً حق قدره لحلمه وشجاعته، وتخصه بالاجلال لموقعه الممتازين رجال العشيرة وافراد العائلة ، وتفخر به لبطولته وفروسيته وتعتز به لصباحة وجهه ولذلك فان قصائدها التي قالتها فيه أثناء

---

(١) الاغانى

حياته ومراتبها التى أنشدتها لأجله بعد مماته من أجود الشعر وأمتنه

موت أخيها معاوية أول نكبة أصابت كيان حياتها ولقد زلزلت هذه الحادثة بنيان نفسها وذهنها فغيرت مجرى حياتها الى طريق آخر غير سنتها الأولى .

أظلمت الدنيا فى وجهها فانقلبت قصائدها المملوءة بالروح والحياة الى مرثيات مبكية موجعة تسيل حزنا وألماً . فهذه الحادثة هى الفصل الاول من كتاب حياتها ، فيه ودعت والهة متوجعة ، أيام الشباب وأناشيد الصبا ونغمات السرور . ففى عام ٦١٢ من ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام وافى معاوية سوق عكاظ[١] فى موسم من مواسم العرب فبيناهو يمشى في السوق إذ لقي أسماء المرية وكانت جميلة وزعم انها كانت بغياً فدعاها الى نفسه فامتنعت عليه وقالت

- أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة ؟

فأحفظته ، فقال :

- أما والله لاقارعنه عنك .

قالت :

- شانك وشأنه

فرجعت الى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له

---

(١) العقد الفريد

فقال هاشم

- فلعمري لانريم أبياتنا حتى ننظر مايكون من جهده

فلما خرج الشهر الحرام وتراجع الناس عن عكاظ، خرج معاوية بن عمرو غازيا يريد بنى مرة وبني فزارة في فرسان أصحابه من بنى سليم حتى اذا كان بمكان يدعي الحوزة دومت عليه طير وسنح له ظبي فتطير منهما ورجع فى أصحابه وبلغ ذلك هاشم بن حرمله فقال

- مامنعه من الاقدام الا الجبن

فلما كانت السنة المقبلة غزاهم حتى اذا كان فى ذلك المكان سنح له ظبي وغراب فتطير فرجع ومضى أصحابه وتخلف فى تسعة عشر فارساً منهم لا يريدون قتالا فوردوا ماء واذا عليه بيت شعر فصاحوا بأهله فخرجت اليهم امرأة فقالوا ممن أنت ؟ قالت

- امرأة من جهينة أحلاف لبنى سهم بن مرة بن غطفان .

فوردوا الماء يسقون فانسلت فأتت هاشم بن حرملة فأخبرته أنهم غير بعيد وعرفته عدتهم وقالت

- لاأرى الامعاوية في القوم.

فقال :

- يالكاع أمعاوية فى تسعة عشر رجلا شبهت وأبطلت

قالت :

- بلى ، قلت الحق وان شئت لاصفنهم لك رجلا رجلا.

قال : هاتي.

قالت :

- رأيت فيهم شاباً عظيم الجمة جبهته قد خرجت من تحت مغفره ،صبيح الوجه ، عظيم البطن ، على فرس غراء

قال :

- نعم هذه صفته وفرسه الشماء

قالت:

- ورأيت رجلا شديد الأدمة ، شاعراً ينشدهم

قال :

- ذاك خفاف بن عمير

وهكذا حتى وصفتهم رجلا رجلا الى أن أتت على وصف الجميع فنادى هاشم فى قومه وخرج فاقتتلوا ساعة وانفرد هاشم ودريد ابنا حرملة المريان ، لمعاوية فاستطرد له أحدهما فشد عليه معاوية وشغله واغتره الآخر فطعنه فقتله

ولما دخل الشهر الحرام خرج صخر بن عمرو حتى أتى بنى مرة فوقف على ابن حرملة فاذا أحدهما به طعنة فى عضده فقال : أيكما قتل أخى معاوية ؟ فسكتا فلم يخبراه شيئا فقال الصحيح للجريح :

- مالك لاتجيبه .

فقال:

— وقفت له فطعننى هذه الطعنة فى عضدي وشد أخى عليه فقتله فأينا قتلت أدركت ثأرك الا أنا لم نسلب أخاك قال :

— فما فعلت فرسه الشماء ؟ قال :

— ها هى تلك خذها

فأخذها ورجع فلما أتى صخر قومه قالوا له : أهجهم . قال :

— ان ما بيننا أجل من القذع ولو لم أكفف نفسى رغبة عن الخناء لفعلت .

فلما كان فى العام المقبل غزاهم وهو على فرسه الشماء وقال انى أخاف أن يعرفوني ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا فحمم غرتها فلما أشرفت على أدنى الحى رأوها فقالت فتاة منهم هذه والله الشماء فنظروا فقالوا الشماء غراء وهذه بهيم فلم يشعروا الا والخيل دوائس فاقتتلوا فقتل صخر دريداً وأصاب بنى مرة وعاد ظافراً غانما يطفح وجهه بشرا بأخذ الثأر "[١]

* * *

وفى الوقت الذى وهبت الخنساء نفسها لمحبة أخيها صخر بعد مقتل عزيزها معاوية ، أصيب أخوها هذا بطعنة رمح بعد

(١) الاغانى

ثلاثة أعوام ومرض قريباً من حول .

كان لصخر زوجة تدعى سلمى يحبها لدرجة العبادة ويقال أن بنى عبس غزت قبيلته فى يوم من أيام خروجه للصيد فانتهكت حرمة الخيام وسبت نساء الحي وعند ما عاد صخر وجد الخراب ضاربا أطنابه في موطن الحى فركب فرسه وهاجم القبيلة الغازية مسرعا وتمكن من قتل بضعة رجال منها ثم التفت اليه فرسان من أشجعهم فقاتلهم حتى انتصر عليهم ولما رأى أسراء بنى سليم هذا الظفر الخارق تجرأوا وبدأوا يفكون القيود والاغلال ويهرعون مثنى وثلاث الى حيث صخر ليمدونه بالمعونة فى ميدان النضال وقد رأى ابنة عمه سلمي ذايلة بين زنجى من القبيلة يتهنها فهجم عليه وقتله في الحال . وعند ما انتهت المعركة وعقدت لصخر ألوية الفخار والظفر عينه رجال القبيلة رئيسا عليهم مكافأة لابلائه الحسن وطلب منه عمه أن يختار من يشاء من بناته زوجة له فاختار سلمى اذ كان مغرما بها

كانت سلمى أجمل بنات الحى وأملحهن شكلا وقد كان لها مكانة سامية في نفس صخر منذ أمد بعيد فكان زواج هذين العاشقين : أجمل الفتيات وأشجع الفتيان من دواعي الطرب والسرور بين القوم

أصيب صخر بعد زواجه بطعنة رمح أقعدته الفراش مدة

طويلة وكان أفراد القبيلة يفدون الى خيمته يسألون زوجته عن رئيسهم المحبوب من حين لآخر وكانت سلمي تجلس أمام خيمتها تنتظر ابلال زوجها من مرضه. انتظرت طويلا ولكن على غير جدوى فبدأت عوامل الملل تتسرب الى نفسها وأخذت آثارها تظهر على صفحة وجهها بما تظهره من التبرم والتأفف وقد سألها بعض قومها ذات يوم: «كيف بعلك؟» فقالت سلمي:

ـ لاحى فيرجى ولا ميت فينعى لقينا منه الامرين.

فسمعها صخر وتأثر من ذلك أيما تأثر (١)

ما كان يخطر على باله أن تقول سلمي فيه مثل هذا القول، سلمى التي أحبها وخاطر من أجلها وخاض غمرات الموت لانقاذها من يد الزنجي فاشتد ألم النفس شدة أنسته ألم الجرح ومافتيء يكرر قولها للعائد حتي ناداها ذات يوم وقال:

---

(١) وفى ذلك يقول:

أرى أم صخر لا تمل عيادتى … وملت سليمي مضجعى ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة … عليك ومن يغتر بالحدثان
لعمرى لقد نبهت من كان نائما … وأسمعت من كانت له اذنان
وللموت خير من حياة كأنها … محلة يعسوب برأس سنان
وأى امرىء ساوى بأم حليلة … فلا عاش الا فى شقا وهوان

ـ قد قلت ياسلمى فى حتى كذا وقد نذرت لاجلك نذراً ان شفانى الله .

فسألته :

ـ أخير هو هذا النذر أم شر ؟

فأجابها :

ـ جزاء لخيرك وشرك .

فأجابته :

ـ والله قد يئست من نفسى ولا أقدم لك عذرا عما قلته فافعل بى ما أنت فاعل .

فأثر عليه قولها كأنه سهام مسمومة نفذت أحشاء قلبه وبدأت أمه تجلس بعد ذلك اليوم تقابل الزائرين والعائدين فكان اذا سألها سائل عن صحته طمأنته وقالت له ما يتفاءل به خيرا .

وقد بدأ جرح صخر يلتئم وأخذ يسترد صحته ويعود الى نشاطه السابق ، حتى اذا أنس من نفسه بعض القوة ، قام الى زوجه فهجم عليها وصلبها على احدى أعمدة الخيمة . الا أن المجهود الذى بذله في سبيل الانتقام من زوجته أفقده الصحة فانتكس ثانيا الى أن مات .

لم تنس الخنساء مصيبتها الثانية ومرارة هذه الحادثة حتى الممات فبكت طول حياتها ونظمت المراثى الطوال

الخنساء

بعد الاسلام

بعد أن ثكلت الخنساء أخويها جاءت الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفود قبيلتها وتشرفت بنعمة الاسلام

ولم تنقطع عن أوجاعها وأناتها حتى بعد الاسلام . بل كانت تقص شعرها وتلبس ثوبا خلقا من الخيش الاسود وتندب أخويها على عادة العرب فى جاهليتها

رآها سيدنا عمر بن الخطاب ذات يوم أثناء طوافها بالكعبة وهى على هذه الحال فتقدم اليها ونصحها كثيرا فأجابته - لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به فكيف أتحمل مضض فراق فارسين فقدتهما .

فأجابها سيدنا عمر بما هون عليها المصيبة وذكر لها أن مصائب كثير من الناس أشد هولا لو اطلعت على بواطن أمرهم وقال لها أن ماهى عليه من الحداد من بدع الجاهلية التى حرمها الاسلام فامتثلت لأمره

ورأت السيدة عائشة على الخنساء صداراً من شعر وهو ثوب صغير فقالت ياخنساء أتلبسين الصدار وقد نهى الرسول عنه قالت لم أعلم بنهيه وله سبب قالت : وما هو ؟ قالت زوجني أبي رجلا متلافاً لماله فأسرع فيه حتى نفد فقال لي أين تذهبين ياخنساء فقلت الى أخي صخر فلقيناه فقسم ماله بيننا شطرين ثم خيرنا فقالت زوجته أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخيرهم فقال

والله ما أمنحها شرارها

وهي حصان قد كفتني عارها

ولو أموت مزقت خمارها

وجعلت من شعر صدارها

ثم أنشدت قصيدتها التي تقول فيها

يذكرني طلوع الشمس صخراً

وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي

على موتاهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن

أعزي النفس عنه بالتأسي

لم تستطع الخنساء أن تمحو من ذاكرة الخيال مرارة الحزن وألم الفراق بل ذهبت أيام عمرها مع سيل عبراتها واستنزفت دموع

القلب زهرة حياتها . لم تصغ الى نصيحة انسان بل أن الحزن انطبع على قلبها بحروف من نار وكوي فؤادها كيًا لايزول أثره مادام فيها عرق ينبض . لوابتسمت لخلت الحزن مرتسما فى تلك الابتسامة ولو تنفست لشعرت بحرارة الالم تتصاعد مع الزفرات . لم يحلق فى سماء حياتها سوى غمامة كثيفة هى : شبح الذين ثكلتهم وبكت من أجلهم

وفى أيام خلافة سيدنا عمر جاء اليه نفر من أصحابها وشكوا اليه حالها وطلبوا منه احضارها وبذل النصيحة لها عسى أن ترجع عن حدادها فلما مثلت بين يدى رجل العدل عمر وجد عينيها غائرتين من كثرة البكاء فقال لها :

— مادهاك ياخنساء ؟ وما الذي صيرك الى هذا الحال ؟

فاجابت :

بكائى لفحول مضر جعلنى فى هذا الحال . فأنبها عمر وطلب منها أن تلتجىء الى رحمة المولى عز وجل وقال لها ان الاسلام يحرم أمثال ذلك وأننا ظلال زائلة فى هذه الحياة ولو أن البقاء من نصيب الاحياء لبقى الرسول صلى الله عليه وسلم حيا ثم أتم الحديث بقوله (ان اخويك فى النار) فأجابت

— ذاك أطول لحزنى كنت أبكى لهما من الثار وأنا اليم أبكى لهما من النار ،

فطلب منها أن تقول ذلك شعرا فقالت دعني أنشدك بعض ما قلته فيهما ثم أنشدته قصيدتها التي مطلعها :

سقى جدثا أكناف غمرة دونه　　من الغيث ديمات الربيع ووابله

فتأثر سيدنا عمر من قولها وعزم على أن يتركها في حالها ثم التفت الى اصحابه وقال لهم :

ـ دعوها بعد اليوم في شأنها فان للمرء أن يبكي ما شاء لمصيبته ونكبته .



حرب القادسية

هنالك صفحة مشرقة في تاريخ أيام الخنساء، تنحني لها الرؤس اجلالا ، هي خير وأبقى من كل قولة قالتها أو قصيدة نظمتها فى أيام الصبا .

فلقد خبا بريق عينيها وانطفأ نور جمالها وتقوس ظهرها وانتابتها عوامل الضعف والشيخوخة ولكنها لم تزل فتية القلب ، جريئة الجنان ، تجول فى عروقها المنكمشة دماء الشهامة والجلادة .

عرفنا الشيء الكثير عن تاريخ المرأة الرومانية وأعجبنا بجلادتها وشجاعتها فى مواقف الشهامة وما كانت عليه الخنساء لم يكن بأقل من ذلك

لقد بلغت أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر وقوة الايمان . ما ذهب به الدهر من حديث جزعها ، وتصدع قلبها واضطرام حشاها على أخويها صخر ومعاوية ، كل ذلك استحال الى صبر أساغه ايمان الاسلام وجمله التقى فلم تأس على فائت من متاع الدنيا .

كانت أما الاربعة أولاد من أشجع الاولاد ، هم أشطار كبدها

ونياط قلبها دفعتهم جميعاً الى الحرب وعدت موتهم فى سبيل الاسلام شرفاً ليس وراءه شرف . ثم بكتهم وهى تفخر بضياعهم إذ لم يبق لها انسان بعدهم

وقعت حرب القادسية فى عام أربعة عشرة من الهجرة النبوية فحضرت الحرب مع أولادها الاربعة وقالت لهم من أول الليل :

« يا بنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم لبنو رجل واحد ، ماخنت أباكم ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا واربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا أصبحتم غداً ان شاء الله سالمين فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين ، فاذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها ، واضطرمت لظى مساقها فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رسيسها عند احتدام خميسها ، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة . . »

فلما أصبح الصباح وقد أثرت فيهم نصيحتها تقدم كل واحد منهم الى الحرب وقاتلوا واحداً بعد واحد حتى قتلوا وكل

منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزاً فأنشد الاول :

يا اخوتي ان العجوز الناصحة قد نصحتنا اذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة وانما تلقون عند الصابحة
من آل ساسان كلاباً نابحة

***

وأنشد الثاني :

والله لا نعصى العجوز حرفاً نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً
فبادروا الحرب الضروس زحفاً حتى تلفوا آل كسرى لفا

***

وأنشد الثالث :

ان العجوز ذات حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبراً بالولد فباكروا الحرب حماة في العدد

***

وأنشد الرابع :

لست لخنساء ولا للأخزم ولا لعمرو ذي السماء الاقدم
ان لم أره في الجيش حنس الاعجمي ماض على الهول خضم حضرمي

اشتد أوار الحرب وانتهت بقتل كبير الفرس وتشتت شملهم وانتصار المؤمنين فعقدت للاسلام ألوية الظفر

وعند نهاية الحرب الضروس التي لقي منها المسلمون صنوف

الشدة قام نفر من رجال الجيش الى الخنساء وأخبروها باستشهاد أولادها الاربعة بعد ان أبلوا بلاء حسناً وما كادوا يلقون عليها الخبر حتي اهتز كيانها ونالتها رعشة سرت في جميع أطرافها ثم سكتت والتفتت اليهم تقول :

« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى ان يجمعنى معهم فى مستقر رحمته »

وعند ماعادت الجيوش الاسلامية الى المدينة المنورة تخفق على رؤس أفرادها ألوية الظفر كانت الخنساء معهم تجر نفسها على عصاها، تسيل عبراتها ويتخلل وجهها اشراقا وبهاء فكان الناظر اليها لا يدرى أيغبطها على حالها أم يتوجع لآلامها وقد أجرى عليها رجل العدل عمر بن الخطاب أرزاق بنيها ، مائتي درهم عن كل واحد .



مكانة الخنساء بين شعراء العرب

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه شعرها [1] ويستنشدها ويقول هيه ياخناس ويومى بيده صلى الله عليه وسلم.

ولما قدم عدى بن هاشم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحادثه فقال :

— يارسول الله ان فينا أشعر الناس وأسخى الناس وأفرس الناس.

قال : سمهم . قال :

— أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد يعنى أباه وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب فقال رسول الله عليه وسلم.

ليس كما قلت ياعدى . أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو وأما أسخى الناس فمحمد يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب .

قيل لجرير من أشعر الناس ؟

قال : أنا لولا الخنساء

قيل : بم فضلتك ؟

---

(١) خزانة الادب

قال : بقولها :

ان الزمان وما يفني له عجب   أبقى لنا ذنبا واستؤصل الراس
ان الجديدين فى طول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وكانت فى أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر فأكثرت من الشعر و تغيرت طريقتها فى القول وأسلوبها فى التفكير لان المصيبة شحذت قريحتها وصقلت ذهنها فاشتد لمعان أفكارها رونقاً وبهاء

واتفق أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها ويقول الشريشي في كتابه: « ان النساء ليظهر الضعف فى أشعارهن الا الخنساء فقد فاقت الرجال فى قول الشعر » وعندما عد ابو العباس المبرد شعراء العرب قال عن الخنساء وليلى انهما فاقا الرجال في متانة الشعر مع تأخر النساء بالنسبة للرجال فى أكثر الصناعات وكان الاصمعي يفضل ليلى على الخنساء ويحاجيه ابو زيد بقوله « وان كانت ليلى فى اشعارها أمتن لفظاً وأعمق معنى الا أن الخنساء فى مراثيها أعلى روحا »وكان المبرد تعجبه مراثى الخنساء ويقول عنها « أمتن المراثى ماكانت مملوءة بالالفاظ المفجعة التى تشعر بمدح المتوفى فاذا كان النظم موافقا والالفاظ صحيحة والاسلوب رائقا فلا ريب في نفاسة القول اذ ذاك حيث يستفيد المرء ويمتلىء بروح اللذة والاعجاب وهكذا مراثى الخنساء

في مثل هذا الحد من مراتب الكمال »

كان يضرب للنابغة الذبياني قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فأنشده الأعشى مرة ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء والخنساء تسمع

فسأله حسان عن مقدار شعره ففضل عليه الأعشى فقام حسان غاضباً يقول :

« والله لأنا أشعر منك ومن أبيك »

فقال له النابغة :

« يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول »

ثم التفت الى الخنساء وطلب منها أن تنشده شيئاً فأنشدته :

ان صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فتأثر الحاضرون وقام اليها حسان يقول :

« لم أر والله امرأة أشعر منك فقالت له :

ألا تريد أن تقول انني أشعر الرجال أيضاً ؟

فأجابها بغرور

« كلا أنا أشعر منك ألم تسمعي قولي :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فنظرت اليه الخنساء بازدراء وأجابت :

— انك لعاجز فى هذا الشعر وقد أخطأت فى ثمانيـة مواضع منه

فسألها عن مواضع الخطأ فأجابته برزانة ووقار :

قلت (الجفنات) والجفنات جمع قلة وكان الاجدر أن تقول (الجفان) وقلت (الغر) ولا يقال الغر الا لبياض الجبهـة ولو أنك قلت (البيض) لكان المعـنى أتم وانك تقول (يلمعن) واللمعان يفيـد النور الضعيف وكان الاجـدر بك أن تقول (يشرقن) وقلت (بالضحى) مع أن وقت الضحوة لا يأتى من الضيوف الا النذر اليسير ولو قلت مساء لكان المعنى أتم وقلت (أسياف) بجمع القـلة ولو أنك قلت سيوف لكان دليـلا على الـكثرة وقلت (يقطرن) فدللت بذلك على قلة عدد القتلى ولو قلت (يجرين) لكان أبلغ ثم انك تقول (دماً) ولو قلت (دماء) لكان أتم ثم انك تفتخر بالاخلاف منكم ولا تفتخر بمن سلف .

فخجـل حسـان من محاجتها وخرج من المجلس غاضبـاً كئيباً .

كان من عادة العرب أن يجتمع شعراؤها فى سوق عكاظ للمباراة فى إجادة الاقوال وسبك المعانى وكان ينصب للنابغة الذبيانى قبة حمراء يجتمع تحتها كل شاعر مجيد وكل بليـغ عتيد

وخطيب منطيق فيطلقون العنان لبنات الافكار وينثرون على بساط المباراة درر الالفاظ وغوالى الحكم فمن نال قصب السبق وحكم له بالتفوق والاجادة تكتب قصيدته على طروس من الحرير تعلق على أستار الكعبة ومن أجل ذلك فان لأصحاب المعلقات مكانة رفيعة ومنزلة سامية بين الشعراء، وفحول أصحاب القول والحكمة . لان معلقاتهم من أجود القول وأحكمه

كانت العرب تعبد البلاغة فأوصلتهم عبادتها الى مراتب الكمال فى التوسع اللغوى حتى لقد أصبح قول الشعر سليقة لهم ينطق بها صغيرهم وكبيرهم وأصبحت الكلمة الطيبة تعمل فى النفوس فعل السحر بالالباب .

كانت المعاني الجميلة والالفاظ البديعة والاقوال الحكيمة من مزايا تلك الحياة البدوية الصافية، حتى ليقال أن أعرابيا وصل ذات يوم الى مكة المكرمة فحث مطيته نحو رهط من الناس مجتمعين في حلقة، مطرقين ينصتون لرجل يقرأ عليهم قولا بليغا فنزل عن ناقته وجلس ينصت معهم وما كادت بعض الاقوال تتغلغل الي نفسه حتى قام من فوره فسجد سجدة طويلة وعندما انتهره القوم متسائلين عن فعلته أجابهم : « انما سجدت لفصاحة هذا الشيء الذي تقرأونه » فقالوا له « ماهذا كلام بشر وانما هو كلام الله عز وجل » فأجاب « اذن لاسلمن معكم »

كانت الخنساء تحضر سوق عكاظ وتعرض شعرها النفيس في ميدان المباراة تحت تلك القبة الحمراء وقد قرأت ذات يوم قصيدة بليغة نالت استحسان الجميع واعجابهم فأشار النابغة الى الاعشى الواقف أمامها وقال :

« لولا ان أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت انك أشعر منه »

فهذه الخنساء عرفناها شاعرة جليلة من شعراء الطبقة الاولى المشهورين بالاجادة والتفوق ولها ديوان جليل .

* * *

ها نحن أجملنا لك صحيفة بيضاء من تاريخ العظائم ، صحيفة امرأة مستثناة ، أحرزت في الحياة موقعاً رفيعاً يختلف كثيراً عن مواقع من عاصرتها من سيدات ورجال .

الخنساء سيدة جليلة ، ووالدة كريمة ، وشاعرة عزيزة ، نافست في عالم الادب فنالت قصب السبق وناضلت في ميادين القتال لاعلاء كلمة الاسلام فحازت القدح المعلى ولا ندري بأي مزية من هذه المزايا نذكرها ولا بأي مفخرة من هذه المفاخر نشهرها .

عاشت اعواما كثيرة بعد وقعة القادسية وماتت ايام خلافة معاوية في العام الخمسين من الهجرة وعمرها سبعون سنة . وقد أجمعت كتب التاريخ انها ماتت في البادية .

كيف قضت أنفاسها الاخيرة وأودعت آخر نسمة من نسمات الحياة ؛ أكانت وقتئذ عائدة من احدى منتديات الشعر والادب تتوكأ على عصاها المعروفة ؟ ام أسلمت الحياة فى خيمتها وهي مستسلمة الى احضان الماضى وذكريات الشباب أم كانت اذ ذاك تحدد النظر فى منظر غروب الشمس فى يوم قائظ وقد خيل اليها ان تشبع الروح وتملأ العين بتلك النظرة الاخيرة فى فضاء الصحراء المترامية الاطراف والبوادى الشاسعة التى لاتقع العين منها الا على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وهى تردد مع انفاسها الاخيرة قولها فى أخيها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل طلوع شمس

ساءات التاريخ كثيراً عن ذلك فلم أقع من طياته واسرار على ما ينقع الغليل اللهم الا نتف وانوال اجملتها فى هذه الصحائف القليلة التى اعرضها اليوم على الانظار بعد مرور الف وثلثمائة وثمانية عشر ربيعا على ذبول تلك الزهرة المعنوية الجليلة

وقد خطرت لى سانحة أريد ان اثبتها هنا قبل ختم هذه الصحائف .هى ذكرى صغيرة أريد بها المقارنة بين قلب الخنساء الكبير ونفسية امرأة يابانية :

اننا نعلم الخطوات الواسعة التى خطتها الامة اليابانية في سبيل الرقى والمدنية فان نعجب بمدنيتهم وفلاحهم فان عصبيتهم

نحو تاريخهم وقوميتهم وتمسكهم بتقاليدهم المليه وعاداتهم الوطنية أحرى بالتقدير وأجدر بالاعظام

ان تحليل وتعميق الشعور الكامن فى النفس اليابانية للوصول الى حالتها الروحية وللوقوف على أسرار سعادتها والاطلاع على غايتها من الحياة والاحاطة بالعوامل التى رفعتها الى هذه الرتبة العالية والمكانة السامية ، لذة معنوية تدخل على النفس ظلال الغبطة والسرور .

أسعدتنى الظروف فيما مضى بلذة معنوية من هذا القبيل ، اذ كنت أطالع كتابا عن اليابان يبحث عن علو أفكار المرأة اليابانية وظرفها الفطرى وقد ذكر فيها المؤلف بدهشة واعجاب متانة اخلاقها وقوة جنانها وعلو طبعها الى غير ذلك من مزايا تربيتها الروحية ثم استطرد من ذلك متسائلا عن أثر الوراثة فى ذلك التهذيب وعن الاجيال التى تمت وتمرنت فيها هذه التربية الروحية حتى كملت الى حد اظهار الرزانة والوقار أمام مرائر الحياة وجبر النفس وستر دموع العين بابتسامات لطيفة في أوقات الضنك والشدة ثم استطرد من ذلك الى تصوير الحرب الروسية اليابانية وتحدث عن اليابانيات وثبات جأشهن وهن يودعن ازواجهن وأولادهن وآباءهن واخوانهن الذاهبين الى ميادين الحروب وكيف انهن كن يملكن العبرات فى ذلك الموقف الرهيب وتفتر

ثناياهن بالابتسامات المشجعة والكلمات المعزية والمعانى الحماسية بدل ان يذرفن الدموع التي قد تفت فى السواعد وتثبط من العزائم وتقلل من النشاط وقد كانت الواحدة منهن لتعلم وهى تودع أعز انسان لديها انه قد لا يرجع اليها سالماً وقد لا تحظى بقبلاته فيما بعد ،ولكنها لا تفتأ عن بذل ما تبعث فيه الحمية وما تجدد فيه العزيمة للكفاح وملاقاة الاهوال وقد أضاف المؤلف ان هؤلاء النسوة ما كانت احداهن لتتأخر عن سبيل التضحية لحظة واحدة فداء الوطن والامبراطور ولو أن التقاليد او العادات تبيح لهن الاشتراك في المعامع والحروب مع الرجال، انهن ليخضن غمراتها بشوق وتلهف بلا بطء ، ولا توان .

وبعد أن ذكر المؤلف الشيء الكثير عن شهامة اليابانية سرد هذه الحادثة التى شاهدها بنفسه رأى العين والتى لا أرى مندوحة من نقلها هنا كما هى انها اقصة بالغة ذات مغزى سام تسوق المرء الى التفكير العميق وقد أستطيع هنا أن أسوق القاريء الى وادي الحس وأفيض عليه بشيء من الشعور لذى غمرنى عند تلاوتها ، قال المؤلف :

« كان ذلك فى أوائل الحرب الروسية اليابانية وكانت الجيوش تساق الى ميادين المعارك ففى هذه لآونة كانت يابانية تودع حبيبا لها ، ذاهبا الى الحرب فرأيته يقول لها : هيا بنا نتصافح

فانى ذاهب » فسألته متعجبة الى أين ؟ — الى الحرب فأشرق جبينها وارتسمت على وجهها ظلال الغبطة والشوق وسألته بنغمة كلها سرور ونشاط :

— الى الحرب ! أليس كذلك ؟ الى أعدائنا الروس ؟

— نعم الى أعدائنا الروس .

فقامت اليابانية من فورها وقد كانت جالسة على حصير، تبرق عيناها بنيران الشوق والسرور وما كاد حبيبها يلمح فى نظراتها ذلك الهيجان حتى سألها .

— أكنت ترغبين فى مرافقتي ؟

فأجابته وهى تكاد لا تملك خفايا تأثراتها :

— نعم كنت أريد ذلك ، أريد أن أموت ، أن أجود بحياتى في ميدان الحرب . ولو أستطيع أن أموت وأحيا سبع مرات لجدت بحياتى فى كل هذه المرات فداء الوطن والامبرطور »

لقد تسنمت اليابان غارب المدنية وارتقت ذروة المجد والفلاح لانها تملك مثل هذه النفوس المهذبة والشخصية الكاملة وبمثل هذه النار المقدسة المشتعلة في نفس المرأة اليابانيه على الدوام غرسوا بذور محبة الوطن والامبراطور فى قلوب الاولاد والاحفاد جيلا بعد جيل .

الوطنية شعور عام يسود اليوم قلب كل ياباني

البطولة والتضحيه من المعانى الممتزجه بدم اليابانى ولحمه. انهما جزءان لا يتجزءان من كيانه

هذه هي المرأة اليابانية . . . .

وعلى هذا المنوال نسجت أمهاتنا أمثال الخنساء في تشجيع اولادهن للحروب وتزكية نيران الحماسة فى قلوبهم وبمثل هذه الروح العالية كانت الواحدة منهن تنادي في أولادها وتصيح : « حافظ على لوائك يا بنى وحذار من أن يقع فى يد عدوك انما اللواء شرفك ووطنك ودينك فاذا أصابته نقطة من الغبار قل شأنك وشرفك . واذا نالته خدشة أو خمشة صغيرة فى جانب من جوانبه صغر قدر نفسك نه كيانك وكتاب مجدك ورمز أمانيك . لج غمرات الحرب وانظر دوما الى الامام واعلم أن الجبن عصيان للوطن فلا ترض لنفسك أهون الحالين بل اسع فى أن تكون إما غازيا أو شهيدا »

وعند ما كانت نساؤنا تدفع أحفادها وفلذات اكبادها الى غمرات الحروب بأمثال هذه الحماسات كنا نقفز على الدوام نحو الرقى والفلاح . لقد ارتفعت اذ ذاك رؤسنا وأشهدنا العالم مجدنا وكيانا وبرهنا لهم أننا نستحق الحياة بجدارة واستحقاق.

ولقد جرت الايام ذيول العفاء على تلك الازمان المجيدة والايام العزيزة وتطاوات الاحقاب والاجيال على وقت كنا

تقدر فيه ذواتنا . ولقد نسينا شخصيتنا وامحت القومية من صدورنا أومنذ ذلك اليوم صرنا مهجورين مدحورين ثم قمنا نقلد غيرنا ونحاكي سوانا فما استطعنا الى ذلك سبيلا وعندما عدنا القهقرى أصبحنا نشك فى شخصيتنا لانا فقدناها ومثلنا اليوم فى اوقيانوس المدنية وخضم العمران مثل سفينة فقدت دفتها تشق عباب البحر بلا غاية ولا أمل فطوراً الى اليسار وطوراً الى اليمين ،الى حيث يخيل اليها أنه شاطيء السلامة والنجاة . . . .

ولكن لا شيء يستعصى فى الحياة أمام العزيمة والثبات علينا الا نيأس وان نحيا بالامل وأن نعتقد بأن حسن الطالع سيكون يوما معنا وأن نعمل منذ اليوم بما أوتينا من جهد وجلد وقوة على اكتساب ثقة الايام وانتهاز فرص الزمان. علينا أن نكرر من حين لآخر كلمات الخنساء الذهبية لأولادها وهم ذاهبون لى المعركة.ولنخلص فى القول حتى نعمل على وقاية اسمنا وشرفنا والمحافظة على لوائنا لتكن اجسادنا ذرات منفصلة من وطننا ولتكن قلوبنا قلعة منيعة محصنة بأسوار الايمان أما لواؤنا الاخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث فليخفق على الدوام فوق برج هذا الحصن المنيع بالنسمات التي تحركها أبواق الظفر .

— ٨ —

اميرة المؤمنين زبيدة

بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور

الفصل الاول

كما أن شيب الرؤس والعوارض، من علامات الشيخوخة للافراد ومن أدلة أقترابها نحو حلقات الضعف والذبول ، كذلك انغماس الامم فى تماشى الرفاهة ومسالك السفاهات ، من أمارات انحطاطها ودنو ساعتها والسر فى ذلك ، أن عناية الخلق بضروب الزينة ، واعراضهم عن الجوهر ، وتمسكهم بأهداب العرض ، واكثارهم من التهافت على الكماليات ، يسوقهم حتما الى هجر أوضاعهم القديمة وأنظمتهم التى درجوا عليها وتقاليدهم التى نشأوا معها ، فيشرعون في توسيع شأنهم وترفيه حالهم ، فتبدأ عامتهم فى مشاركة الملوك والخواص في مظاهر لباسها ومعاشها ، ويصبح حب الراحة من قواعد العرف وأحكام العادة . ويهجر قواد الحروب مضارب الخيام وظهور الخيول الى التنعم فى مغانى الانس والتلهى تحت ظلال الامن والدعة ، فيختل النظام وتسرى الفوضى ويسود الفشل وتضعف تبعاً لذلك الانظمة المقننة لسياج الملك وصيانته ، الى أن يأتى دور الانحلال فالاضمحلال وتتم كلمة القضاء المسطرة فى لوح الازل

حقاً ان الامم انما تسير حسب الحكمة الصمدانية المرسومة لها فى كتاب قدرها وأن « لكل أجل كتاب » ولكن لايجب أن نستسلم من جراء ذلك ونركن الاقدار تسيرنا ذات اليمين وذات اليسار . وانما علينا أن نمتلىء بالامل ، ونعمل بجد على اصلاح الحال والمآل ، اذ من الثابت المقرر أن من القضاء ماهو معلق كما هو وارد فى الكتاب العزيز « ويمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١)

ما أجل هذه الفلسفة وأروعها ! اننا لنسجلها هنا بيد الاعجاب والتقدير لذلك الفيلسوف الداهي والمؤرخ الكبير العلامة الحاج خليفة المعروف فى عالمى الادب والعرفان باسم كاتب شلبي ذلك لانها القانون الازلى لوقائع الايام والناموس الخالد لحوادث الزمان هذا الناموس الخالد لهو — في عرفي — المقياس القويم والقسطاس المستقيم لجميع الادوار التى تتقلب فيها الانسانية . فالحكومات التى توالت والدولات التي تعاقبت الواحدة تلو الاخرى ، ما انحدرت من أوج الاقبال الى وادى الادبار وما سقطت من سنام العز الى حضيض الذل ، الا بسبب تلك العلل والادواء التي بينها لنا المؤرخ العلامة « كاتب شلبى »

ها كم صفحات التاريخ ، فكلها عظات وعبر ، تحدثنا بأوضح

---

(١) تقويم التواريخ لكاتب جلبي

بيان وأفصح لسان عن مصر جميع الحكومات والامم، شرقية كانت أم غربية، وكيف انطفأ نور سعادتها وخبا ضوء عزها، فى طريق العظمة وسبيل غرورها وتمشيها فى مسالك الرفاهة والنعمة وكيف كان ضياعها وفقدان مزاياها وامحاء شخصياتها عقب ولوجها مناهج الغرور.

أجل ماحال تلك الامم والشعوب؟ لقد خبا نور عزها بعد أن كان ساطعا مشرقا وتقوضت دعائم مجدها بعد ثبات ورسوخ فذهبت ضحية الاحتشام والدبدبة وهوت من سماء العالم كما تهوى النجوم السيارة فى ليالى الصيف.

ما من أمة استطاعت أن تقف فى وجه هذا القانون الازلى، فبغداد لم يغنها علما وعرفانها فتيلا، والقاهرة لم يجدها صناعاتها وفنونها نفعا، وتونس لم ينفعها سحر بدائعها شيئا. كل هذه العواصم التى ازدهت بأنوار المدنية والعمران وازدهرت بأشعة العلوم والفنون زمنا ما وكادت تصل الذروة أو تقترب من قمة الكمال، اعتراها الدوار وهي فى الطريق فلم تحرص على أوضاعها القديمة التى أوصلتها الى تلك الحال

هذا داء استعصى دواؤه على نطس الاطباء وأجلة الحكماء واحتار فى تعليله وتشخيصه جمهور العلماء والادباء. وكما أن تيمورا الفاتح الكبير لم يتمكن من الاحتفاظ بملكه الشاسع،

كذلك الاندلس لم نجد وسيلة الى تخليد مجدها وعظمتها ، وهكذا الحال مع حكومات الرومان واليونان . فما من قائد أوحاكم اشتهر بين قومه بالبطولة والعظمة ترك عادته القومية وتربيته الوطنية وحياته الساذجة الصافية الى حياة الرفاهة والدعة الاوقد غلب على أمره ولاقى وبال نفسه . فهام رجال الحرب والكفاح من أبناء الرومان ، من الذين جالدوا وناضلوا فى المعامع والمعارك حتى تكللت رؤوسهم بأكاليل الغار ، ماكاد هؤلاء يتقلبون على فراش النعمة ويتوسدون رياش الراحة ، حتى فارقتهم صفات البطولة ومزايا الرجولة التي شرفتهم ورفعتهم على هامات الشعوب ، فصار أحدهم بعد تلك الخشونة وممارسة أنواع الصعاب وضروب المشقات ، يجرحه النسيم ويدميه لمس الحرير ويتأذى من وريقة الورد اذا وجدت عرضاً بين حشايا فراشه الناعم الرقيق ..

وهل أتاك حديث الاغريق ، وما كان من شأن علماء أثينا الذين خلبوا ألباب العالم بواسع أفهامهم وعظيم ذكائهم ؟ ألم تر كيف كان بهاء مجدهم وانتشار مدينتهم واستفحال كلمتهم فى مشارق الارض ومغاربها ! . . . ثم انظر الى مصيرهم بعد تلك العظمة والى انطفاء نورهم بعد ذلك الاشراق سلكوا سبيل الرفاهة والزينة فانفرط عقد نظامهم حتى أصبح موطنهم مزرعة للدسائس والفتن وفقدوا الانسجام الكامن فى حياتهم الشخصية كما تفقد الكرات

موازنتها الطبيعية وهووا الى الحضيض فالدمار

وقد كانت بغداد ، تلك المدينة الاسلامية الزاهية الزاهرة وعاصمة الخلافة وركنها الركين ، هدفاً لهذا القانون ، فتمشت مع تياره . ولم تستطع ثباتاً أمام سلطانه . وصلت الى أوج العز ومنتهى الكمال ثم تدهورت الى مهاوى الانحطاط ومنحدرات السقوط كغيرها من الامم السالفة والممالك البائدة

قامت بغداد هذه فى العصر الثانى للهجرة تمثالا حياً لمدنية الاسلام وبرهانا ناطقاً على أن هذا الدين المبين من أكبر العوامل على الرقى والفلاح . وما كاد ينقضى عام ونصف على تأسيسها حتى انتشر العمران في خراباتها وسرى نور العلم والعرفان فى عرصاتها ، يخطف الابصار ببريقه الوضاء ثم تبدل فقر الاهالى واملاقهم الى الغنى والرفاهة وبسطة الرزق وسهولة العيش . وفى ذلك ادلال على اعجاز هذا الدين وتنبيه الى جلاله وعظمة شأنه ، فطوبى للامم التى تصل مواطن العز ودرجات الاقبال من طريق تنظيم حياتها وفقاً لاوامر الدين ، وطوبى لاولئك الذين يصلون تلك المرتبة العالية من طريق العمل بالامر النبوى الجليل : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثانى

لما صار الملك الى العباسيين واستقر نصاب الخلافة فيهم بتدبير السفاح ، وبمعونة الايرانيين اتباعه وأشياعه ، نقل عاصمة الملك ومقر الخلافة من دمشق الى (الكوفة) ليكون قريباً من رجاله وحزبه غير أنه لم يجد فيها ما كان يطلبه من الراحة والطمأنينة فغادرها الى (الانبار) على شاطئ الفرات ومكث فيها الى آخر أيامه وفيها انتقل الملك الى ابنه المنصور . وكان مضطلعاً بالامر قوي الشكيمة ، حازماً متدبراً فتخوف من أبى مسلم الخراسانى ، ذلك القائد العظيم الذى ارتفعت دولة أبيه على أكتافه وتمت له الكلمة بهمته وفضله ، فدبر له مكيدة أودت بحياته . ثم ابتنى مدينة (الزوراء) على نهر دجلة من العراق ليكون بنجوة عن شغب أهل الكوفة ممن يكيدون للدولة ويقومون بمناصرة آل على ، والدولة اذ ذاك فى ميعة شبابها وأبان نشأتها وسماها (بغداد) أو دار السلام . وكانت تنقسم الى قسمين أحدهما يدعى (الرصافة) وفيه قصر الخلافة والى جانبه قصور الامراء من أقارب الملك وذوى رحمه ثم يتلو ذلك قصور الاشراف وسراة بغداد . والثاني وبه بيوت الباعة وأخلاط الناس ودور الصناعة والاسواق ويكتنفها سوران عظيمان يزيدانها

منعة وقوة وبذلك أصبحت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن وأصبح الخليفة فى أمن ودعة ، قرير العين ناعم البال فى قصره المحاط بتلك الاسوار المنيعة . ثم بنى خارج هذا الحصن المحكم قصر (الخلد) الشهير . وظلت تلك القصور الذهبية الفخمة حتي أيام الرشيد فكان يقضى أكثر أوقاته بها . وفى أيامه صارت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن . ثم حذا من جاء بعده من الخلفاء حذوه فكانوا يأخذون مغارم الحروب من كتب اليونان وعند ما ارتفع شأن الدولة ارتفع معها شأن العلوم والمعارف فى بغداد وبدأ يؤمها العلماء والحكماء على اختلاف طبقاتهم ، وينزحون اليها من أقاصى البلدان على بعد المشقة رغبة فى العطايا وأملا فى المنوال ولم يكن الخلفاء ليغفلوا أمر ذلك بل أجلوا العلماء وعرفوا لهم أقدارهم من الكرامة وأحلوهم أسمى الدرجات وأعلى المراتب . وأسال الرشيد عليهم الذهب النضار وأوسع لهم العطاء ، فتمشى العمران على جانبي الدجلة شرقا وغربا بالابنية البديعة والقصور الانيقة المحاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزهراء حتي أصبحت الدجلة كالحوض البديع يخترقها بغداد وما يليها من الضواحي والمنتزهات كأنها المرآة الصافية يحف بها اطار شتى النماء والالوان .

نزل علماء الصين والهند على الرحب والسعة في مدينة السلام وطاب لهم فيها السعي والكد وان هي الا فترة من الزمن

حتى امتلأت بأفاضل أهل الادب وأعاظم رجال العلم وأكابر أصحاب القول في الفنون والصناعات من العرب والعجم والترك والكرد والديلم والكرج والروم والارمن [١] ثم تعددت بها المدارس والجامعات وتنوعت لديها دور الكتب والمستشفيات وأقيمت بها المراصد والمصانع وغيرها من مؤسسات العمران واشتغل أهلها بنقل كتب الفلسفة اليونانية الى العربية فبرعوا فى علوم المنطق والرياضيات والطبيعيات والالهيات ورسخت ملكات تلك العلوم فالفوا فيها وأصلحوا مااستبانوا خطأه فى مسائلها وأضافوا اليها أبوابا أصابوا الرأى فيها .

سقياً لتلك الازمان والعهود التى كان الغرب ينهل فيها من موارد الشرق . فى بغداد عظم شأن الفلك وفيها تقدم علم الكيمياء . وفي ذلك العهد الزاهر تدرجت الفصاحة والبلاغة وأساليب القول فى الخطب والانشاء الى أسمى المراتب فاستنارت العقول ورقت الطباع والمشاعر وتنافس الخلق فى ضروب البهرجة والزينة وأنواع الرفاهة وأصبح التظرف والتجمل ودقة الصناعة ديدن كل انسان وشعاره ، فسالت أنهر الدنانير وتغالى الناس فى اقتناء الجوهرات وأوانى الزينة من الفضة والذهب بكثرة لا تقع تحت حصر ولا قياس الى حد أن ضاعت قيمتها الاصلية

---

(١) المسعودى

وكانت العطايا والجوائز من الزمرد والياقوت والفيروز وغيرها من النفائس تنهال على الشعراء والادباء والحكماء كالسيول الدافقة بلا عدد أو حساب اذ كان الشاعر أو النديم أو العالم يأخذ مايتمناه من سامعيه اذا أجاد القول أو أحكم الشعر فى قولة يقولها أو حكمة يفسرها ولهم فى ذلك قصص متواترة تتناقلها الالسن جيلا بعد جيل . وكذلك الغناء كان له شأن يذكر حتى وصل الى ماوراء الغاية فى تشعب طرقه وكثرة مذاهبه وتفنن الناس فيه استدراراً للرزق وطلباً للحظوة لدى الامراء والكبراء ، فنبغ فيه كثيرون نقل التاريخ الينا اسماءهم دون الحانهم ومجهوداتهم التى بقيت للاسف كالالغاز التى لايتوصل المرء الى حلها .

فى هذه الايام السعيدة المبهجة من العصر الثانى للهجرة النبوية ولدت بطلة من بطلات الاسلام زادت نور عصرها اشراقا ، هى زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور ، منشىء بغداد .

الفصل الثالث

على مقربة من الموصل قصر جميل بناه المنصور وسماه (قصر الحرب) ثم وهبه الى ابنه جعفر عند ماعينه والياً على الموصل. فى هذا القصر، ولدت زبيدة وفيه مات أبوها جعفر بعد ولادتها بثلاثة أعوام.

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية فكانت مهبط الحب وموطن العناية والتجلة والاعزاز من قلوب بني العباس، لاسيما جدها المنصور، ركن الدولة العباسية ومقرها الاشراف وعميدها الاجل، فقد كان يؤثرها بقلبه ويختصها بحب فوق كل حب وهو الذى لقبها بزبيدة لما رأى من بضاضتها ونعومتها فغلب عليها هذا اللقب وصارت تسمى به دون اسمها الحقيقى. وقد قام جدها بتربيتها فأحسن أدبها وتربيتها فعلمها القراءة والكتابة ورواها الشعر وحفظها الاخبار والسير فشبت كلفة بالشعر (١) والهة

(١) ومن شعرها في رثاء ولدها الامين.

أودى بالغيد من لم يترك الناسا | فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له | أصبن منه سواد القلب والراسا
قيت مكتئباً أرعي النجوم له | أخال سنته بالليل قرطاسا
رزئته حين باهيت الرجال به | وقد بنيت به للدهر آساسا

بالادب حتي كانت تزين حوائط غرفتها بالستائر الموشاة بالنظم البديع والابيات الموثقة .

كانت ذات ملامح جذابة وجمال خاص بنساء عصرها فاشتهر عنها الادب والكمال والجمال مع علو النسب حتى صار يضرب بها المثل فى الانديه العالية والمجامع الراقية وقد ظهر من اعزازها والمغالاة بشأنها يوم أن زفت على ابن عمها الرشيد فقد عقد له عليها عام ١٦٥ هجرية وهى في السابعة عشرة من عمرها وتمت حفلة قرانها بأبهة خارقة للعادة لا يسع له مجال الخيال فكانت من أبدع الحوادث التى يرويها التاريخ[1] بأسهاب وأطناب يقصر دونهما كل قول ووصف وقد نالت تلك الحادثة استحسان جمهور المسلمين المنتشرين فى أصقاع العالم ووقعت من نفوس كبرائهم وأمرائهم موقع الاستحسان فتهافتوا على هذه الحفيدة الهاشمية بأنواع الهدايا وضروب الجوهرات وصفوف الطيب وأدوات الزينة استجلاباً لرضاها ورغبة فى حظوتها .

ولقد ألقى عليها في حفلة زفافها من غوالى اللآلئ ماأثقل سيرها وعاق مشيها ولقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقها على البسط

فليس من مات مردوداً لنا أبداً حتى يرد علينا قبله ناسا

(١) قاموس الاعلام

الموشية بأسلاك الذهب وهى تتهادى فى الثياب المزحرفة التي بالغوا فى تطريزها وتزيينها بأنواع الجواهر التي يعجز المرء عن تقديرها أو تقويم قيمتها .

كان الزفاف فى قصر الخلد المطل على مناظر الدجلة البديعة . وفى وسط تلك المناظر الخلابة ، تمتعا بأشهر الغرام وأوقات السعادة وما كاد يمضى على زواجها أربعة أعوام حتى ولدت له محمد الامين ثم بعد ذلك بعام واحد أى سنة ١٧٠ هجرية تقلد الرشيد زمام الخلافة بعد أخيه موسى وهو فى العشرين من عمره .



الفصل الرابع

كانت الاميرة زبيدة وسيمة الوجه، طويلة القد، بضة الجسم، بيضاء اللون، بعينين براقتين وفم صغير (١)، فخورة بأصلها وحسبها، تعتز كثيراً بانتسابها الى الدوحة الهاشمية، وفى حالها وطورها ما يشعر بالهيبة الممزوجة بالوقار، وبالعظمة التى تنحنى لها الرؤوس طوعا لا كرهاً (٢)

لقد كانت على ما وصفنا، لأنها كوكب السحر فى سماء العظائم، ولانها حفيدة خليفة وزوج خليفة. فكيف لا تباهى ولا تعتز؟ ومن تكون من نساء عصرها أجدر بالفخر والسؤدد؟

أما وفور فضلها ونبل خليقتها وصفاء قريحتها فما سار مسار الأمثال. ومن أجل هذه المزايا التى قل أن تتوفر فى امرأة أخرى تربعت على عرش عصرها المشعشع وقبضت بيدها على صولجان زمنها الزاهر

وكان لباسها المعتاد جلباباً شاملا الى الارض، وعلى هذا الجلباب وشاح يزينه نطاق مرصع بالجواهر، تشده بين عاتقيها وخصرها. وكانت تتجافى عن التحلى بالاحجار الكريمة والجواهر النفيسة ترفعاً وأنفة ورغبة فى التميز عن عامة الناس. فما كنت ترى

(١) كتاب الفرج بعد الشدة (٢) زيدان

في أصبعها خاتماً ولا في معصمها سواراً ولا في جيدها قلادة وانما كانت نسيج وحدها فى لباسها وزينتها ولهذه الخصلة المتغلبة على نفسها كانت تزين بتلك اللآلئ النفيسة التي تضن بها على أى قسم من أقسام جسمها أحذيتها ونعالها المرصعة المقصبة بخيوط الذهب . وقد سألها ابنها المحبوب محمد الامين عن ذلك ذات مرة . فأجابته بوقار وشمم :

« أفعل ذلك لانني لا أريد التشبه بغيري من النساء » (١)

أجل لقد كانت تنفر من التقليد والمحاكاة نفوراً شديداً وهذا النفور حدا بها الى ادخال تعديل كبير فى عصابة الرأس التى ابتدعتها العباسة أخت زوجها الرشيد . فما كانت تضع شيئاً من اللآلىء والجواهر فى عصابتها كما كانت تضع نساء زمنها وانما تضع قطعة من النسيج الاسود الرقيق ، بلا ترصيع ولا تطريز ، تزيد من هيبتها وتكسبها كثيراً من الروعة والجلال .

تكاد زبيدة تكون المرأة الاسلامية الاولى فى استعمال أواني الفضة والذهب والاكثار من اقتنائها كما كانت نموذجا لغيرها فى اقتناء الملابس الحريرية والتأنق في صناعتها ويروى التاريخ أن ثوبا من ثيابها بلغت تكاليفه خمسين الف دينار . وبالغت كذلك فى تزيين نعالها وقباقيبها حتى كانت تجعلها من الفضة والابنوس

---

(١) زيدان

وخشب الصندل وتصنع سروجها من القصب وسلوك الذهب . أما نسيج ثيابها فمن السمور والاطلس وضروب شتى من الاقمشة وكان يعجبها من الألوان الاحمر والاصفر والاخضر والازرق (١)

تركت بعد زواجها قصر الخلد وانتقلت الى قصرها الخاص المسمى بدار القرار على شاطيء الدجلة البديع وكان مقطوع النظير فى زمانه تحيط به حديقة غناء ، تجلب الانظار بزهورها وخمائلها وأشجارها المثمرة الزاهرة . أما داخل القصر فكان لا يقل بهاء عن خارجه، اذ كان مفروشاً بذوق خاص وبأثاث منتخب وغرفه وردهاته مزدانة كل منها بزينة تغاير لما فى الاخرى .

الزينة، والابهة فى الرياش والاثاث، من أحب الاشياء الى زبيدة . فجلبت الى قصرها أبدع ما أثمرته العقول وأجمل ما أنضجته الأيدي فغدت غرفه آية الآيات ومعجزة المعجزات، ومن بين تلك الغرف، القاعة الكبرى التي كانت تتلاقى فيها مع ابنها المحبوب محمد الأمين وقد كانت مبنيـة على الطراز الارمنى ذات الرياش المجلوبة رأساً من بلاد الكرج . ففى أركانها الزرابي والحشايا والارائك والوشائز ، مبثوثة فوق بساط ثمين كبيرا الحجم من صنع العجم ، منقوش عليـه صور الطيور وأنواع الوحوش والصيادين من ملوك الفرس حولها، على أهبة الصيد والنقص (٢)

(١) المسعودى (٢) زيدان

وفي أطراف البساط أبيات حكمية وأشعار رائقة تأخذ بمجامع القلب وقد كانت قبة القاعة من خشب الصندل وتتدلى منها قطع القماش من الحرير والنجود المنمقة ذات الصور والاشكال، مشدودة على الجدران بحيث تغطيها وفي كل زاوية من زوايا القاعة شمعدانات من الذهب الخاص توقد فيها شموع العنبر، وقد كانت هذه الشموع المعنبرة من أنواع الزينة التي اختصت بها زبيدة في ذلك العهد الزاهر وكان ينصب لها وسط القاعة مقعد نفيس الصنع من الأبنوس المطعم بزخارف الذهب وفوقه الحشايا الرقيقة من ريش النعام المطرزة بسلوك الذهب (١)

ومنذ أيام هذه الاميرة العظيمة، المغرمة بأنواع الزينة الكلفة بضروب البهرجة، (٢) اشتهر الشرق بأنه معرض النفائس وطار صيته في الآفاق. أجل ان انوار الشرق الساطعة في تلك الايام بهرت أعين أهل الغرب. اما اليوم فاننا مع الاسف نأخذ انماط الزينه ونماذج البهرجة من الغرب فنهنئ انفسنا اذا ما أجادت احدانا محاكاة الغرب وتقليد أنماط الزينة المعمول بها عند أهله.

وكان سكان دار القرار لا يقلون شهرة عن شهرة القصر نفسه أفقد كانت جواري زبيدة من نخبة الجواري في عصرها، من ذوات الجمال والمعرفة بالقراءة والكتابة وانشاد الشعر وبينهن

(١) المسعودي (٢) زيدان

مائة جارية اشتهرن بحفظ القرآن وتلاوته ليل نهار . وكانت زبيدة المتمسكة باهداب الدين ، يعجبها كثيراً سماع آيات القرآن المبين من جواريها الحافظات ، وقد اشتهر أمر هؤلاء ، وطار صيتهن في الاصقاع . ففي كتب التاريخ أن المار بجانب دار القرار يسمع أصوات ترتيلهن كطنين النحل عندما تكون على مقربة من خلاياها .

وكان لها من قلب الرشيد حمى لا يرام اذ امتلكت ربة القول في قلبه وقصره (١) رغم المنافسات من جواريه المديدات ، لوفور عقلها ونبل صفاتها ومزاياها التي انفردت بها دون سواها من نسائه فكان لا يسمى لامر دون مشورتها ولا يمضي في عمل دون رأيها وبالاجمال كان مفتونا بنفاذ لبها ونبل خليقتها وعظمة قلبها .

كانت زبيدة من ذوات البر والاحسان . وخيراتها كثيرة جمة تجعلها من أمهات المحسنين في الاسلام وكما كانت اياديها عظيمة ومبراتها جمة كذلك كانت اموالها واملاكها وفيرة لا تقع تحت حصر او قياس ، حتى تحدثوا عن مزارعها وضياعها في بلاد العجم فضلا عن البلدان العربية . فكما كانت ظاهرة ممتازة في أكثر شؤونها وأطوارها كذلك كانت في غناها وثرائها

انشأت كثيراً من المدارس والمستشفيات وامرت بتأسيس الملاجئ وحفر الآبار والعيون فكنت ترى أثرها في كل مرافق

البر التي رفعت من صيتها فى الافاق .

***

كانت تكنى (ام جعفر) ولكن التاريخ يكاد لا يذكر اسم ابيها كثيراً وانما محور سيرتها يدور مع حوادث الامين ووقائعه وفي ذلك ما يملأ الصحائف وتفيض من دونه المجلدات. وابنها المحبوب هذا كان نقطة الضعف فى تلك الحياة العظيمة المملوءة بالحسنات.

كان ذلك الأمير الخليع المائق الذي لا يستحق شرف الولاية قد ملأ قلبها وغمر كل عاطفة من عواطفها فكان تماديها فى محبته وايثاره على كل امر آخر مهما عظم أو صغر هنة لا يغفرها التاريخ

ان التاريخ ليصب جام غضبه وسخطه على ذلك الحب الوفير الذى خصت به ابنها الامين ، لقد طغا ذلك الحب وجاش فتغلب على كل عاطفة أخرى وتعسف الى حد الاضرار بالمصلحة العامة .

كانت تعادى كل من ينظر الى مساوئ ابنها المحبوب نظرة اللوم ، وتغضب من كل انسان لا يغض الطرف عن هفوات ذلك الطائش . ان حب الامومة القى حجابا كثيفا بينها وبين عاطفة الانصاف الى حد الكمال عن كل عيب للامين والعداوة الى كل انسان ينقل اليها لوماً فى حقه .

كان الذين يفضلون المأمون على الامين — فى نظرها — مجرمين

لا يمكن الصفح عنهم وكان جعفر البرمكي من هؤلاء المجرمين الذين لا يمكن التسامح في حقهم. لماذا؟ لانه كان من أجرأ الناس على نشر مساويء الامين واذاعة نقائصه، فأصبح من جراء ذلك هدفاً لسهام غضبها، تكن له الحقد في سويداء قلبها.

انما كان كرهها لجعفر وسعيها في اسقاط منزلته حباً في ابنها الامين وكان جعفر يرى ان الامين لا يصلح للولاية فلم يخش من مجابهة أمه بهذه الحقيقة. أغضبها ذلك التصريح فأشهرت عليه منذ ذلك اليوم حرباً عواناً وقصرت كل همها على اسقاط منزلته من نفس الرشيد فكانت لا تعترف بمزية لجعفر، وترى فيه عدواً يجب سحقه ومحاربته. وقد نمت هذه العاطفة في نفسها الى أن تمكنت منها وبدأت تتشوق الى الانتقام منه وارواء غليلها بنكبته.

لقد نكب البرامكة لأجل الامين وكانت زبيدة من أهم الايدي العاملة على حياكة وتدبير تلك النكبة المفجعة ومن جراء ذلك يحملها التاريخ أكبر تبعة في هذه الحادثة الاسيفة.

لو أن زبيدة امرأة ذات عقل متوسط وذكاء عادي، لو أنها امرأة مجردة عن صبغة العلم ومزية الادراك، لالتمسنا لها المعاذير والمبررات في عاطفة الامومة التي تغلبت عليها ولكن امرأة كزبيدة ذات عقل وافر، ولب نافذ، وشخصية بارزة. لا يمكن الصفح عن تماديها في تلك العاطفة الى حد الاجرام وانتاج تلك المذبحة،

التي سودت صحائف بني العباس ، لان حادثة العباسة انما جاءت ضغثا على ابالة وكانت بمثابة القطرة الاخيرة للكأس الطافح ومن أجل ذلك كانت تلك المذبح وصمة سودت تلك الصحائف البيضاء من حياة زبيدة .

لو أن الامين من الابناء الجديرين بتلك المحبة والشفقة لكان هناك مجال للصفح عنها الى حد ما ، أما وهو خليع مائق معربد جليس الكأس والطاس فليس ثمت سبيل الى تبرير تماديها في عاطفة الامومة .

كيف ضحت زبيدة الكاملة المهذبة رجلا كجعفر في سبيل رجل كابنها الامين ؟

هذا اللغز الغريب من المظاهر الموجهة للأقدار ومن المحال أن يصل المرء الى حله . ووجه التسلية في هذه الحادثة هو الاعتقاد بأن يد الاقدار هي التي حكمت على حياة جعفر الطيبة بتلك الخاتمة المفجعة .

الظلم والجور يحركان مشاعر التمرد في النفس ولكن ماذا عسانا أن نعمل واللاانسانية المملولة حد من الكمال لا نستطيع أن نتعداه . انسعى في سبيل التكامل ولنبذل قصارى الجهد ولكننا لانصل الى ما نريد مهما أجهدنا أنفسنا لانه ليس للبشرية أن تصل الى ذلك .

الفصل الخامس

فى العام السادس والثمانين بعد المائة من الهجرة، حج الرشيد مع امرأته زبيدة (١) . وكان فى رفاقته خلق كثير من الاعوان والامراء، من بينهم ولداه الامين والمأمون ووزيره جعفر بن يحيي البرمكى .

وقد أظهرت الاميرة أثناء حجها هذا، من المبرات والحسنات مالا يدع لقائل قولا ، ولا لمفتخر سبيلا ، مما ابتنته فى طريق مكة من مساجد ومكاتب وملاجيء ومنازل ومشارب . فكل ذلك ألسنة تنطق بخيرها العميم أبد الدهر ومدى العمر وماكان ذلك كله اذا قيس بمفخرتها الخالدة (عين زبيدة) شيئا مذكوراً. قد احتملت هذه العين ماء الحياة سائغة ، هنية الى أم القرى ، الى متجه ابصار المسلمين ومعقد آمال الموحدين . وبتلك العين التى احتفرتها فى صحارى الحجاز الجرداء وفرت العناء واحتمال ضروب المشقات عن مئات الالوف من حجاج بيت الله الحرام الذين كانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم ويوقر ظهورهم فلو فنى ذكرها من جميع الامصار وتناسى الناس صيتها فى جميع الاقطار فسوف يبقى اسمها خالداً خافق اللواء الى ما شاء الله فى ذلك الوادي

(١) الامير على

المقدس ، مناط وحدة المسلمين .

وقد كلف حفر اثنى عشر كيلومترا من هذه العين الجارية التى يعد مشروعها نفحة من نفحات السماء ، مليونا وسبعمائة الف دينار « ١ »

ومن غرائب آثارها فى مكة قصر من البلور أنشأته فى نفس مكة المكرمة يعد أية الآيات في بابه

هذه الرحلة الحجازية من أهم الوقائع خطراً فى حوادث عام ١٨٦ هجرية لأنها كانت مبدأ سقوط جعفر من عز اقباله وأوج سعوده الى حضيض الادبار .

كان جعفر البرمكي، صاحب المكانة السامية فى نفس الرشيد اذ ذاك ، وكان لايفارق مولاه لحظة واحدة أثناء تلك الرحلة وكان الخليفة يعتمد كثيرا على وزيره الصادق الامين ولايبرم أمراً دون استشارته ، وكل هذه الحالات كانت زبيدة تنظر اليها نظرة الحقد والاشمئزاز

كان جعفر يحب المأمون كثيرا اذ كان صبيا محبوبا نشأ فى حجر البرامكة وتأدب بأرشاد جعفر وتعاليمه فغدا أميراً فاضلا مهذبا نافذ اللب واسع الفهم [٢] وكان محبوبا من عامة الشعب

---

(١) كل التواريخ متفقة فى هذا التقدير

(٢) الامير على

لاتصافه بهذه المزايا التي يتصف الامين بعكسها ، فكان أخوه ينفس عليه ذلك أما زبيدة فكانت لاتحتمل هذا التفوق ولا تظهر مايدل على اغبرارها مع أنها لاتفتأ تبحث عن الوسائل التى تقضى على هذه الحالة التى تضرم فى نفسها نيران الغيظ والحقد.

أجل كانت تجتهد فى اخفاء مايساورها من عوامل الكين اكراما لزوجها الرشيد ولكن جعفراً لايتمالك من اظهار تقديره واعجابه بربيبه المأمون علناً أثناء هذه الرحلة ففاض اناء حقدها الكامن في نفسها وبدأت تفكر فى الوسائل المؤدية الى القضاء على جعفر.

كان الرشيد وهو فى مكة المكرمة قد كتب وصيته وبايع للامين بولاية العهد وللمأمون بعده وكتب الكتب بذلك وأشهد فيها الشهود وأرسل نسخها الى الامصار وعلقت نسخة من تلك النسخ على الكعبة توكيدا لها وقبل تعليقها جمع من فى معيته من العلماء والفضلاء والوزراء . وعقد منهم مجلسا كبيراً للشورى وأحضر فيه زبيدة والامين والمأمون وجعفر ، وقرأ عليهم وصيته تأكيدا لها ، وعندما حلف الامين والمأمون يمين الطاعة أمام أبيهما ، قال جعفر للامين عقب يمينه قل معى : (اذا خنت الامانة فليقهرنى الله) فكررها الامين ثلاث مرات وكانت زبيدة تنظر الى جعفر بعين الحقد وتحدجه بنظرات ملؤها الغيظ والغضب(١)

---

(١) الفخرى

هذه المعاملة المعنوية التى استعملها جعفر مع الامين، جرأة كبيرة ، تدعو الى غضب زبيدة وحقدها ولكن جعفراً ، ذلك الوزير الامين كان يفكر في سلامة المملكة ويضع نصب عينيه المصلحة العامة فلم يبدأ من المضى مع وحي الوجدان والهام الضمير . لم يخش من قولة الحق ولم يلتمس سبيلا الى انقاذ حياته من الاستهداف لغضب رقيب عتيد كزبيدة ..

تملك الغضب زبيدة وارتعشت من الحدة أمام ذلك المنظر وقررت منذ ذلك الوقت أن تقضى على جعفر ولقد تمكنت من أن تبر بقسمها الذى أقسمته أمام هيكل نفسها بعد مرور عام واحد على تلك الحادثة ففي عام ١٨٧ للهجرة قتل جعفر بن يحيى، ذلك الوزير الفذ، على يد مسرور الجلاد (١) وذهب ضحية عاطفة الأمومة التى جاشت فى نفس زبيدة ، وفريسة غرور الامين واعتسافه .

فتش عن المرأة فى كل حادثة : قتل جعفر فتعين الفضل ربيب نعمتها ومحبوب ولدها بدله وقد كان لها أكبر يد في هذا التعيين ، . بعد ذلك بستة أعوام مات الرشيد بطوس (٢) ودفن فيه وملك بعده ابنه الامين عام ١٩٣ هجريه .

---

(١) زيدان (٢) الامير على

الفصل السادس

لما مات الرشيد بطوس، كان المأمون في مدينة (مرو) والياً على خراسان ، وكان الامين ببغداد وزبيدة بالرقة ، فانتشر نعي الخليفة بسرعة البرق وسعى صالح بن هارون الى الامين بخاتم الخلافة وسيف أبيه وكسوته الخاصة ، مبايعاً له حسب التقاليد والعادات (١) وكان الامين قد انتقل من قصر الخلد الى دار الخلافة . ولما كان من الغد صلى مع الشعب في المسجد جماعة وأعقب صلاته بخطبة وجهها الى الخلق والجند والوزراء فبايعوه بالخلافة عند انتهاء خطبته حسب العادة الجارية ، وكان المأمون في خراسان فلم يتمكن من مبايعته بشخصه، وانما اكتفى بارسال الهدايا وتقديم التهاني التي تقوم مقام البيعة .

أما زبيدة فقد طاب لها المقام في الرقة ولم تشأ أن تحضر الى بغداد ولكن ابنها الخليفة ألح عليها بالحضور والتمس منها ذلك بكل وسيلة ، لم تر بداً من الاجابة الى دعوة ولدها المحبوب ، فتوجهت الى العاصمة في شهر شعبان المعظم ، وقام ابنها حتي مدينة الانبار يستقبلها ، باحتفال مهيب ، احتشد فيه خلق كثير ، وكانت الاعلام المتاوجة والزينات المختلفة وابتهاج الشعب ونشاطه

(١) الامير على

العظيم يلقى على مدينة الانبار ثيابا من الروعة ضافياً وجلبابا من الجلال شاملا

لقد كان لوصول زبيدة أثر من العظمة الخالدة التى لا يمكن نسيانها ، ولتلك المواكب الفخمة روعة دائمة الذكر في صحائف التاريخ . بمثل هذا الاحتشام تقدم موكب الأمين ومن ورائه الوزراء والامراء والاعيان ثم صنوف الخلق لملاقاة زبيدة القادمة الى عاصمة الملك وقصر الخلافة

هنا أخذ الخيال بيدى الى منظر آخر فى صفحات التاريخ ، الى صورة بارزة للجلال والاحتشام ، الى موكب اجتماع ملكة سبأ ، بسيدنا سليمان عليه السلام ودخولها فلسطين تحف بها آيات الاحتشام ومظاهر الجلال والكمال .

بين هذين الموكبين مشابهة ومحاكاة ، فيالله من بهجتهما واشراقهما ! . . وأى جمال للغرب يضاهى جمال هذا الاشراق الذى يستمد بهجته من ألوان الشرق ؟ . .

وصل موكب زبيـدة بين الهتاف المتواصل وأصوات التهليل ومظاهر التبجيل والتقدير الى بغداد . ووقف أمام قصر الخلافة بالحاح الامين ورجائه المتواصل وهنا ألقت عصاها واستقر بها النوي

***

كان المأمون أثناء ذلك فى خراسان لا يستطيع تركها لما كانت عليه من الفتن والدسائس، فكانت الاحوال تحتم عليه البقاء فى خراسان وتأخير الشخوص الى بغداد

كان الرشيد على علم تام باخلاق ولديه الأمين والمأمون وبصفات ومزايا كل واحد منهما وقد كان تعيين الامين لولاية العهد مراعاة لخاطر زبيدة أما المأمون فقد كان يقدره حق قدره لشخصيته الفذة ومزاياه النادرة ولهذا السبب وجه اليه ولاية خراسان ، فأظهر حسن السيرة والورع حتى استمال القواد وأهل البلاد وكان فاضلا أديبا يميل الى اتقان العلوم والفنون ، ذا اطلاع واسع وأهلية تامة في تفسير القرآن وفي الحديث الشريف (١)

وقد كانت له ملكة عظيمة ودراية كبيرة في مسائل الفقه والتشريع حتى فاق أمراء زمانه وأصبح بينهم علما يعتد برأيه وفضله

كان الرشيد ثاقب الفكر بعيد النظر فتوقع ماقد يفعله الامين من التهوس وسوء القصد بأخيه فأوصى قبل موته بجميع مافى المعسكر للمأمون ، وكان الفضل بن الربيع ، ربيب نعمة الامين ، خليفة جعفر بن يحيى على منصب الوزارة بغير جدارة ، يعلم مقدار هذا المعسكر وما دق وجل من شئونه رجاله

---

(١) الامير على

وأحوله (١)

وعندما انتقل الرشيد الى جوار ربه ، وولى ابنه الامين شئون الخلافة من بعده ، زرع الفضل بذور الفساد والتمرد بين أفراد الجيش ثم روج بينهم الدعوة الى نكث أيمانهم ومواثيقهم للرشيد بأن يكونوا فى أمرة المأمون ، حتى مالوا معه وقفل بهم الى بغداد ، ومعهم جميع مافى المعسكر من مال وذخيرة ، وعندما وصل وزير الامين وربيب نعمته الى عاصمة الخلافة قابله الخليفه بالحفاوة والاكرام وأغرقه بالصلات والهبات ، ثم وزع على الجنود الخائنة ضعفى مرتباتهم تطييباً لخواطرهم ،

أما المأمون فقد وجد نفسه بلا جيش بلا مال ، فعمل على استمالة قلوب الشعب واكتساب رضى الناس وجمع رؤساء خراسان وأكابرها حوله وبدأ يدبر شئونه بمعونتهم وخفض الضرائب وسار فى الرعية سيرة العدالة والمروءة ، ولم يجابه مع ذلك أخاه بالعدوان أو يقابله بالاساءة انما كان فى أحواله وأطواره أميراً عادلا يصدر عن روية ويورد عن انصاف وتدبر .

وبينما كان المأمون فى خراسان على هذا النحو من التدبر والتعقل وحسن السيرة ، يجمع حوله أمراء أبيه المحنكين وشيوخ الدولة المدربين ، ليستعين بثاقب افكارهم وناضج آرائهم ، كان الأمين ببغداد منهمكا في اللذات وشرب الخمر ،

حتى أرسل الى جميع البلاد في طلب الملهين وضمهم اليه وأجرى عليهم الارزاق ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه وفي الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الاسد وعلى صورة الفيل وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس (١) يتنقل من واحدة الى أخرى ، عاكفاً على تمضية الوقت بين الغناء والمنادمة ، وقد كان لراقصاته صيت ذائع وكن مائة قد انتخبهن من أمصار مختلفة ، تجيد الواحدة منهن ضروبا من الرقص وفنونا من الحركات التي تدهش الابصار وقد صرف عليهن مبالغ جسيمة إذ كن في أبهى لباس وأثمن حلية يبهرن النواظر وهن يرقصن بأغصان النخل في أيديهن وكلما اشتد اعجاب الناظرين ازداد غروره وتمادي في غيه والاعتداد بما صنفه من مظاهر العز والترف في تلك الفترة الرهيبة كان أعداء الاسلام يراقبون الاحوال بعين اليقظة ، منتظرين الفرصة السانحة التي تبدو لهم من خلال غفلته

---

(١) وفي قول أبو نواس

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً ... سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذ رأوك عليه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين ... تشق العباب بعد العباب

وانهماكه في اللذات وقد انفرجت لهم ثلمة الفرصة في خلال هذه الفترة وبدأوا يرفعون ألوية العصيان ويتحركون بعد السكون والجمود والامين لاه ساه كأنه فى نوم عميق يبدد أموال الدولة فى سبيل لذاته وشهواته بدل أن ينظر فى شئون حكومته ويعمل على سد حاجاتها المادية والمعنوية

أما الفضل بن الربيع ، وزيره الامين فقد خاف العواقب وكان كلما افتكر فيما فعله مع المأمون من نكث عهد الرشيد ووصيته بطوس ، ارتعدت فرائصه فرقاً وقد وضع نصب عينيه أن ولاية المأمون للخلافة انعاجلا أوآجلامعناها موته والقضاء عليه لان المأمون لايتركله هذه الخيانة دون عقاب صارم فلم يطق احتمالا لهذه الفكرة التى كانت تقلق خاطره ليل نهار وتنفي النوم من عينه ، فحسن للامين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى فلم يوافقه أولا ورأى الفضل أن أماله كادت تخيب فألح عليه فى هذا الرأى وأشرك معه شريك النفاق والرياء ، على بن عيسى ، فروجا هذه الفكرة وحسناها للامين ومازالا به حتى مال الى أقوالهما وشرع فى خداع المأمون باستدعائه الى بغداد ، فلم ينخدع وأدرك مافي ذلك من المخاطر والبوار ان هو ترك خراسان ، فكتب يعتذر وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما ونهض الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس ، وضبط له

الثغور والامور ، واشتدت العداوة بين الأخوين : الأمين والمأمون ، وقطعت الدروب بينهما من بغداد الى خراسان وفتشت الكتب وصعب الامر ، وقطع الأمين خطبة المأمون ببغداد وقبض على وكلائه ، ثم خلعه وولى بدله ابنه موسى ولياً للعهد بلقب (الناطق بالحق) وأحضر كذلك وصية أبيه من مكة المكرمة ومزقها إربا .

على هذا المنوال نما الشر بين الاثنين وقضى على مشروع الرشيد ولم يبق من آثاره سوى ما كان له من حسن النية .

لقد حنث الامين بيمين قطعه على نفسه ونكث عهداً عاهد به أباه ولم يعبأ بتلك الوصية التى تحرمت بتعليقها على جدران بيت الله الحرام .

لم يندم الامين على مافعل ، ولم يخجل عند ما ارتكب تلك الفعلة الشنيعة فلا بدع ولا عجب لأنه شب منذ الصغر ، صغير النفس وضيع الهمة لا يقدر لشرف الوعود والايمان قدراً .

لذلك رأينا المأمون يستعد ، وكان بقدر ما عنده من التيقظ والتبصر والضبط ، بقدر ماعند الأمين من الاهمال والتفريط والغفلة ، وقد بلغ من تفريطه أنه أرسل الى حرب أخيه رجلا من أصحاب أبيه يقال له على بن عيسى بن ماهان فى خمسين ألفاً ويقال أنه مارئي قبل ذلك ببغداد عسكر أكثف منه ، وكان

معه السلاح الكثير والاموال الوفيرة وخرج معه الامين مشيعا مودعا ، وكان أول بعث بعثه الى أخيه ، فضى على بن عيسى بن ماهان فى ذلك المعسكر الكثيف وكان شيخاً من شيوخ الدولة ، فالتقى بطاهر بن الحسين قائد عساكر المأمون بظاهر مدينة (الرى) وكان عسكر طاهر حدود أربعة آلاف فارس فاقتتلوا قتالا شديداً فكانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى وجئ برأسه الى طاهر .

وأرسل طاهر الى المأمون يبشره بذلك الفوز وأرسل البشرى مع رجل من رجال البريد فوصلت الى المأمون فى ثلاثة أيام وبينهما مسيرة مائتين وخمسين فرسخا

ومن الغريب أن الطاهر فى كتابه الذى بشر به بذلك الظفر أوجز غاية الايجاز مع الالمام بالموضوع من جميع وجوهه وهذه نسخته :

(أما بعد فهذا كتابي الى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ورأس علي بن عيسى بين يدى ، وكان خاتمه فى يدى وجنده تحت أمرى والسلام ،

وقديماً فعل ذلك (جول سيزار) عندما تغلب على قبائل الغول ودخل مدينة (لوتاس) وهى المدينة الأثرية التى بنيت على أطلالها باريس ، فقد كتب الى مجلس الأعيان بروما ثلاث

كلمات فيهن كل وصف واطناب وهى : (جئت فرأيت فقضيت)

لقد اغتاظ الفضل من انتصار المأمون وأطلق لغضبه العنان الى حد مصادرة أمواله وعقاره وحجز ولديه الصغيرين ببغداد ولقد هم أن يقتلهما لولا ممانقة الامين ، ثم توالت البعوث من جانب الأمين بعد هزيمته المذكرة وكانت الغلبة للمأمون فى كل مرة ، وفى سنة ثمان وتسعين ومائة .هجم طاهر بن الحسين ،على بغداد بعد قتال شديد وحاصرها عدة أشهر وأخذ الأمين أمه وأولاده الى عنده بمدينة المنصور ،وتحصن بها ولقد أشاروا عليه بالفرار الى الشام فلم يفعل ارتكانا على مروءة أخيه وشهامته ان هو سلم نفسه اليه وبادر فى مذكرات الصلح وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وحصره طاهر هناك وأخذ عليه الابواب والمنافذ ولما أشرف على أخذه طلب الأمين الأمان من (هرثمة) وأن يطلع اليه فروجع فى الطلوع الى طاهر فأبى ذلك فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، خرج الأمين بعد العشاء الآخرة وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود فارسل اليه هرثمة يقول ، انى غير مستعد لحفظك وأخشى أن أغلب عنك فأقم الى الليلة القابلة ، فأبى الامين الا الخروج تلك الليلة ، ثم جاء راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثمة ، فصعد اليها فاحتضنه هرثمة وضمه اليه ، ثم شد أصحاب طاهر من الاعجام

على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فسبح الامين وهرثمة حتى وصلا الى الساحل بكل جهد ومشقة والتجئا الى بيت صغير. وكان هرثمة قد غطى الأمين بطيلسانه حفظاً له عن الأعين وعمل ما فى وسعه لنجاته ولكن كيف يستطيع ذلك بمفرده وأنى له أن يثبت أمام مشيئة الاقدار ان (لكل أجل كتاب) ... ؟ فقد وصل الأعجام الي الامين فى مكمنه ، هجموا عليه بسيوفهم المصلتة حتى قتلوه ؛ ولقد غضب المأمون من جراء ذلك على القتلة وأمر بجمعهم ومجازاتهم لما ارتكبوه وأجري النفقات على الموجودين فى قصر أخيه وألحق ولدى الأمين بزبيدة لتربيتهما وهكذا عمل ما فى الامكان لتلافى ما حدث بغير رضاه وبلا أمر منه.

قتل الامين ، ولد زبيدة المحبوب فى الثامنة والعشرين من حياته وكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكسر

لقد أقسم الامين أمام أبيه بحفظ وصيته وعاهد ربه ثلاثا أمام جمع حافل أن يكون مستحقاً لغضب المولي عز وجل وقهره اذا هو خان الامانة ، ثم نكث بالعهد وحنث بالقسم ولم يعبأ بشرف الوعد أفلا يكون في ذلك دليل على الغباوة والجهل وقلة التدبر ؟ .

(الفصل السابع)

اضمحل نفوذ زبيدة وتلاشى شأنها بعد خلافة المأمون ولم يبق لعظمتها مجال ومتسع .ولقد اضطرت أن تعيش فى دائرة محدودة تحت ظلال السكون والاستكانة والنسيان على غير ما تعودت وبخلاف ما نشأت عليه ،لان طاهر بن الحسين، قائد المأمون ، ذلك الذى تغلب على ابنها الامين وقهر جيوشه وكسر شوكته لم ينس ما لحق المأمون من الاهانة وما ناله من الاذى وما تجشمه من المشقة فى سبيل الامين فاضطهد زبيدة وعمل على تعذيبها واذاقتها ألوان التحقير والاهانات . ولقد صبرت زبيدة على الاذى وتحملت كل ذلك بصبر وثبات جاش وأنها لجديرة بالتقدير لثباتها هذا ، لان زبيدة العظيمة(امرأة الرشيد) تلك التى عاشت مكرمة معززة مرفهة طول حياتها دون أن يصيبها مكروه أو يعكر صفو حياتها أذى أو تسمع أو ترى مايشعر بهوانها ومذلتها لم تذق طعم الهوان قبل ذلك اليوم

لم يرض طاهر أن يسمح لنفسه بالنسيان عن أحوال زبيدة وحركاتها التى بدرت منها أيام ابنها الامين ، فحكم عليها ، على امرأة الرشيد الاصيلة النجيبة بأن تعيش فى ضيق وشدة ، أنه الانتقام ليس من الشرف فى شئ بل هو ضرب من ضروب

النذالة . ولقد تألمت زبيدة من تلك المعاملة ولم تدر ماتفعله ازاءها لان يد الاقدار التى ضربتها تلك الضربة القاسية جعلتها فى حيرة من أمرها لاتهتدى الى سواء السبيل ، ولانها ما كان يخطر على بالها أن تظل كذلك متروكة منسية في بغداد وعند ما فاض اناء صبرها وضاق ذرعها تجلدت فأمسكت القلم بيمينها وسطرت تستعطف المأمون وتقول :

« كل ذنب ياأمير المؤمنين وان عظم صغير فى جانب عفوك وكل اساءة وان جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عودكه الله ، اطال مدتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ودفع عنك الشر والضير وبعد فهذه رقعة الولهى ، التى ترجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر ، فان رأيت ، أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتي ، وتصل رحمى وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل وتذكر من لو كان حيا لكان شفيعي لديك » ثم أضافت الى ذلك أقوالا شرحت فيها معاملة طاهر واضطهاده لها وقالت : « فان كان ما يفعله صادراً عن رضاك رضيت بنصيبي من الاقدار وان كان يعتسف بغير رأيك فانك قادر على تغيير الحال »

وقد ارسلت الرقعة مع جارية لها تدعى خالصة وأوصتها أن تسلمها الى المأمون يداً بيد .

وما كاد المأمون يقرأها حتى بكى وقال لمن حوله قول على عليه السلام عند ما وصل اليه خبر استشهاد عثمان رضى الله عنه: « والله ما كان ذلك برأيي ولا علمى » ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ورد اليها أموالها وضياعها وعمل على رفع قدرها واصلاح شأنها ليمحو من نفسها أثر الاحزان التى انتابتها، كما وبخ طاهرا على ما فعله.

بعد ذلك نرى زبيدة فى عيش رضى ونعمة تامة، تستعيد بهجتها السابقة وعظمتها السالفة، وتعمل على نسيان الاساءة التى لحقتها على يد طاهر بن الحسين، تحت ظلال وارفة من نعم المأمون واحساناته المتوالية

(الفصل الثامن)

بعد انتهاء الحادثة بتلك الخاتمة الحسنة ، يظهر اسم زبيدة مرة ثانية فى صفحات التاريخ ، يسطع باشراقه السابق وروائه السالف وقد ظل هذا الطابع مظهراً لحياتها الباقية الممتدة حتى عام ٢١٠ من الهجرة .

وكما أن الجماعات التى تمر أوقاتها فى سعادة ورفاهة ، قل أن توجدفى سلسلة وقوعاتها حادثة مكدرة أو واقعة تحرك كوامن الالم ، كذلك الافراد الذين تتوالى سلسلة أيامهم بالسرور والصفاء لايجد الرائي خلالها من الحوادث المؤلمة والوقائع المكدرة ما نسجلها عليهم . وهكذا الحال مع زبيدة : ظلت هنيئة مغتبطة بعيشها بعد خلاصها من شر طاهر بن الحسين وأذاه ، فقد تعاقبت عليها الايام بصفاء غير ممزوج بأكدار الحياة وهذه حالة طبيعية فى حياة امرأة عظيمة تعيش فى كنف خليفة عالى الهمة ، رقيق الحس ، جميل الشيم ، كالمأمون .

من الحوادث التاريخية البارزة في تلك الفترة من حياة زبيدة ، عقد قران المأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل فقد كانت زبيدة من أكابر الرؤس التى حضرت تلك الوليمة وظهرت فيها بمظاهر الابهة والجلال ولم تكتف بهدية الجهاز التى

قدمتها للعروسين مما كلفها ٣٥٠ مليون من الدراهم وانما تبرعت كذلك لبوران باحدى ضياعها الكبيرة فى ولاية (البلخ)

لقد كانت وليمة الزفاف في مدينة (مرو) فى شهر رمضان المبارك من العام العاشر بعد المائتين للهجرة وانتهت بأبهة نخمة لامثيل لها فى حوادث التاريخ حتى لقد قيل ان أيام العرس دامت سبعة عشر يوما تجلى فيها الشرق واستفحاله في الابهة والفخامة مما لايقع تحت وصف أو حصر ولقدكانت كبريات السيدات من نساء بغداد وغيرها من عواصم الاسلام وأمصاره يختلن فى الحفلة باثياب الفخمة والحلى الثمينة التى يأخذ بريقها بالابصار ومن لنا بتصوير حالة زبيدة ونفسيتها فى ذلك الموقف، وهى تشاهد تلك الحفلة . لقد تذكرت بلا ريب، بشئ من اللوعة والمرارة المعنوية حفلة زفافها في قصر الخلد منذ خمس وأربعين سنة مضت، ومن يدرى الى أى حد ذهبت بها ذكريات تلك الايام الذهبية الماضية لقد كانت اذ ذاك واحدة بغداد فى الحسن والجمال وقرة عين جدها المنصور عميد آل بني العباس، ولقد خيل اليها وهي في تلك الحال من الرفاهة وما يحيط بها من أنواع الحفاوة والدلال أن الحال سيدوم معها على ذلك المنوال وأن حسن الطالع سيلازمها طول الوقت ومدى العمر

لقد كانت صبية حسناء فى السابعة عشرة من عمرها ولقد

كانت محبوبة معززة من عريسها الرشيد الذى يبسم له حسن المستقبل فكان اليوم يومها . ومن البديهى أنه لم يكن فى تلك الحفلة امرأة أشد ذهابا مع الذكريات وأكثر استعراضا للحوادث منها تلك الحوادث التى تمر في المخيلة تباعاً كما تمر الوقائع في شريط السينما ...

أما عروس اليوم فهى بوران محبوبة المأمون اكبر رأس تنحنى له الرؤس . والشعراء الذين تهافتوا على وصف جمالها وتدبيج القصائد فى ذكر كمالها ، يتهافتون اليوم على وصف بوران وقدح زناد الفكر فى ترصيع آيات التمجيد والاعظام لها

لقد كان اليوم يوم بوران فزبيدة في تلك الحفلة تمثال الماضى وبوران صورة الحاضر ، ووجود هاتين المرأتين معاً جنبا الى جنب فى الحفلة لوحة بديعة ذات معان سامية تصور منظراً من أغرب مناظر الحياة ! ..

كان المأمون يحب بوران الى درجة بعيدة المدى فأراد أن يظهر له حبه متجلياً فى إعزازها وتكريمها بتلك الحفلة ، فتم له ما أراد وظهرت حفلة زفافها عظيمة بليغة بقدر حبه العظيم .

لقد كانت حفلة مشرقة باهرة ، سطعت فيها القلائد على النحور ، والاقراط في الآذان والحلي على المعاصم ببهاء ورواء ولكن شخصية بوران كانت أكثر اشراقا من أى شىء آخر وجمالها

الساطع فاق روعة تلك الجوهرات والنفائس : ولقد قيل انه عندما أخذ المامون بيدها الى الغرفة المخصصة لها نثرت جدة العروس قطعاً من اللآلئ الكبيرة من على صينية من الذهب فوق رأسيهما وقد جمعت فيما بعد فصارت عقداً بديعاً زينوا به جيد بوران الناصع وقد قيل كذلك أن جدتها أوقدت فى غرفتها شمعة عنبر تزن أربعين مناً ، و كتب الحسن بن سهل أسماء ضياعه فى رقاع و نثرها على القواد ، فمن وقعت له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها هذا خلاف الذهب والجوهر الذى نثره على عامة الناس فى ذلك اليوم مما بلغت تكاليفه خمسين مليوناً من الدراهم ، ولقد هال ذاك المأمون وأراد أن يعوض على وزيره ما أتلفه فى سبيل اعظامه فوهبه ايراد سنة واحدة من دخل احدى ضياعه الخاصة (١)

على هذا النسق البديع من الفخامة والعظمة انتهت حفلة زفاف بوران وبهذه الصورة البديعة بدأت حياة الزوجين السعيدين ، وبعد هذه الحادثة بست سنوات ارتحلت زبيدة الى دار البقاء فى التاسعة والستين من عمرها

هذه الفاضلة الممتازة من بنات بنى العباس ، من أجل نساء الاسلام ذكراً ، وحياتها التي دامت تسعة وستين عاماً ، صفحة ممتازة من صفحات التاريخ الاسلامى

كانت ذات شخصية بارزة ، وصفات سامية ونفس جذابة

ولقد سار ذكر جمالها مسار الامثال ببغداد ، وتغنى الناس بذكائها وفطنتها فى سائر الامصار اما حديث غناها فمما ادهش أهل التوحيد ، وذكر خيراتها مما وقع موقع القبول والشكر فى قلوب جميع المسلمين .

لقد أتت من عظائم الخيرات ما لايدخل تحت حصر او قياس فأصبح اسمها مرادفاً لمعانى البر والمعونة والاحسان فهى لهذا السبب من الاميرات الجليلات اللواتى يفتخر الاسلام بهن على الدوام .

لقد أحبها الخلق لجمالها ولصفاتها المعنوية ولعرفانها وسمو أدبها ولكن شهرتها الخالدة جاءتها من طريق خيراتها العديدة وببركة الدعوات الصالحة الصادرة من القلوب المكلومة التي عملت على تخفيف ويلاتها . ظل اسمها خالدا عظيما وسوف يظل كذلك تلهج به الالسنة بالمحمدة والتمجيد الى ما شاء الله .

اما اثرها فى عصرها فظاهر جلى فقد كانت قطب رحي الظرف والمبتدعة لانواع كثيرة من ضروب الزينة حتي لقد يمكن وضعها فى صفوف كبار اهل الفن العاملين على احيائه وانمائه فى ذلك العصر

فى سيرتها شىء من الزلل وجانب من الخطأ ولكن لو وضعت حسناتها الى جانب تلك الهفوات لرجحت كفة خيراتها رجحانا

كبيراً . وأي امرىء من ابناء البشر مبرأ من العيب ،معصوم من الخطأ ؟ . . .

فزبيدة هذه من ملكات الشرق ذات الأثر الباهر ، ومن مخدرات الاسلام التى كانت عونا على رفع كلمة الشرق . فاذا ما ذكر اسمها وجب أن يذكر مقرونا برفاهة الشرق وفخامته وما كان له من علو شأن وارتفاع فى العصر الثانى للهجرة

ولهذا الاسم اثر كبير من الاعجاز فان له سحراً خاصا يجذبنا اليه ويجبرنا على الانحناء باعظام امام شخصيته لنقول من صميم افئدتنا « لقد كانت امرأة عظيمة »

بهذا الخشوع والاعظام فحسب نطوي سجل هذه الحياة الصالحة

الاميرة صبيحه

ملكة قرطبة

— ٩ —

الاميرة صبيحة

ملكة قرطبة

الفصل لاول

عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله ، ثامن ملوك بنى أمية في الاندلس ، ناصية معروفة فى التاريخ الاسلامى وعلم من اعلام الاندلس . ما كاد يجلس على عرش الخلافة حتى بذل ما فى وسعه لترقية المملكة واعلاء شأنها ، الى ان وصلت اعلى درجات الرقى وفاقت ممالك اوروبا مدنية وحضارة فى المدة التى تقلد اثناءها الحكم وتقدر بنصف قرن

عاش هذا الخليفة المقتدر وله امل واحد ، سعى لادراكه وتحقيقه طول الحياة . ذلك الامل : هو مجد الاندلس وعظمتها وقد كانت همته اكبر من ان تكل ، فواصل ليله بنهاره مجداً ، مجتهدا ، حتى صير قرطبة جنة فيحاء ، تتخللها القصور الشاهقة والمساجد الكبيرة والمدارس العالية والمستشفيات العديدة ودور الكتب الحاوية لانفس الآثار والمآثر . أراد ترقية العلم فى ربوع بلاده ، فأحضر لها العلماء والحكماء من سائر ممالك العالم(١)

---

(١) الامير على

ورغب كذلك فى زينتها وبهرجتها فلم يأل جهده في تخطيط الشوارع وغرس الاشجار وحفر الترع والجداول الموصلة للأنهار وان هي الا عشية وضحاها حتى كانت قرطبة تنافس بغداد في أبهة الحضارة وأسباب الرفاهة والعمران ، وأصبحت موضع اعجاب كل من يقصدها من الزوار بحسن نظامها وبديع ترتيبها . واجتمعت كلمتهم على انها عروس المدائن ومعدن الظرف ومنبع انواع الكمالات (١) وان التاريخ لن ينسى أياديه البيضاء على العلوم والفنون وترويجه الزراعة والتجارة في تلك البلاد الجميلة التي أضاءت نفوس أهلها من رجال ونساء بأنوار العلم والعرفان (٢) حتى اصبحت ترفل فى تلك الحلل الجميلة ، حلل المدنية فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى ظلمات الجهل ، تتلمس لنفسها سبيل النور والضياء

وجه همته الى تنظيم الجيش وبناء الاساطيل (٣) وبذا أصبح صاحب الكلمة العليا فى مياه البحر الابيض . ولم يكتف بما كان يحرزه فى ميادين الحرب والقتال بل تطلع أيضاً الى التغلب فى ميادين السياسة فمالبث أن نال فيها قصب السبق وعقدت له بها ألوية الظفر والفخار

أكبر المسلمون من كافة انحاء العالم ما كانوا يرونه فيه من

---

(١) دوزي (٢) دوزفيت (٣) الامير علي

أمارات الذكاء ودلائل العدل مع ماكان عليه من حسن التدبير ووفرة الجاه وقوة السلطان وعزة الملك ، فعظمت منزلة قرطبة في أعينهم وأصبحت بمثابة القلب النابض لاجزاء الممالك الاسلامية الاخرى المنتشرة من أقصى المعمورة لاقصاها

كان عصر نهضة وزمان تجدد وانتباه وكان للعلوم والفنون وقتئذ تجارة نافقة وللاندلس من هذه النهضة نصيب وافر حيث كانت مطمحا لانظار الشعراء والعلماء وقبلة أهل الادب وغيرهم من الوجوه ورجال الفضل من كل صوب وحدب (١)

قال عبد الرحمن الناصر يخاطب ابنه الحكم : « كلما طال عهدى قصر زمانك يابنى » وقد طال حقيقة عهد عبد الرحمن وكان ذلك لمجد الاسلام وعظمته لانه من احسن الازمنة التي عادت على الامة الاسلامية بالخير العميم ، بل أقول بأنه كان بلامراء العصر الذهبي للاسلام المتوج تاريخه بأكليل المجد والفخار

حسبك حسنة من حسنات عبد الرحمن جامع قرطبة الشهير والقصر المعروف ببيت الزهراء (٢) ذلك القصر المشيد على مقربة من قرطبة فى أجمل بقعة من بقاع الاندلس

لقد عجز المؤرخون عن وصف هذا القصر ، وأوقع قلوب

---

(١) دوزى (٢) تاريخ الاندلس لضيا باشا

زائريه من أهل الفن فى الدهشة والاعجاب ، لانه كان أجل من أن يوصف وأبدع من أن يصور . كان مملوءاً بضروب الصناعة وصنوف البهرجة وأنواع الزينة من الداخل والخارج بحيث لاتقع العين الا على آية من آيات الفن أو منظر من المناظر الرائعة الجديرة بالاجلال والتقدير

كان ما يراه الانسان خارج القصر لايقاس بما تقع العين داخله ، فقد كان لكل زخرفة من زخارفها حالة جذابة خاصة بها . وبالاجمال فهو من تلك القصور التى لانسمع عن نظائره الا فى اقاصيص الجان وأساطير الاولين

كانت الحديقة المحيطة بالقصر من أجمل البساتين البالغة غاية الكمال فى التنسيق والترتيب ، تزينها أبسطة زمردية خضراء وأشجار باسقة شامخة بأنفها فى الفضاء وأحواض رخامية تحيط بها صنوف شتى من الورد والازاهير

وقد كان في القصر مائتان والف عمود من أفخر الرخام وقاعة استقباله مزينة بالذهب مطرزة باللؤلؤ والابواب من خشب الأرز ، منقوشة نقشا يحير الالباب والعمد غاية فى الاتقان والاحكام كأنها افرغت فى قوالب . وكان بها برك عظيمة يجرى منها الماء الصافى الى أبدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصورها

قال (المقرى) يصف أحد مجالس هذا القصر :

« سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه ، المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك ، وجعلت فى وسطه اليتيمة التي أهداها (لاون) ملك القسطنطينية الى الناصر ، وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة وفى وسطه صهريج مملوء بالزئبق . وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون ذى البلور الصافى وكانت الشمس تدخل تلك الابواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار . » (١)

كل زينات هذا القصر كانت بديعة مونقة وكل النقوش التى تزينه دقيقة ومحكمة أما الحوائط فقد كانت لوحات فنية نفيسة والاعمدة شفافة رقيقة ذات قوام جاذب وجماع هذه النفائس كان ينبعث منها نور وجلال يتضاءل أمامها أبهة قصر الخلدين الذى بناه الرشيد في بغداد

قصر الزهراء تاج أعمال عبد الرحمن الناصر ، شيده لتخليد اسم زوجته المحبوبة فزاد بذلك من شأن قرطبة وأهميتها وكان

---

(١) نفح الطيب للمقرى

سبباً فى لفت أنظار العلماء والأدباء اليه واكتسابه محبة الشعب ونواله حمد أهل المشرق واستحسان أهل الغرب هذا الى تخليد اسمه فى طيات التاريخ بطريقة لايمكن محوها الى أبد الآبدين

ولقد توفي سنة ثلثمائة وخمسين هجرية وهو فى الثانية والسبعين من عمره بعد أن سلخ خمسين حجة فى حكم بلاده

كانت قرطبة عند وفاته تحتوى على ١٣٠ الف مسكنا وثلاثة آلاف جامعا وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسعمائة حماما وستمائة خانا ، بينما كانت المكتبة الملوكية تضم بين جدرانها كتبا يتراوح عددها بين ٤٠٠ الف و ٧٠٠ الف مجلد (١) الا انه ترك ماهو أبلغ من ذلك وأعظم شأنا فقد ترك بين أوراقه الخصوصية جملة حكمية ضربت بها الامثال وسارت بذكرها الركبان ، هي قوله : « أحصيت أيام حياتى التى عشتها في صفو وهناء لاتظللها سحب الاكدار فاذا هي أربعة عشر يوما فقط »

ملك عظيم دانت له الرقاب وتوفرت له اسباب العز والجاه عاش مبجلا ، معززا ، ترمقه العيون بالمهابة وتحفه الانظار بالاجلال ولم يتمتع من أيام حياته الطويلة الا بجزء صغير — أربعة عشر يوما فقط ! . . فما أبلغ هذه الحكمة السامية التى تتضاءل أمامها جلائل المعانى

---

(١) المقرى

الفصل الثانى

مات عبد الرحمن وبموته طوى بساط ذلك الزمن الزاهر وفتح للاندلس أبواب عهد جديد هى : أيام الحكم المستنصر بالله

كان الحكم قبل تقلده منصب الخلافة عالما وقورا محبوبا من الشعب ، وفى مصاف أكابر الامراء في عهده (١)، ذا دراية بتدبير الملك وفنون السياسة ، خاض غمار الحرب بنفسه واشترك في ادارة دفة الاحكام على عهد أبيه ولذلك قابل اهل الاندلس خبر توليته وهو فى الثامنة والاربعين من عمره بمظاهر الارتياح والسرور ، اذ كان خير خلف لخير سلف

كان رحمه الله من حماة العلوم وأنصار الفنون ، يعتبر الكتاب من أحسن الندماء ويلذ له الاعتكاف في مكتبته الحاوية لنفائس الآثار الساعات الطوال يقطع أوقات فراغه من العمل بالدرس والمطالعة وكان للشعر والموسيقى فى نفسه منزلة لا تقل عن منزلة الكتب . وبالاجمال كان موسيقى الطبع ، مغرما بكل أمر معنوى نفيس تخلبه نغمة العود والناى ويستهوي لبه الصوت الموسيقى الرنان . سمع ذات يوم وهو يروض النفس فى حدائق بيت الزهراء تلك الحدائق الوارفة الظلال المزينة بالورد والازهار ، صوتاً

(١) المسعودى

جميلا نفذ الى أعماق قلبه وملك كل جارحة من جوارح نفسه، فبحث عن مصدره وعلم أنه صوت فتاة جذابة الملامح جمال صورتها يضارع حسن صوتها (١). تلك الفتاة هى : صبيحة التى ملكت على الخليفة حواسه وجعلته يتطرف معها الى حد الجنون فى الحب ، هاجراً مكتبته ناسياً كل شىء فى العالم حتى كتبه وقد كانت أحب الاشياء لديه.

كثيراً ما يصادف الانسان فى حياته وجوها جميلة تترك جاذبيتها أثراً في النفس لا يمكن نسيانه الى الابد وصبيحة كانت احدى هذه الخوارق ، ذات جمال ساحر ونفس جذابة وروح حلوة ذات لطافة ورقة ففتنت الخليفة بخفة روحها وجميل صورتها فغدا أسير اللحاظ مكبلا بقيود الهوى

كانت الفتاة على شىء من الادب ، أدب العلم والنفس وكانت تسامر الخليفة بأحاديثها الحلوة وفكاهاتها العذبة فلا يطيق مفارقتها طول يومه ، أما الليالى فكانا يقضيانها فى حدائق الزهراء الخيالية تحت ظلال أشجارها العطرة جنبا لجنب وهي تسكب فى نفسه كؤوسا من صوتها الرخيم لتزيده سكراً وهياما.

كان لصبيحة جسم شفاف ذات طراوة تحاكى نداوة الفجر ولذا كان الخليفة يدعوها على الدوام باسم (صبح) فهل أراد بهذا

---

(١) المسعودى

النداء المصفر المحبوب، ذكرى تلك السهرات المسكرة والاوقات اللذيذة ؟ أم انه أراد بذلك أن يعيد الى ذاكرته أحلام الفجر المشوبة بحمرة الشفق ؟ لا أدري . . . وانما يخيل لى أنه اذا ذكر اسم صبيحة لأى انسان تمثلت له صورة متوردة وتجسمت فى مخيلته مناظر تلك الحدائق العطرة ، حدائق الزهراء فتحيا فى ذهنه صورة الاندلس بخواطرها العذبة وذكرياتها اللذيذة بكل مافيها من لطف وظرف

أراد الله أن يتم نعمته على صبيحة فرزقت من الخليفة غلاما كان موضع سروره وفرحه، كأنما ملك به الدنيا بأسرها ، ومبعثاً لسعادة الوالدة حيث كانت هذه الحادثة سبباً فى عقد نكاح الخليفة عليها ، وقد اشترك الشعب فى أفراح الخليفة وعد هذا العام، عام ٣٥٢ من الهجرة النبوية ، أحسن الاعوام فى تاريخ الاندلس فتهافت الشعراء على مدح المولود وتخليد ذكراه وهرع الكبار والاعيان لتهنئة مليكهم والقيام بفروض التبريك ، حتى أن وزير الحكم خاطب الخليفة بقوله : « ان هذا المولود الشريف ، سليل ملوك بنى أمية ايسطع علينا بنوره منذ الآن فلماذا لا تشرق علينا كذلك الاميرة صبيحة التي منها هذه الشمس المنيرة ؟ » (١) ومنذ ذلك اليوم توطد مركز صبيحة وعرف أهل القصر قدرها فأحلوها

---

١ دوزى

المقام اللائق بها

وبعد عامين أى فى سنة ثلثمائة وأربعة وخمسين هجرية ابتسم لها الدهر مرة ثانية فولدت للخليفة غلاماً آخر سمي هشام فعظمت منزلتها فى نفس الحكم وازداد حبه لها الى حد بعيد المدى لأن مولوده الجديد ضمن له حصر الملك في أولاده وذراريه

كان الحكم يعد نفسه اذ ذاك أسعد مخلوقات الارض . له زوجة محبوبة هي : صبيحة ، وله من زينة الحياة الدنيا كل ما تصبو اليه النفوس : مال وبنون . فلم يبق شئ بعد ذلك يرغب فيه ، فكان يخصص مقداراً من وقته لادارة أمور المملكة والجزء الأكبر من أوقاته كان مصروفاً الى مشغوليته المحبوبة لنفسه وهى المطالعة واقتناء نفائس الكتب . وبذلك أخذت مكتبته تزداد قدراً (١)

كان الخليفة عبد الرحمن ملكا جليل القدر وحاكما مقطوع القرين . أما ابنه الحكم فكان عالما يجل العلم ويحترم أهل الفضل ولا يحجم فى سبيل نصرة العلم والادب عن تضحية أمور دولته فانتهزت صبيحة هذه الفرصة واخذت تشارك زوجها فى ادارة الحكومة ولم يمض على ذلك زمن كبير حتى كانت تشغل مركزاً

---

(١) ابن خلدون

سامياً في ميداني السياسة والادارة وتمكنت من اظهار ذكائها الفطرى وقدرتها على ممارسة الاحكام بشكل ادهش رجال الدولة . وكان الحكم من أولئك الذين يقدرون الاشياء قدرها ويقيمون للامور اوزانها ففطن الى مزايا زوجته في مسائل الحكم والادارة فأشركها فى الحكم علنا ووسع المجال لدائرة نفوذها وتأثيرها

كانت صبيحة فى اول أمرها صاحبة السلطان المطلق على عقل الخليفة وقلبه ثم اصبحت بعد ذلك بفطنتها وذكائها تملك روحه وما زالت تتدرج فى مراتب الكمال حتى صارت الملكة النافذة الكلمة فى كل بلاد الاندلس



الفصل الثالث

أخذ عهد الحكم يمر براحة وسكون تظلله رايات الامن والسلام لان أمراء الفرنجة الذين ناوأوه فى مبدأ حكمه كانوا قد تعبوا من كثرة ما لقوه من الهزائم المنكرة والاندحارات المتوالية فلم يروا بدًا من اعادة السيف الى نصابه والاخلاد الى السكينة والمسالمة . وقد كان لهذه الحالة أثر بين فى توطيد أسباب الراحة فى أطراف البلاد الاسلامية ، مما جعل المسلمين من أهل الاندلس يرتعون فى بحبوحة الامن داعين لخليفتهم بالعز والاقبال . أما الخليفة نفسه فقد انكب على مكتبته يرتبها ويزيد فى نفائسها ، حتى بلغت قائمة ما فيها من الكتب ثمانية وأربعين . مجلداً . فنع بهذه الحالة ولذّ له أن يغوص فى لجج من العلوم لاحد لها ، ناسياً كل شأن من شئون الحياة اللهم الا مقابلة جماعات العلماء الوافدين اليه من سائر أطراف الممالك الاسلامية لاسيما من بغداد ودمشق والقاهرة ، فازدادت بذلك شهرة قرطبة وأخذت جامعاتها تنافس الازهر والمدرسة النظامية في أهميتهما العلمية .

يقولون ان العلم ليس له جنس ولا يمت الى وطن أو دين بآصرة قرابة أو نسب . ولذا كان الخليفة يشجع كل عالم ويأخذ بيده من اي جنس كان ، لافرق لديه بين مسلم او نصرانى ، وكثيراً

ما جادت يده بالعطايا والهبات لكتاب قيم او مجلد نفيس اما الكتب النادرة التي لا يرى سبيلا الى مشتراها فكان يأمر بنسخها واخذ صورها وبهذه الوسيلة اصبحت مكتبة قرطبة شعلة نور يستضيء العالم بأنوارها

في ايامه وصلت الآداب العربية الى ذروة عزها وسامق مجدها كما نضجت علوم كالفلسفة والبلاغة والشعر ، وكما تعددت الطرائق وسبل التحسين في علمي الجغرافيا والتاريخ وفني الرصد والكيمياء . اما دروس الفقه والتشريع فكانا يدرسان بشرح وتطويل ويهرع الطلبة الى ورود مناهلها باشتياق كبير من كل حدب وصوب فقد كان عدد الطلبة الذين أموا حلقات دروس الفقه في ذلك المعهد يتجاوز عدة آلاف . اجل ان جامع قرطبة هو مهبط النور والهدي . فيه كان يعظ ابو بكر بن معاوية ليملأ قلوب الموحدين بأنوار الدين الاسلامى بينما كان ابن رشد وابن سينا والمسعودي واحمد بن سعيد الحمدانى وغيرهم من اقطاب الحكمة واولياء الحجى يزينون عهد الحكم ومن وليه من الخلفاء بثمار قرائحهم وانوار معارفهم .

في هذا المعهد الزاهر ، الساطع بأشعة الحكمة ، كنت ترى طالباً منكباً على دروس الجامعة بكليته ، يميل اليه الطلبة وتخدمه الاساتذة . كان هذا الطالب شاباً ذكى الفؤاد جميل الصورة ، اذا

صادف وجوده وسط جماعة من الناس اصبح هـدفاً لانظارهم . واذا مر على قوم جذب اليه التفاتهم . كنت ترى فى عينيه بريقاً من صور الآمال وفي حاله وطوره وكلامه حالة خاصة به . كانت تظهر عليه امارات عظمة تترك الناظر اليه فى دهشة وحيرة ، فكل من رأى هذا الشاب يحكم لاول وهلة وبدون ان يعرف اصله بأنه احد أولئك الذين سيرتفع شأنهم فى بلاد الاندلس ويحرزون مقاماً سامياً في مناصبها العالية

هذا الشاب هو محمد بن ابى عامر ، فخر الاسلام والشرق الذي اصبح بعد حين وزير الاندلس الملقب بالمنصور .

الفصل الرابع

محمد بن عبد الله بن أبي عامر يمني المولد ، ينتسب الى قبيلة بنى معاذ الشهيرة (١) واسلافه من مشاهير الابطال ذوي الذكر العاطر فى تاريخ الفتح الاندلسى .

كان شاباً نشطاً ذكى الفؤاد ، جميل الصورة . تلوح عليه امارات العزم والاقدام (٢) ويرى المتفرس فى اسارير وجهه رجلا لايعرف لليأس معنى ، لايعزم على امر حتى يمضي فيه غير هياب ولا وجل انم دروس الجامعة ثم احترف بعدها مهنة الكتابة واتخذ لنفسه حانوتاً صغيراً امام القصر السلطانى لكتابة العرائض وتنميق المظالم وتحبير الشكاوى وقد كان له بين نفوس خدمة القصر المترددين عليه مكانة رفيعة واشتهر بينهم ونبه ذكره عندهم حتى كنت ترى حانوته على صغر حجمه غاصاً بهم . الا ان نفسه كانت تطمح الى ما فوق ذلك ، كان يفتش عن سعادته فى ركن واحد من اركان الأمل ، جعله نصب عينيه ليله ونهاره ، فقد كان يسعى جهده الى الالتحاق باحدى الوظائف في القصر .

جلس ذات يوم فى حانوته يحادث أصدقاءه ومعارفه كالمعتاد فاذا به وقد غاص فى لجج من الافكار وطار محلقاً فى سماء الآمال

---

١ دوزى ٢ تاريخ مسلمي الاندلس لدوزى

ثم انتبه فجأة لنفسه بعد حين وخاطبهم قائلا :

«سأكون يوما ما حاكم هذه الدولة فليسرد لى كل منكم آماله وأمانيه والوظائف التى يصبو اليها منذ الآن فاننى محقق مطالبكم عند نوال بغيتى ان شاء الله» فتضاحك رفقاؤه وأخذوا يذكرون له — على سبيل الممازحة — الوظائف التى تطمح اليها أبصارهم.

بعد هذه الحادثة بزمن قصير طلب ابن أبى عامر الى قصر الخليفة كأنما الاقدار أرادت مداعبته، وكان الحكم راغبا فى انتخاب كاتب بارع لزوجته صبيحة فطلبوا بضعة أشخاص ممن توسموا فيهم القدرة على هذا العمل ليكونوا على أهبة الاستعداد لمقابلة الخليفة لهذا الغرض وبينهم ابن أبى عامر، الصديق المعروف من خدم القصر وحاشيته.

ولقد كانت أجوبته بين يدي الخليفة من أحكم الاجوبة وأدلها على الفهم والروية فنال قصب السبق وفاز على المتقدمين معه الى تلك الوظيفة بدرجة فائقة لفتت اليه أنظار الاميرة نفسها. فقد كانت له حالة خاصة به تجذب انظار المتطلع اليه لاول وهلة (١) ومع ذلك فالخليفة التبس عليه الامر وتردد مبدئيا فى قبول شاب جميل كهذا لتلك الخدمة وفى النهاية لم ير بدا من أن يكل امر الاختيار الى الاميرة نفسها صاحبة الشأن

---

١ دوزى

فوقع اختيارها عليه لانها لم تجد بين المتقدمين أليق منه للوظيفة المطلوبة. وانتهى الامر بموافقة الخليفه على تعيين ابن ابي عامر رئيساً لكتاب الاميرة .

ألا تعترف معي أيها القارئ بأن كاتب الاميرة هذا سعيد الحظ موفق الطالع فها قد نال أول أمنية من أمانيه العذبة التي طالما قضى الساعات الطوال مفكراً بها تحت ظلال حدائق قرطبة بسهولة ما كان يحلم بها . . .

قد خدمه حظه ورقى أولى الدرجات المؤدية الى ذلك القصر البديع ، قصر الآمال والتصورات فكان يري بعين الخيال انه سيدخل ذات يوم ذلك القصر ويمتع أنظاره بزينته وبديع رياشه وجميل أثاثه بل ان الامل كان يذهب به الى ابعد من ذلك فقد كان يرى انه سيفتخر بأبهته وسلطانه ويكون صاحب الكلمة بين سكانه .

كان يحلم بمثل هذه الآمال وكلما لج به الفكر ازداد سروره واشتدت بهجته .

وبينما كان الخليفة الحكم المنتصر بالله منعكفا فى مكتبته النادرة ، كانت الاميرة صبيحة تدير دفة الامور بمعونة حاجب الدولة عثمان بن جعفر المصحفى (١) وكان كاتبها الخاص محمد

---

١ لانبول

ابن ابي عامر يحرر اوامرها ويقوم بتبليغها الى مختلف الجهات .

كان الحكم خليفة البلاد اسمياً اما السلطان الفعلى فكان بيد صبيحة ، فزينة الاندلس ورفا هيتها والنظر في شئون الشعب واحتياجاته وتعليم أولياء العهد وتثقيف اذهانهم وتربية مداركهم كل هذه أمور كانت تقوم بها الاميرة .

وهي التى كان من رأيها جعل قرطبة محطاً لرحال أهل العلم ورجال الفضل والادب وهى التي كانت تقوم بترتيب الحفلات المتعددة داخل القصر وتدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد خارجاً . وهى هى التى كانت تعقد الجلسة تلو الجلسة بالاشتراك مع المصحفى وابن أبى عامر للمذاكرة والمداولة والمشاورة فى أحوال البلاد وتدبير الخطط اللازمة لمكافحة شر الاعداء والتنكيل بهم .

كانت لسان بيت الزهراء الناطق وحياة قرطبة الزاهرة وروح الاندلس النابض فانتشرت أنوار ذكائها فى كل صوب وناحية وقد اشتهرت بين الجميع بالكياسة واصابة الرأى حتى لم يبق انسان لم يعجب بحسن ادارتها وقيامها بالشئون العامة (١)

كانت الاميرة صبيحة معجبة بمقدرة ابن أبى عامر ، لاندري كيف تكافئ كاتباً نشطاً مثله !! أما هو فكان يلازمها بخفة روحه وطلاقة لسانه ويظهر لها الرغبة فى استخدامه ليس فى الامور

(١) كتاب مشاهير النساء

الكتابية فحسب بل فى كل شأن من شئونها ،
وكان اخلاصه فى العمل مما يزيدها اعجاباً به الى حد بعيد (٢) المدى

اكتسب ابو عامر ثقة الجميع واستأنس به الكل حتى أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه ، وفي الحقيقة كانت اهميته تزداد من يوم لآخر حتى بدأ الناس يتوددون اليه . وقد كان يتزلف الى أصغرهم شأنا من قبل ، وما كاد حاجب الخليفة جعفر المصحفى يستشيره ويعتمد عليه فى بعض أموره حتى ازدادت منزلته رفعة بين أهل القصر الذين بدأوا يعقدون عليه الآمال ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان الخليفة نفسه لم يتمالك من الاعجاب به وقد رأى اخلاصه فى العمل وأدرك مواهبه ومزاياه

فى هذه الفترة ، وقد ابتسم له الدهر ، عهدت اليه الاميرة ادارة ضياعها وممتلكاتها ، فأصبح مديراً بعد أن كان كاتباً ، وبعد مضى زمن قصير احتاج الخليفة الى شخص أمين يعهد اليه ادارة الضياع الخاصة بولى العهد ولما كان متردداً فى انتخاب الشخص اللائق لهذه الوظيفة عرضت عليه الأميرة تعيين ابن أبى عامر لهذا الغرض . تردد الخليفة بادىء ذى بدء لأنه صاحب الرأي الاول في قبول أو رفض المرشح لهذه الوظيفة،حيث مازال له نصيب فى حكم البلاد .ومع ذلك فقد كان يعلم قبل أى انسان

(٢) ابن الزهارى

ان الرجل الذى يعهد اليه املاك ابنه يجب ان تتوفر فيه مزايا جمة وان كل هذه المزايا مجموعة في شخص ابن ابى عامر والا فهل هناك امرؤ أقدر منه على العمل وأشد منه اخلاصا ؟ (١)

فكان لزاما على الخليفة أن يقبله بلا تردد ولذا انتهى الامر بنزوله عند رأى الاميرة واصدار الامر بتعيينه مديرا عاما على تلك الاملاك والضياع ، ففى عام ٣٥٦ من الهجرة اجتمعت لابن أبى عامر ثلاث وظائف بمعونة الاميرة وحمايتها جعلته يطأ الدرجة الثانية من عرش آماله وأمانيه وهو فى السادسة والعشرين من عمره

كان ابن أبى عامر سعيد الحظ فخوراً بوظائفه الثلاثة يصرف فى سبيل القيام بأعبائها كل مالديه من وقت وجهد ، كان أفق المستقبل يبدو لناظره منيراً مشرقا وأحلامه زاهية زاهرة ، فاطمأن ولم يقلق من المستقبل . أما كان يشعر بأن الحظ سيواليه بنعم أكثر ما دام ينسج على هذا المنوال ؟ والا فمن ينكر رقيه السريع فى زمن قصير . ألم يتقلد سلطة واسعة لاتخطر على البال وهو في مثل هذا السن ، فى عامه السادس والعشرين ؟ وهل لم يكتسب ثقة المصحفي وصداقته ؟ ألم يكن أهل القصر بما فيهم الاميرات يعجبون بظرفه ورقة شمائله ؟ وفوق هذا ألم تكن الاميرة نفسها تظهر له ضعفا وميلا شديدين وتبذل ما فى وسعها لرعايته وحمايته

---

(١) دوزى

أجل كانت تفعل كل ذلك لدرجة اضطرته الى طرق أبواب الحيل ولبس ثياب المداهنة لانه كان مضطراً في حالته تلك الى ملاطفة أهل القصر ومراضاتهم جميعاً فكان يبسم لهذا ويلاطف ذاك ويعطف على تلك مراعاة للجميع حرصاً على ابقاء الظواهر على حالتها . وهذه حالة اكسبته رضى الجميع وجعلته محبوبا منهم يتقبلون هداياه بسرور وابتهاج وكان الخليفة يقول لاحد مقربيه : « ان كاتب صبيحة هذا رجل غريب الاطوار ، قد استمال اليه جميع من فى القصر واننى لأرى بعينى رأسى كيف يجلون هداياه التافهة ويفضلونها على أثمن هدية تقدم منى اليهم . فلست أدرى هل أعده من المخلصين الينا أم أعتبره ساحراً محتالا » ومع ذلك فان أبا عامر استمر يتقدم حتى أصبح بمساعي الاميرة ناظراً لخزينة الدولة ثم عين بعدها المدير المطلق لادارة (صك النقود) وبذلك أصبح فى مصاف كبار الموظفين فى الاندلس . وكانت الاميرة تباركه فى سرها وتهنم برقيه السريع ، وكم كانت شاكرة لمحاسن الصدف التي وضعت فى طريقها مثل هذا الكاتب الحائز لمزايا عديدة ، فلشد ما انتفعت بمواهبه وكثر ما اهتم هـو بكل شأن من شؤونها . فهو اليها الشخص الوحيد الذى لايمكن الاستغناء عنه أو الركون الى غيره . انه ليعلم آداب المعاشرة أكثر من المتربين بين جدران القصور ، ظريف لبق . تطربه النغمة الحلوة ، ذو المام بالموسيقى

قادر على مزاولة أى عمل يكلف به . أضف الى ذلك علمه بحالة الاميرة الروحية وادراكه للأشياء التى تبهجها وتقع من نفسها موقع الرضى والقبول . فلله دره من شخص رقيق الحس عالي الفكر !!

كل هذه صفات كانت الاميرة تفكر فيها وتراجع نفسها عما اذا كانت متغالية في تقديرها . كلا كلا ان أبا عامر ليستحق منها هذا التقدير . . . . . هنا يتساءل القارىء هل كان ذلك مجرد تقدير فحسب أم انها تميل اليه دون أن تعترف حتى لنفسها بهذا الميل ؟ جواباً على ذلك نقول أنها كانت تحبه (١) تحبه لدرجة أنها أصبحت تجد لذة سائغة فى اعطاء الاوامر اليه وتكليفه بكتابة التحريرات المهمة وغير المهمة الي غير ذلك من الاسباب والمعاذر المؤدية الي مقابلته والاحتكاك به . . . . . ولكن هل كان هو يشعر نحوها بمثل هذا الميل ؟ ألم تكن فى ريعان شبابها وعز جمالها ذات صوت رخيم وملاحة جاذبة ؟ أليست هى الاميرة صبيحة ملكة قرطبة المحبوبة ؛ فهل يمكن ألا تحب . نعم ان أبا عامر كان يطيعها لدرجة العبادة لا لجمالها أو لمحاسن نفسها بل لوجاهتها ونفوذها . وكانت هى لا تميز فيه هذه الحالة لأنها أحبته من أعماق نفسها حبا ناريا تغلب على كل ما لديها من ارادة وعقلية . كانت

---

(١) لان يول

تحبه محبة غير محدودة ، كحب شجرة الدر لعز الدين بن ايبك .
كلتاهما ، صبيحة وشجرة الدر وقعتا بين براثن محبة قاسية ،
قوضت اركان شخصيتهما الممتازة وتركتهما تمانيان مرائر السلوى
وآلام الهجران . كلتاهما بذلتا مافى وسعيهما لارضاء حبيبيهما
الى حد ان أسقط ما لهما من كرامة وهوى بهما من سماء الرفعة
والعز الى حضيض الذل ليمتزجا بالشخصين العزيزين لديهما فكل
رغبة لهما أو كل أمل كان مقيداً بهواهما كلتاهما كانتا شمساً تتألق في
سماء دولتها — تحيط بها نجوم وسيارات ثم انعكست الآية بعد
أن تجرعتا كأس الحب فتبدل الحال بغير الحال وانحطتا الى دركة
السيارات بعد أن كانتا فى دائرة الشموس والاقمار. وارتفع تبعاً
لذلك شأن حبيبيهما ، محمد بن أبى عامر وعز الدين بن أيبك
حتى أصبح كل منهما الشمس الساطعة فى دولته . أجل استفاد كل
منهما من حالة حبيبته الروحية وجعلها ساعداً لاغراضه ومراميه
وتم لهما ما أرادا بخاتمة مؤلمة تكتنفها الدموع وتحيط بها الآلام

تولى أبو عامر منصبه الجديد وأظهر امتنانه وشكره
لاميرته وولية نعمته بهدية ذات قيمة سارت بذكرها الركبان
كانت هديته نموذجاً صغيراً لاحدى قصور الاندلس الجميلة
مصنوعاً من الفضة ومنقوشاً بغاية الدقة والاحكام وقد كان يوم
نقلها من بيته الى القصر الملكى يوماً مشهوداً اجتمعت فيه آلاف

الجماهير لمشاهدة هذه التحفة اليتيمة (١) وقد سرت الاميرة من هذه الهدية الثمينة التى كلفت أبا عامر مبالغ طائلة وكان لها أثر بليغ فى نفسها. من ذلك الحين بدأ يقدم لها الهدية تلو الهدية مراعياً في ذلك أن تكون هديته الثانية أثمن وأرفع قدراً من الاولى. كل هذه أمور زادت سرور الاميرة وضاعفت من شكرها وامتنانها له الا أن تكرار هذه الهدايا على وجه من الاسراف لا يطابق حالة أبي عامر، فك ألسنة الجمهور من عقال السكون وأخذوا يتساءلون ويتهامسون فى الجامع عن مصدر تلك الاموال الباهظة التى أنفقت فى سبيل مجاملة الاميرة، فكانوا يقولون في أنفسهم: ان هى الا من مال الامة ومتوفرات بيت المال والافمن أين له كل هذه الاموال؟ وقد اتسعت دائرة تلك الاشاعات وتماوجت حتى اتصلت بمسامع الخليفة نفسه فأرسل يطلب أبا عامر الى بيت الزهراء

ارسل الخليفة بطلب ابى عامر الى بيت الزهراء لتقديم الحساب عن أموال الحكومة المودعة تحت تصرفه.

هذه صدمة لم تكن في الحسبان ارتعدت لها فرائص أبى عامر لان الخزائن كان بها عجز ظاهر لا يعوضه الا مال وفير. ففكر فى الامر وقدح زناد الفكر فلم يجد امامه سوى الالتجاء الى صديقه

(١) دوزى

العزيز ابن خضير وقد التجأ اليه وطلب منه يد المعونة فكان عند حسن ظنه به لان ابن خضير أعانه على امره وأقرضه المال الناقص وبذا أتم ابو عامر شؤونه واكمل حسابه ويمم نحو بيت الزهراء آمنا مطمئنا وهناك أمام مولاه قدم حسابا دقيقا برهن به على امانته وأظهر اخلاصه وقطع السنة المخرصين والمداة كانت دفاتره مرتبة منسقة وخزائن الدولة ملأى بالاموال ودار الضرب تتوهج بسبائك الذهب والفضة فخجل الخليفة من نفسه ولم يسعه الا تقديم عبارات الشكر والاعجاب بناظر ماليته القدير ودفعا للشبهة وسوء الظن عهد اليه بوظيفة جديدة هى وظيفة التفتيش العام

وفى اليوم الثانى لهذه الحادثة أعاد أبو عامر ما اقرضه الى صديقه الحميم وكان عمله هذا معجزة ألجمت السنة اعدائه وأوقعتهم في مهاوى الدهشة والحيرة. ان حسن الطالع مازال يناصره ويشد أزره وينجده اكثر من ذى قبل فها هو قد أظهر اخلاصه لخليفته وخرج من تهمته نقى اليد عالى الرأس وازدادت مكانته فى نفس الاميرة وعلت كلمته فى طول البلاد وعرضها حتى أصبح أوسع رجال الدولة نفوذاً وأعلاهم كلمة

ان انتصاره على اعدائه بتلك الكيفية زاد من محاباة الأميرة له فتمكنت من تقريبه الى الخليفة أكثر من ذى

قبل وأخذت تنشر محاسنه بين الناس جهاراً ولا ترى بأساً من المضى معه في تيار الهوى فصار ما بينهما حديث القوم فى سمرهم ومجالس أنسهم ولهوهم (١) حتى اصبح يخشى من وصول ذلك الى مسامع الخليفة ولذلك ارتأى المصحفى بعد موافقة الاميرة ان يذهب ابو عامر الى اشبيلية (٢) لحاكم مطلق فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين هجرية وبعد ان أقام بها مدة عبر الى مراكش عن طريق جبل طارق

فرح اعداؤه بهذا الابعاد واختلقوا عليه اكاذيب شتى كادت ان تمحو ماله من شهرة وبعد صيت، الا ان صبيحة كانت ترمقه بعين رعايتها وتظلله بجناح حمايتها وهو بعيد عنها فقد كانت تذيع سراً ان الخليفة ارسله لمراكش لمراقبة دفاتر بيت المال وكشف احوال القائد الأكبر غالب. كان المصحفي يحقد على غالب ولذا اغتبط بمهمة ابي عامر لعلمه بأن هذا الامر يضايقه ويحرج مركزه الا ان غالبا كان قائداً جسوراً مقتدراً وماكاد يجتمع بأبى عامر حتى تفاهما وتآلفا وقد ذكره ابو عامر بخير واثنى عليه في حضرة الخليفة وبين ماله

---

(١) الاظهارى

(٢) المقرى

من المآثر فى قمع الثورات وتسكين الاضطرابات فى ربوع مراكش مما سبب رجوعه مكرماً محترماً الى قرطبة رغم اعتراض المصحفى وإصراره فى ذلك

ظهرت لأبى عامر فى هذه الرحلة خدمات جليلة دلت على اخلاصه لأمته وحببته من نفوس مواطنيه الذين عرفوا له فضل هذه الخدمات والمساعى وقد ظل يراسل الاميرة طول غيابه فى مراكش ويخلد ذكراه فى نفسها بالهدايا النفيسة (١) والذكريات المعنوية الجميلة مما جعلها تظن فى أنها تشغل مكانا سامياً من مخيلته، فلم تطق صبراً على بعاده وكان أهل القصر يواصلون سعيهم ويكررون أمنيتهم فى عودة محبوبهم الظريف. وحدث اذذاك أن ولى عهد السلطنة توفى وخلفه هشام فى ولايه العهد واحتاج الامر الى من يدير حركة ضياعه وتدبير شؤون أمواله فأشارت الأميرة باستدعاء أبى عامر لالقاء ادارتها الى عهدته وفي سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين هجرية عاد أبوعامر الى قرطبة بعد ان لهجت الالسنة بأفول شمسه وسقوط شأنه ودخلها ظافراً شامخ الرأس، حيث عهد اليه بادارة ضياع ولى العهد وبتولى ادارة الشرطة والدرك.

---

(١) دوزى

الفصل الخامس

فى العام الخامس والستين بعد الثلاثمائة مرض الخليفة الحكم واشتدت عليه وطأة المرض حتى لزم فراشه ، ولما أيقن من نفسه انه في مرض الموت وانه أصبح من المنية على قاب قوسين أو ادنى اضطرب باله وازداد قلقه لامر واحد : هو أمر ابنه هشام البالغ من العمر اذ ذاك احدي عشر عاما وكانت العادة المتبعة الي عهده فى امر الخلافة هو انتقالها بالارث من الارشد الى الارشد غير ان الحكم كان لا يطيق ان يري اخاه المغيرة متقلداً زمامها يوما ما . أضف الى ذلك ان كاهنا تنبأ له بأن الخلافة قد يتزلزل ركنها فى بنى أمية وتتقوض دعائمها ان لم يتقلدها اولاد من صلبه وهذه النبوءة جعلته يعتقد بأنه من اكبر الواجبات عليه نحو أمته اقناعها بقبول خلافة ابنه هشام من بعده

وأخذت زوجته صبيحة بناصره فى هذا الامر وعضدته فيما ذهب اليه من وجوب حصر الملك فى ذريته من بعده فان فكرة تنحية هشام عن منصب الخلافة هيجت عواطفها وأثارت مافي نفسها من كوامن الذكاء والفطنة فقدحت زناد الفكر أملا في الوصول الي حل مرضى وكانت كلما أمعنت فى البحث هالها الامر وأضناها لهيب الفكر . كانت تقول في نفسها : كيف تكون النتيجة اذا

لم يرض الشعب بخلافة هشام وكيف تكون العاقبة اذا ثارت ثائرة الاندلسيين ألا ينتهز أمراء الفرنجة هذه الفرصة لسوق جيوشهم على قرطبة وكيف تكون حالتها هي اذا لم يصبح ابنها الخليفة ؟ ألا تكون في هذه الحالة كمية مهملة مقضياً عليها بالانقراض والتلاشي ؟

كانت قد يئست من شفاء زوجها وأيقنت بأن كل يوم يمضي يدنيه من حافة القبر ، ولذا شعرت بوجوب الاسراع في التدبير واعمال الرأي لايجاد طريقة تحل هذه العقدة وما زالت تفكر وتقلب الرأي على وجوهه حتى توصلت أخيراً الى رأي صائب أوحت به الى الخليفة فسارع الى تنفيذه في الحال. وفي غرة جمادى الاولى من سنة ثلاثمائة وخمس وستين هجرية انعقد مجلس كبير (١) ضم كل ما في الاندلس من الاشراف والاعيان وأصحاب الكلمة العليا وذوي الحيثيات حيث قرأ الخليفة عليهم اقراراً بقبولهم تولي هشام للخلافة من بعده للتوقيع عليه ممن حضر ذلك المجلس .

لم يجبرهم الخليفة على توقيع الاقرار ولم يستعمل نفوذه أو تأثيره للضغط على حريتهم في قبول التوقيع ، غير أنهم لم يجدوا من اللياقة عصيان أمر رئيسهم وخليفتهم المحبوب فوقعوه عن رضا نفس وطيب خاطر . وفي تلك الجلسة أمر رئيس الكتاب

---

(١) ابن الزهاري

وكان من مماليك الاميرة بنسخ هـذا الاقرار وأخذ جملة صور منه لتوزيعها فى جهات مختلفة من الاندلس للتوقيع عليها من وجوه البلاد واصحاب الشأن فيها تحت اشراف ابن أبي عامر مأمور الضبط ورئيس شرطة البلاد . وقد ارسلت نسخ متعددة الى جهات اخري غير بلاد الاندلس ، مثل مراكش وافريقيا فكنت ترى عامة الشعب يتسابقون الى توقيعها مع الكبراء والاعيان حباً فى اظهار اخلاصهم وولائهم لخليفتهم

سر الخليفة من نجاح المشروع وقدر عمل زوجته هذا حق قدره أما هى وقد رأت انحلال قواه ودنوه من الموت . فقد بذلت ما فى وسعها ليكون ابن أبى عامر المفتش العام للقصر السلطانى ووصلت الى ما تريد كما كان منتظراً (١)

الآن وقد تم توقيع الاقرار وبدئ بذكر هشام فى خطب الجمعة بعد اسم الخليفة اطمأن بال كل من الحكم وصبيحة الا أن الظروف كانت لاتزال خطيرة ، فان للمغيرة أعوانا ومريدين على أهبة الاستعداد عند ظهور أي حركة تنبئ بسوء التدبير أضف الى ذلك ان أمراء الفرنجة المقيمين فى شمال الاندلس كانوا على ساق وقدم لتعبئة الجيوش واعداد الرجال ، يتربصون سنوح الفرص وقد سمعوا بمرض الخليفة .

---

(١) المقرى وابن الاثير

أخذت وطأة هذه الاحوال تزداد شدة وازداد تبعاً لها قلق الاميرة فانها كانت تنظر الى المستقبل ، الى يوم وفاة الحكم فترى أفق السياسة ملبداً بالغيوم ، فبدأت بالتدبير والتجهيز استعداداً للطوارئ ، بكل ما فيها من قوة وعزم غير أنها كانت رغم كل وقاية واحتياط لاتدري كيف يكون خروجها من تلك المشاكل ٠ فهناك المغيرة . أخو الخليفة هل يجب منازلته أو لا ؟ أم الاجدر مجابهة أمراء الفرنجة والاهتمام بما قد يحدث من الموقعين على الاقرار ظاهراً والمتمردين على الحالة باطناً كل هذه أمور خطيرة تستحق النظر والاهتمام ، لاتدري أية طريقة تتبع للتخلص منها فخصت هذه المشاكل ودققت النظر بمعونة المصحفي وباستمداد الرأى من أبي عامر لترتيب الخطط اللازمة ، وكانت وطأة المرض قد اشتدت على الخليفة ولم يبق لديها امل في شفائه وما كادت تطلع شمس اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلثمائة وست وستين هجرية حتى فاضت روحه الى بارئها

مات الحكم وقد حكم ستة عشر عاما كلها امان وسلام ، بالغاً من العمر اربعاً وستين عاما ، محبوبا من الشعب مبكياً عليه من اقاربه وأهله لفضله ومكانته بينهم ، تاركا دولته وهشامه وديعة في ايادى زوجته المحبوبة صبيحة وحاجبه الامين المصحفي وكاتبه النشط محمد بن ابي عامر . مات مطمئن البال ، مرتاح الضمير لوثوقه من حسن سياستهم وجميل تدبيرهم ولعلمه بأنه ترك وديعته

لاشخاص اكفاء لا تغمض أعينهم لحظة واحدة عن حفظها ووقايتها من كوارث الدهر ونوازل الزمان

في اللحظة التي توفى فيها الخليفة لم يعلم بوفاته سوى صبيحة والمصحفي وابن أبى عامر ومملوكان يسميان جوهر وفائق اما اهل القصر عدى هؤلاء فكانوا يعتقدون بأنه ما زال في فراش المرض لان صبيحة بذلت ما فى وسعها لكتمان الخبر ولعبت دورها بكل اتقان الى ان وفقها الله لتخليص الدولة من اختلال كبير يهدد البلاد . اهتمت اولا بالمملوكين ودبرت معهما امر كتمان الخبر عن الشعب وعن اهل القصر اما المصحفى وابن أبى عامر فكانت واثقة من صداقتهما مطمئنة لاخلاصهما . هنا فى هذه اللحظة ظهرت صبيحة بكل ما فيها من نبوغ ودهاء ، حيث كان مستقبل الاندلس فى يدها وأقل اهمال او خلاف يكفى لانتاج أخطر العواقب وبوقع بيت الزهراء فى يد المغيرة وقرطبة لحكم الحزب المخالف . ثم تقع الاندلس جميعها بعد ذلك فريسة فى يد الاعداء غير أن حسن الحظ خدمها ومكنها من اتمام دورها بأتقان خلد لها شهرة دائمة فى صفحات التاريخ اجل انها جاهدت وكافحت ولكنها انتصرت وتوفقت لتخليص التاج والعرش لابنها هشام وبذا تمكنت من الاحتفاظ بمكانتها ووقاية شوكتها ونفوذها بعد أن كانت من السقوط قاب قوسين اوأدنى

الفصل السادس

كان المملوكان ، فائق وجوهر ، من الجنس السلافى ، يحكمان على الف مملوك آخر فى القصر ومتصفان بالظلم والغدر والعمل لما فيه نكاية أهل الاندلس وكانا يحقدان على المصحفي وهو أيضاً يحقد عليهما ، ويعلمان بأن نفوذهما سيذهب أدراج الرياح منذ اليوم الذى يستولى فيه هشام على تاج الخلافة . وعندما علما بموت الحكم خطر ببالهما أمر تآمرا عليه سراً وعقدا النية على تنفيذه فى الحال فاستدعيا الحاجب بدون علم أبى عامر وأفضيا اليه بواقعة الامر وأعلماه بأنهما غير راغبين فى خلافة هشام وطلبا اليه مساعدتهما فى ذلك

أسقط فى يد الحاجب وعلم بأن أقل معارضة تورده حتفه فى مكانه فلم ير بدأ من التظاهر بالانحياز اليهما وأنه راض عن خطتهما ثم أفهمهما أنه من صالح العمل تركه في مكانه كحارس بينما هما يذهبان لاخراج الفكرة من حيز القول الى دائرة العمل

كان المصحفى يعلم بأن الاندلسيين الذين لم يذوقوا طعما لحكم الاوصياء بعد ، يصعب عليهم قبول مثل هذه السنة الآن . ان صغر سن هشام حجة قوية فى يد الخصوم لرفض خلافته ، فلا يبعد اذن أن تروج فكرة تنصيب المغيرة للعرش . اضطرب

المصحفى لهذا الامر وأخذ يقلب الامر على وجوهه ليتبين وجهاً للخلاص فعول على أن يستدعى أبا عامر الى تلك البقعه سراً ليتشاور معه فى هذه الكارثة المقبلة ثم التحقت بهما صبيحة عند ما علمت بوجودهما هناك وشاركتهما فى التدبير والتفكير لم تكن هناك الا طريقة واحدة لحل هذه المعضلة ، هو ازالة المغيرة من الطريق حقاً انها الطريقة المثلى ولكن من يقدر على تنفيذها . انجهت الانظار الى أبي عامر لانه أقدر الثلاثة على اتيان هـذا العمل . اذا قبل أبو عامر تنفيذ ذلك فانه ينقذ صبيحة من أشد الازمات وأحرج المسالك في حياتها بل هناك ما هو أهم من ذلك انه ينتشل ولى العهد من وهدة السقوط وبالاحرى ينتشل الاندلس من أحضان الفوضى والانحلال . انها لفرصة سانحة تجرب بها الاميرة صداقة محسوبها وربيب نعمتها

أمام هذه الظروف واصرار المصحفى لم يسع أبو عامر الا الاذعان فشمر عن ساعد الجد وذهب تواً الى قصر المغيرة يصحبه العدد اللازم من الجنود الاشداء للقضاء على حياة المغيرة

كان المغيرة شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، الا أنه جبان رعديد ، فما كاد يرى وجه أبي عامر ويده على قبضة السيف حتى قال له ونبرات صوته تدل على الخوف والاستسلام « انى طوع ارادتكم فافعلوا بى ما شئتم » فأخبره أبو عامر بوفاة

أخيه الحكم وبتنصيب هشام ابن أخيه للخلافة فأجاب : « انني أقسمت سابقاً على مبايعته أطال الله بقاءه »

حركت هـذه الحالة عاطفة الشفقة فى نفس أبى عامر وجعلته يمسك عن قتله ، حتى أنه خرج الى ناحية من القصر وكتب الى المصحفي رسالة يخبره فيها بعدم موافقته على الامر المتفق وأرسل الرسالة مع رسول خاص فلما قرأ المصحفي رسالته اضطرب لان المجال كان لا يتسع لاظهار مثل هذا التألم والاشفاق فكتب اليه فى الحال يقول : « انك بمثل هذا التردد توقعنا في ورطة أشد مما نتحملها الآن فهل أنت عازم على خيانتنا أيضاً ؟

وصل الكتاب الى أبى عامر مع الرسول نفسه فأنعم نظره فى الامر وقد جاشت عواطفه ولم يتمكن من اسكات ثائرة الشفقة القائمة بين جوانحه الا أنه مع ذلك لم ير بداً من اصدار الامر الى جنوده بالاجهاز عليه فانقضوا عليه وكتموا أنفاسه ثم واروا جثته فى احدى زوايا القصر

***

علم المصحفى بتنفيذ المشروع فسر فى نفسه وأبدى ارتياحه اما الاميرة فكان سرورها اشد وكان يلوح عليها مظاهر الامتنان والشكر لهذا العمل الذى كان سبباً فى زيادة تعلقها به

اذيع بعد ذلك خبر موت الخليفة وتقلد هشام منصب

الخلافة مكان ابيه فى اليوم الثانى كما كان مقرراً وبايعه الناس فى حفلة عظيمة سمى فيها بلقب (المؤيد بالله) وهو اذ ذاك لم يتم الحادية عشرة من عمره ، وقدم كذلك المملوكان ، فائق وجوهر ، طاعتهما للخليفة ومن ثم اختفى هشام عن العيان فى احدى زوايا القصر مع مربيه الذى عهد اليه فى أمر تربيته

تم الامر كما أرادت صبيحة وكما شاء ابن أبى عامر والمصحفي وظهرت الاميرة على مسرح الحكم علنا (١) اذ كانت الآن تحكم باسم الخليفة ابنها ، لانها أصبحت الوصية عليه فكان اليوم يومها والزمان زمانها ، كانت الحاكمة المدبرة لكل أمر منذ عشر سنوات الا أنها كانت تحكم من وراء ستار وكان لها نفوذ واسع ولكنه نفوذ عار عن الصبغة الشرعية أما الآن فقد استكملت نفوذها وظهرت بمظهر الوصية ، صاحبة الامر والنهى

أخذت في دورها العملى تنظر فى قرارات المجلس الاعلى وتبحث عن الوسائل المؤدية لاستتباب الامن في ربوع الاندلس وكان من أول أعمالها تخفيض الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الاهالى مما جعلها محبوبة لدى الشعب مرعية الجانب لدى الخواص لان رجال الدولة لم يقع اختيارهم عليها كوصية عبثاً بل لانها كانت مشهورة بينهم بذكائها ، معروفة لديهم بحسن درايتها فى سياسة البلاد (٢)

---

(١) قاموس الاعلام (٢) تاريخ الاندلس لغنيا باشا

كتب التاريخ المصورة لتلك الايام مشحونة بذكر سجاياها وسرد فضائلها ومزاياها أما شعراء عهدها فقد نظموا لها عقود مدح سارت بذكرها الركبان وشبهوها بالنجوم وأعلوا قدرها الى السماكين حتى طبقت شهرتها كل ربوع الاندلس

كل شيء فى تاريخ حياتها جميل ظريف، سوى أمر واحد يؤسف له جد الاسف، هو عدم كتابة خواطرها في مذكرات تعبر عما كان يخالجها من المشاعر والاحساسات فى الظروف المختلفة التى تقلبت أثناءها. لو كتبت مثل هذه الخواطر فمن يدرى أى الاساليب الشعرية الخالدة وأى المعانى السامية الخلابة كنا نجده فيها. كنا نجد لذة فى تصفح حياة تلك الاميرة وهي تروض النفس فى حدائق قصر الزهراء وتفكر فى ماضيها. هل كانت تتأثر الان بذكر لياليها الغرامية التي قضتها مع الحكم في نفس ذلك المكان !!

هل تذكر الآن أيام شبابها وتلك السويعات السعيدة التى كانت تشعر فيها بمحبة الحكم لها ؟ وهل لتلك الاويقات أثر فى نفسها أو هى نست حتى الايام التى كانت فيها تتغنى بين تلك الخمائل والافنان ؟

لوكانت لها مذكرات لكنا علمنا في أى مركز احساسها الآن أو كنا علمنا فيما تفكر وهى تمر فى طرقات تلك الحدائق .

هل كانت أفكارها معطوفة الى المستقبل أو انها تحترم الماضى أيضا فتلتفت اليه من حين لآخر ؟ من يمكنه ادراك مافي خفايا هذه المرأة المتعلمة القادرة ومن يعلم وجهة افكارها الآن ؟ ربما كانت تحسب ضحاياها وربما كانت تتأمل في حسن طالعها وربما كانت الآن تقلب صفحات حياتها الصفحة بعد الاخرى بلا قيد ولا روية

يحفظ لنا التاريخ أنها بعد الفراغ من أعمالها السياسية كانت تجلس على مقربة من بركة مزخرفة وسط الحديقة لاستنشاق نسيم المساء المعطر بروائح الزهور والرياحين، فى ذلك الوقت الذى يطير فيه المرء سابحاً فى عالم الخيالات، فى عالم اثيري بعيد عن ماديات هذا العالم الارضى

كم يشتاق الانسان الى معرفة تصوراتها وما يدور بخلدها فى تلك اللحظات اللذيذة القصيرة !! هل كانت أفكارها موجهة الى ابنها وأمر تربيته او انها كانت تفكر فى أمر الحياة لتعرف حقيقتها فتقول فى نفسها : ان هى الا رؤيا نرى فيها الحقيقة فى ثوب الخيال والخيال فى لباس الحقيقة أو أن تصوراتها تنحدر بها فى تلك اللحظة الي مظاهر الوجاهة وآثار النعيم والترف التى تقلبت في أحضانها منذ الساعة التى كانت تغنت فيها بين خمائل الحديقة؟ أو أنها تحصى الحوادث والصدمات التى تحملتها منذ ستة عشر عاما ؟

كلا كلا انها فى تلك الجلسات بجانب البركة، كانت تنظر الى النجوم اللامعة فى صفحة السماء لتقارن بينها وبين القصائد التى نظمت فى مدحها والتشبيهات التى قيلت من أجلها، وربما كانت لاتفكر لا فى شىء واحد ولا يشغل ذهنها الا أمر واحد هو غرامها وهيامها بأبى عامر....

آه من يدرى ذلك كل هذه أسئلة لا يمكن الاجابة عنها وستبقى سراً غامضاً الى الابد

لم أجد فى أى كتاب حبا يشابه حب صبيحة ولا نفسية كنفسيتها

وقد علمت بالبحث والتنقيب أن أبا عامر كان روحها وحياتها ولكننى بكل أسف عجزت عن وصف تصوراتها وافكارها فى تلك الساعات القصيرة التي كانت تتنزه فيها فى حدائق بيت الزهراء

الفصل السابع

قدم المملوكان فروض الطاعة ورضخا لحكم الزمان مؤقتاً، الا انهما لم ينسيا قتل المغيرة ومدبرى تلك المؤامرة ولذلك لم ينفكا عن تحريك الفتنة واذكاء نارها الخامدة كلما استطاعا الى ذلك سبيلا. اندفعا فى هـذا السبيل حباً فى الانتقام من المصحفى وابن أبي عامر وأوشكت ثمار اعمالهما تنضج، فان الشعب بدأ يشكو من احتجاب الخليفة عنه وأخذ الناس في مجامعهم يتحدثون عن صغر سنه وقد كان لهم بعض العذر فى التذمر لانهم في عهد عبد الرحمن وابنه الحكم اعتادوا أن يروا خليفتهم من وقت لآخر أما هشام فقد بقى منزويا في حجرات القصر منذ يوم المبايعة.

اغتبط لهذه النتيجة مدبروها وقلقت لها صبيحة، التى كانت تراقب مجرى الحوادث بعين يقظة، فاستدعت المصحفى وابن أبي عامر وطلبت منهما ابداء الرأي فى هذه الصدمة فقر رأيهما على اخراج الخليفة لشعبه وفعلا ظهر هشام للاندلسيين في حفلة عظيمة جمعت كل دواعي الهيبة والعظمة وكان ممتطياً جواده وعلى يمينه حاجبه المصحفى وعلى يساره ابن أبي عامر وقد زاد أبهة المهرجان اشتراك فرق عديدة من الجنود فى الموكب وفى نفس هذا

اليوم الغيت إحدي الضرائب (ضريبة السمن) عن كاهل الاندلسيين فهلل القرطبيون لرؤية خليفتهم وكبروا وقد ازدادو محبة له والتفافا حول عرشه

لم يفت ذلك فى عضد الملوكين بل أغراهما على التمادى فى إشعال نار الفتن وقد أدت بهما الجرأة إلى نصب حبائل مكيدة داخل القصر، كانت سببا فى فضيحتهما ونفيهما الى الجزيرة. أما أعوانهما واتباعهما فقد نالوا الجزاء الصارم من أبى عامر.

وبينما كانت الاحوال فى داخل البلاد على هذا الوجه كان أمراء الفرنجة فى الخارج قد اشتدت قوتهم وتعددت منهم حوادث النهب في البلاد الآمنة فقلقت صبيحة لهذه الحالة لعلمها أن قيام هؤلاء الاقيال دفعة واحدة بعد سكونهم مدة طويلة منذ عهد الحكم ينذر بقرب وقوع حروب شديدة بينها وبينهم، فأمعنت الفكر فى ذلك واستمدت كعادتها برأى الحاجب وصنيعتها أبي عامر فأشارا عليها بعرض الامر على وجوه الامة وأعيانها فجمعتهم فى مجلس عام وطرحت المسألة على بساط البحث والتدقيق وكان رأي سوادهم فصل المشكلة بحد السيف وقد خطبهم ابن عامر خطبة بليغة شرح فيها الاسباب الموجبه لشن الغارة على الاعداء وتأديبهم قبل استفحال الامر، فاستهوت خطابه ألبابهم ولم يبق فى المجلس نفر على غير رأيه غير انهم لفتوا

نظره الى نفقات الحملة وما تستدعيه من المصاريف ، فطلب منهم بيانا بجملتها فلم يحر أحدهم جوابا عند ذلك أجابهم بأنها ربما بلغت مائة الف دينار تقريبا ، فرد عليه أحد الحاضرين مستعظما ذلك فأجابه على الفور : (خذ إذا شئت مائتى الف وتول قيادة الحملة وخفف عن عاتقى هذه المسئولية) فأفحمت هذه الكلمات قول المعترض . وبعد أن وصل المجلس الى هذا الحد أخذ يفكر فى تعيين من يعهد اليه بقيادة الجيش وكانت هذه مشكلة جديرة بالبحث حيث لم يقبل أحد من الحاضرين أن يتولى مثل هذه المأمورية الا أن أبا عامر فض الاشكال بأن قبل القيام بذلك على شرط أن يدفع اليه مقدار النفقات وأن تكون له الحرية (١) فى انتخاب رؤساء الجيش . فرضى الحاضرون وباركته صبيحة ولم تتمالك من المجاهرة بأنها تؤمل النجاح فى مهمته وأنها مطمئنة على سلامة الدولة ما دام يعضدها فى ادارة الملك والدفاع عن حقوق السلطنة أمثاله من الرجال العاملين فرد عليها شاكرا حسن ظنها وقد ضمن كلامه بعض التلميح فى ضعف سياسة المصحفي ولين جانبها ازاء هذه الصعاب فلم تجبه صبيحة الا أنه فهم ما لكلامه من الاثر في نفسها

تحرك جيش الاندلسيين وعلى رأسه ابن أبي عامر حتى تقابل

---

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

بأمراء الفرنجه والتحم بجيوشهم فى معارك شديدة انجلت عن هزيمة الاعداء وانتصار المسلمين واستيلائهم على بعض المدن عدا الاسلاب الوافرة والغنائم الكثيرة ، وبعد حروب دامت خمسين يوما عاد ابن أبي عامر الى قرطبة مقر الملك، منصورا غانما ، تحف به رايات الفوز والظفر (١) لقد برهن على دراية تامة فى قيادة الجيوش وأظهر صفاته الحربية المغروسة فى نفسه ومواهب الفروسية الموروثه عن آبائه فأحبته الجنود ودهش من أمره من من كان يظنه على جهل بأمور الحرب وقد أعد القرطبيون لاستقباله يوما مشهودا وكان فى مقدمة المحتفلين بقدومه الاميرة وابنها الخليفة هشام وقد أغرقاه بطوفان من الانعامات وحسن الاستقبال وكان هو كعادته في كل الامور البطل الموفق ؛ مظهر احترام الاعيان والاشراف ومعقد آمال أهل القصر ورمز أماني العامة وطبقة الشعب ؛ وقد أجمع الكل على تسميته بالمنصور ، اعزازاً له واكباراً لشأنه ، واعترافا بخدمته فى تلك الحروب

أصبح الآن لايحفل كثيرا بالمصحفى . وعلاقاته بالخليفة رسمية محضة ، لعدم بلوغه سن الرشد أما صبيحة فحدث عن منزلته لديها ولا حرج فهل يوجد فى العالم مخلوق أسعد من المنصور ؟ ها قد تحققت آماله الذهبية الواحدة تلو الاخري بقوة

(١) دوزى

ساحرة وهالم يعض على حديثه مع رفقائه فى الجامعة أمد كبير حتى نال ماتمنى . ها هو الآن اكبر رجل فى قرطبة وهاهى الانظار موجهة اليه وها هو التاريخ خص له فى طياته صحيفه بيضاء لتدوين أعماله المجيدة ، ان الآمال التي كان يتصورها والمشاريع التى كان يرسمها وهو جالس فى حانوته الصغير بميدان قرطبة امام القصر قد تحققت جميعها . ذكر ذات يوم لاصدقائه بأنه سيكون حاكم الاندلس الفذ وها هو الآن الحاكم الحقيقي للاندلس ومن اكبر رجالات العالم الاسلامى

الفصل الثامن

استفحل نفوذ المنصور وارتفعت كلمته فى شئون الادارة والسياسه(١) وبنى له قصراً فخما بجوار قرطبة بل قل مدينته الصغيرة التي سماها (الظاهرة) فنقل مأمور والدولة مساكنهم بجوارها وأسس التجار والباعة أماكن لهم على مقربة منها حتى أصبحت تضارع فى شهرتها بيت الزهراء

كانت الظاهرة محاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزاهرة والأحواض الجميلة وبها من دواعى الأنس وموجبات السرور مايشهد لمنسقها بالذوق وكم شهدت هذه المدينة من ولائم المنصور واحتفالاته العظيمة ، تلك الاعراس التى بهرت أنظار الاندلسيين وأوقعتهم فى دهشة من مظاهر تلك الرفاهة !!

هل كان المنصور ، وقد وصل الى هذه المكانة وارتفع الى تلك الغاية التي ليست وراءها غاية يحب صبيحة وهو فى حالته هذه ؟ أم أن مايجيش بصدره من الاحساس لها هو أثر من آثار الشكر والامتنان لحسن صنيعها معه ؟

كانت الاميرة صبيحه تحبه وتقدس ذاته الى درجة الهيام ولكن هل كان لشعورها هذا رجع صدي وهل كان محمد المنصور

---

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

يخصها بحبه تكافىء هذا الحب ؟

إننى استناداعلى اعماله وعلى ما أظهره بعد تمكنه من إدارة الاندلس أقول : انه لا يحبها !... وإنما كان يحترمها ويظهر لها دلائل المودة والاعتبار ، لانها سبب نعمته ومنشأ رقيه واليها يرجع الفضل فى السعادة التى يرفل فى بحبوحتها الآن

قد ظهر الآن أمامها بثوبه الحقيقي وأصبح يأنف من رؤية يدها - تلك اليد التى طالما قبلها بأعزاز وتقديس - تشترك معه فى الحكم منذ أصبح يشعر بأنه في غنى عن حياتها ، نعم كان يتوق الى رؤية الاوامر غفلا من اسمها ليس عليها الا كلمة المنصور غير أنه لم يستطع أن يرفع لواء عصيانه دفعة واحدة فظل محافظا على سابق مودته لها ، يكلمها بلسانه العذب ويعاملها بلطفه المعهود ولا يقصر فى أمر يكون فيه راحتها ، وهو هو فى كل أطواره وحركاته التابع الامين والخادم المخلص للعرش والخلافه .

عرضت عليه ذات يوم جارية ليشتريها وكان نخاسها قد لقنها بعض أبيات وأمرها بأنشادها بين يديه

دخلت الجارية قصر المنصور وهناك فى حضرته امام جمع حافل من جلسائه غنت تلك الابيات بصوت رخيم ، فاسترعت الاغنية مسامعه وأخذ يصغى اليها باهتمام زائد وهو يجف من غضبه وما كادت تتم الانشاد حتى هجم عليها شاهرا سيفه والقاها على

الارض تتضرج بدمائها (١)

لماذا — لان الجارية نطقت بأبيات مضمونها التلميح بعلاقته مع صبيحة فلم يحتمل ان يرى اسم الاميرة مضغة في افواه الناس فأنزل العقاب بمن تجرأ على تلويث ذلك الاسم أمامه وأمر بجمع واحراق ماقيل في حقها من الهجاء ومجازاة قائليها بشدة دلت على مكانة الاميرة من نفسه

كان لا يشغل باله فى هذه الفترة الا أمر واحد أقلقه غاية القلق، هو استكانة المصحفى وظهوره بمظهر الضعف أراد ان يتخلص منه لان حاجب البلاد ترك مصالح الامة ليلتفت الى مصالحه الشخصية وكان المنصور يظهر هذا الامر لصبيحة ويشير اليه من طرف خفى وكانت هي كلما أمعنت النظر فى احوال المصحفى ازدادت وثوقا بصدق أقوال المنصور الذى كان يجتهد باعلاء شخص آخر بنسبة اجتهاده في اسقاط الحاجب ، هذا الشخص هو القائد غالب وقد تمكن أخيراً بمعونة المنصور وحسن وصايته ان ينال رتبة الوزارتين (٢)

بعد هذا وضع المنصور يده فى يد غالب واخترقا حدود المملكة فى سبيل شن الغارة على اعداء البلاد ، حيث كان أمله

---

(١) ابن الاطهارى

(٢) ابن خلكان

الوحيد جعل اسبانيا جميعها في قبضة يده (١) وسرعان ما تكللت أعمالهما بالنجاح، وأعقب غزوتهما هذه غزوات أخرى عقد للمنصور في جميعها رايات الظفر، حتى أصبح شخصه طلسم النصر لجيوش المسلمين لا يشن على الاعداء غارة الا يعود منها غانما رابحا.

واذهما منهمكان في خوض غمار الحروب واعلاء شأن الاندلس خارجا، كانت صبيحة تدبر شئون البلاد وتشيد ما يخلد ذكرها في التاريخ (٢) أما المصحفي فلم يبق له بعد ذلك أدنى نفوذ وأصبح يشعر متألما بأفول نجمه وادبار طالعه لقد انفض من حوله الناس ولم يبق من يعضده من الامراء (٣) والكبراء وقد آذى الكثيرين منهم بغروره وكبريائه أيام أن كانت له الدنيا ومع ذلك عز عليه ان يترك مركزه بسهولة وانقياد فأراد أن يجرب حظه ويقامر بآخر جهوده، علم شأن غالب فأراد أن يتقرب اليه يأن يزوج ابنته اسماء من ابنه عثمان وما كاد يخطر في باله هذا المشروع حتى كتب اليه في الحال يعرض عليه ذلك

فكر غالب في الامر مليا وقلبه على وجوه كثيرة، وفي النهايه اقتنع بنفع هذا الزواج فكتب اليه يخبره بالقبول ففرح

(١) تاريخ الاندلس

(٢) تاريخ الاندلس لضياء باشا

(٣) دوزى

المصحفى بذلك وقد كاد يطير من شدة مانا له من السرور وشاع خبر هذه الخطبة وذاع ، حتى وصل أسماع المنصور ، فلم يشأ ان يصدق بادىء ذى بدء الا انه عند ماتحقق صحتها استشاط غضبا والتجأ الى كل باب من الابواب التى رآها مؤدية الى منع هـذا الزواج وكان منه أن استدعى غالب ووسوس اليه بالضرر العائد عليه من أمر الخطبة وان زواج ابنته من مثل عثمان لايولد شرفا ولا يكسبه فخرا لان المصحفي لاينتسب الى بيت حسب ونسب فاحتار غالب فى أمره ولم يجد لنفسه مخرجا من ذلك المأزق . لم تكن حفلة الزفاف قدجرت بعد ، الا أن الخطوبة كانت قد تمت فماذا يفعل الآن ولقد ندم ولا ندامة الكسعى ؟ ولكن لات حين مندم ! فما كاد المنصور يرى منه ذلك حتي أضرم فى نفسه مايذكى نيران ندمه بقوله : « ان ابنتك جديرة بمثلى فهل تقبل أن تزوجها منى ؟ »

أدهشه هذا التصريح لانه ما كان يعتقد بنوال مثل ذلك الشرف ، فقبل مسرورا أن تزف ابنته الى أكبر رجل تعرفه الاندلس ، أما المنصور فكان فرحا فى سره لتمكنه من احباط خطة منافسه المصحفى ، فأصبح بعد ذلك من أسهل الامور عليه عزله من منصبه لاسيما وقد كانت أغلاطه ظهرت لصبيحة ، فتم له ما أراد وزاد من نكايته له رجوع غالب عن كلمته ورفضه زواج

اسماء من ابنه عثمان .

ارتقى المنصور الى درجة حاجب ، أى وزير الوزراء ، كما كان المنتظر !! فيكون قد وصل الدرجة الاخيرة من عرش آماله الذهبية وجلس مفتخراً على أريكتها العلياء ، ولقد أصبح بعد تلك الحادثة معكس أنظار العالم الاسلامى فى جميع الاقطار اذ كان رقيه سريعا ، مدهشا لدرجة انه هو نفسه كان فى حيرة من أمر هذه السعادة وحسن ذلك الطالع .

آرأيت أيها القارئ كيف يكون سحر الحب وفعله العجيب !.

الحب هو الذى خلق هذه المعجزة والحب هو الذى أخذ بيد كاتب صغير لم تحنكه التجارب الى ذورة المجد وسنام العظمة .

المحتكون بالمنصور ، الحائمون حوله ، ذهلوا من رقيه السريع بينما كانت صبيحة تبارك نفسها لاتحافها الاندلس بنابغة قل أن تجود الاجيال بمثله (١)

مصاهرة المنصور لقائد مثل غالب ، صاحب المنزلة الكبيرة في نفوس القبائل القاطنة مراكش وشمال افريقية ، أمر ارتاح اليه جد الارتياح ، حيث كان يطمع فى مد نفوذه وشهرته حتى تلك الاصقاع فكم سهر الليالى وهو يذهب بتصوراته الى تلك البلاد ويبنى القصور والعلالى لادارتها وتسخيرها الحكمة كما يريد ويشاء فها هي الان فى مقدوره ومتناول يده

---

(١) دوزى

لندع المنصور جانباً بين آماله وأمانيه ونفكر قليلا فى حاله صبيحة الروحية فى تلك الفترة ؛ فالى أى حد وصلت تصوراتها ياترى ؟ وكيف قابلت تلك الصدمة ، صدمة زواج حبيبها وأعز مخلوق لديها بامرأة أخرى وكيف رضيت هى بمثل هذا الامر وأمكنها اسكات النزاع القائم في نفسها وامتلاك شعورها والتوقيع على عقد النكاح بيدها ودعوة غالب وابنته الى قرطبة ومقابلتهما بحفاوة وسرور

لم يكن فى مقدورها تدبير أمر بعكس هذه الحالة لانها لم تستطع أن تجري مع عواطفها . لقد منعها مركزها السامى من اظهار ما فى نفسها من الآلام والامال . ان سمو مقامها وقف فى سبيل منع المنصور من مثل هذا الأمر المؤلم ، فلم تر بداً من الاستسلام لحكم الاقدار ومقابلة الضربة بشجاعة وثبات — لقد أبدت شجاعة تفوق حد التصور والادراك فى كتم عواطفها ، وظهرت بمظهر الرزانة الجديرة بملكة جليلة القدر عظيمة الشأن فأشرفت بنفسها على حفلة الزفاف التى دفع الخليفة جميع نفقاتها . قد يكون فى نفسها بقية من الأمل ولم لا ؟ ألم يكن الغرض من هذا الزواج سياسيا ؟ ان الزواج المبنى على غرض مخصوص يكون ذا أساس واه لا يبشر بدوام البقاء والخلود . كان الغرض من هذا الزواج أن يكون سهام تحقير مسددة إلى صدر المصحفى ، فليس فى

الأمر ما يوجب القلق .

بمثل هذه الآمال كانت صبيحة تعلل النفس الى أن تم الامر وزفت أسماء الى المنصور ، حبيب الاميرة وأقرب الناس الى نفسها ، فى العام السابع والستين بعد الثلاثمائة من الهجرة النبوية

كانت الحفلة من أحسن حفلات الاندلس فى التاريخ ، وذات أبهة ملوكية قل أن يسمح الزمان بمثلها ، وقد زاد من بهائها أن الاميرة نفسها كانت زينتها وبهجتها . أما موكب العروس فحدث عن فخامته ولا حرج . تقاطر الناس لرؤيته من كل صوب وناحية مدهوشين من عظمته وجلاله . ولقد شاءت الاقدار أن يكون ختام العرس السياسى مقرونا باليمن والسعادة فقد كانت العروس ذات جمال نادر ، على جانب عظيم من الظرف والكياسة والادب فافتتن المنصور بها وملأت نفسه بملاحتها الروحية ، حتى أصبح لايرى غيرها من النساء ولا يصبر عنها ساعة واحدة . لقد أحبها محبة غير محدودة ، حباً يماثل غرام صبيحة له فتصور حالة الاميرة الروحية اذ ذاك وهى منعزلة فى بيت الزهراء ، تقاسى مرارة الهجران ؟ . .

لم تكن صبيحة اذ ذاك في نضارة الشباب . لقد انقضى موسم الأمانى العذبة وفات أوان الاسترسال في التأمل والتخيل . لقد انطفأت شعلة آمالها ولم يبق لديها مايذكى نيرانها ، فليس أمامها الا رماد من اليأس . لقد أنزلت بمحض اختيارها الستار

على رؤيا غرامها ، واضطرت أن تفتح عينها فى نور الحقيقة المؤلمة ؟...

ولكن بعد هذا ما ذاهي فاعلة ؟ وما الذي تستطيعه وبأى الألوان تصبغ حياتها الآن ؟ هل تنزل الى حدائق قصرها وترمى بنفسها في أحضان الورود والزنابق والياسمين لتجد التسلية فى مناظرها وما يتصاعد من شذاها وعبيرها ؟ انها الآن فى خريف العمر ومن كان في مثل سنها لا تسليه هذه الاشياء . ان هى الا امرأة بائسة كسيرة الخاطر ، انتهى غرامها على غير ما تشتهي ، ولكن قد حم القضاء ووقعت الواقعة فتزلزل بنيان عشقها وانهار : فهى الآن تشاهد بين الأنات والاهات أنقاض ما تخرب من احساسها وتنظر وعيناها مملوءتان بالدموع فى القطع المبعثرة من آمالها المحطمة ، فتشفق على نفسها عندما ترى الاجنحة الدامية من خيالاتها السابقة ترفرف حائرة على تلك الخرائب

كان تقهقرها مدهشاً فيالهول الهزيمة !! ما أقرب الاتصال بين نقطتى الفوز والاندحار !! ليست السعادة اذن الا غشاء واهي الجدران ، مؤسسة دعائمه على شفا هاوية عميقة ولكن ما الفائدة ؟ كل هذه ملاحظات ترد الخاطر بعد فوات الوقت وضياع الفرصة ...

***

تحملت صبيحة ما أصابها وتلقت الضربة بشجاعة نادرة ولكنها بذات فى سبيل ذلك ثمنا غاليا ، هى دموع القلب التى كانت تسكبها وهى جالسة على عرش الحكم والادارة . يالله كم كانت اناشيدها التى ترنمت بها فى ليالى الصيف مؤثرة حزينة ذات نغمة محرقة ؟ لاريب انها بعد الانتهاء من أناشيدها كانت تفتح غرفتها ترحب بالنسيم وربما ألقت فى مسامعه مايخفف من لوعة قلبها

فان الصبا ريح اذا ماتنفست * على كبد حراء قلت همومها

من لنا الآن بمعرفة كلماتها في تلك الساعات التي كانت تخلو فيها الى النجوى ولكن هيهات قد أطارت نسمات الاندلس تلك الكلمات وقذفت بها الى أعماق اللانهاية

الفصل التاسع

أخذ المنصور يمهد على مهل سبيل حصر النفوذ في يده فأبعد الذين توسم فيهم روح التمرد والعصيان ومجابهة ما كان يتصوره من الآمال والاحلام ، ونفاهم من قرطبة مركز الحكم والخلافة حتي لا يكون بينه وبين ما يرمى اليه حاجز أو عقبة ، فضرب بيد من حديد أولئك الذين أرادوا الدخول فى شئون الادارة واحداث القلاقل والاضطرابات حول عرش سلطانه المطلق

كان لا يقبل نصيحة انسان ويفهم الذين حوله بكل حركاته وأطواره أنه فى غنى عنهم وعن مشورتهم وما يقدمونه من مناصرة ومعاضدة

أصبح الآن يتضايق حتى من نفوذ حماه القائد غالب وقد تمكن أيضا من ابعاده كما أبعد الصحفي من قبل

هنا في هذا الموقف لم يبق بينه وبين أن يعيش حر التصرف كما يشاء ويهوى الا ظل شخص واحد ، ذلك الظل هو الاميرة صبيحة

نعم أصبح لا يهتم كثيراً بما لها من نفوذ ولا يعبأ بسيطرتها ، ففكر في أن يتخلص من نفوذ هذا الظل أيضا وسعى باحثاً عن الوسائل المؤدية لدفعه دفعاً حثيثاً الى أن توفق الى هذه الغاية

أيضا وتكالمت مساعيه بالنجاح

انه كان مضطراً الى التظاهر بالاحترام والخضوع لولية نعمته ولكن نظرات الاميرة كانت تتخلل ماوراء هذه المظاهر من حقيقة مؤلمة فتشعر بما يخالف هذا الاحترام من فتور واضح . فضى الامر فليس ثمت داع لاعادة الماضى بذكرياته العذبة وخواطره اللذيذة أمام أبهة الحاضر !...

لم يكن المنصور من أولئك الذين يتأثرون بالذكريات الماضية من أيام صباهم وأزمان لهوهم ان الوقائع لتمر به تاركة أثراً خفيفاً فى حياته . انها لأسطر مكتوبة على الرمال تعبث بنظامها أخف الرياح هبوبا فلذلك أمر بأن يقرأ اسمه فى خطب الجمعة مع اسم الخليفة ، غير مكترث لنقد الناس وماتلوكه ألسنتهم

صار الناس يقرأون اسمه على النقود ويشاهدون توقيعه فى ذيل الأوامر والقرارات

ولكن ألم يعمل على راحة الشعب وطمانينته ؟ أليس هو الساعى فى نصب ميزان العدل فى ربوع الاندلس فلا نستكثر عليه اذن طموحه الى لقب (الملك الكريم) بعد أن كان حاجبا

الأمة لاتنسى خدماته ومآثره فلا تستغرب سكوتها الآن ازاء هذه المظاهر الجديدة ، أما الخليفة هشام فكان فى هذا الوقت العصيب منزويا فى مجاهل القصر ، بعيداً عن أضواء السياسة

وضجيج الادارة ، منقاداً لهواه مخرباً أيام شبابه بلا نفع ولا جدوى .
قد تمر عليه فترات يحلو له فيها التجرد عن الماديات والغوص في لجج الروحانيات فيزهد رؤية الناس كثيراً وينكمش منزوياً المدة طويلة . هذا هو الخليفة هشام ابن صبيحة ، وعلى هذا الطراز كان يقضي أيام حياته

قال مربيه : (ظهرت عليه في صغره علائم الذكاء والفطنة) الا أن تربيته التي تلقاها منذ وفاة أبيه لم تكن كافيه لانضاج مداركه واكمال مواهبه فظل ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن الثالث خاملا وعاش عاجزا جبانا متردداً عارياً عن العزم والادارة ، أقل الملوك شأناً في أسرة بني أمية

هـذه الاخلاق الضعيفة ، حركت عوامل الطمع في نفس المنصور وحدت به الى الطموح نحو العرش وجملته يعزم على ارتقائه العرش في بيت الزهراء بدلا من هشام كان (الملك الكريم) فأراد أن يكون الخليفة

اختلف المؤرخون في هذا الامر لأن معظمهم يقول بقيام هذا الامل في نفس المنصور وأنه سعي جهده لاخراج مشروعه من دائرة الفكر الى حيز العمل ولولا خشيته من النتائج لتم له ما أراد

اهتم أولا أن يكون الخليفة منسياً من شعبه دون أن يزعزع أركان الخلافة فسعي في أن يقلل خروج الخليفة من قصره

وكانت الظروف فى جانبه لان هشاما كان لايراه الناس فى الجامع الا قليلا واذا خرج من قصر لآخر متنزها خرج وهو ملتف بالبرنس فكان يرى بعين الخيال وهو مسرور مشرح الفؤاد أن آماله ستتحقق بلا اضطراب ولا شغف

فهمت صبيحة مراميه وشعرت بأغراضه ومقاصده فأرادت أن تراقبه من على كثب ولم تطق بعد ذلك استبداده ولم تستطع صبراً على رؤية العرش مهدداً فزجت بنفسها فى الميدان لتحافظ على كيان ابنها وتنقذ عرشه

بذلت كل مافى نفسها من جهد وعزم ، الا أنه لم يكن فى يدها الآن شئ من القوة

وقد شعرت بهذه الحقيقة عندما تقدمت الى الميدان ورأت أن رجال المنصور وأعوانه شاغلون أهم المناصب فى أقلام الحكومة وادارانها وفي كل ركن من أركان الادارة حتى فى قصرها بيت الزهراء

كانت تهم فيصادفها ألف عقبة وعقبة ، تتقدم خطوة الى الامام فتقابلها عثرات وموانع . لم تكن مالكة لاستقلالها ، لقد كبلها المنصور بخيوط دقيقة تخفى على الناظرين ولكنها خيوط قوية يصعب الافلات منها ، فصبرت حتى اشتدت عزيمتها وقام فى أعماق نفسها دافع يسوقها الى رفع لواء التمرد والعصيان اذ كانت تقول في سرها ما هذه الجراأة ومن أين لأبى عامر كل هذا النفوذ أين

كنت انا وكيف أري ذلك بنفسي آه ان الرجال الشاغلين للوظائف في قصري كلهم معروفون لدي ولكنني ، أعلم انهم من اتباع المنصور

كيف لها أن تعلم ذلك . لم يكن وقتئذ فرق وأحزاب ورجال تتحيز لرجال كانت متحدة مع المنصور فكرا وعقلا، متفقة معه قلبا ولسانا . كانت يدها مع يده في كل أمر وكل مشروع ، فترى فيمن يعينهم المنصور أنهم رجالها الصادقين فليس سبيل الى سوء الظن ، كان الزمان زمان اخلاص واتحاد أما اليوم وقد زال ما بينهم من طمأنينة فابتدءا يراقبان حركات بعضهما وقد تنقب كل منهما ببرقع النفاق فهي الان تنصب له الفخاخ سرا وقد علمت بآماله وأمانيه فسعت أولا في جعل رجال القصر محببين منها وقد أظهرت في هذا السبيل همة جديرة بالتقدير والاعجاب

تبدلت الحال بغير الحال وصار قصر الزهراء مسرحا للفتن والدسائس وصبيحة تراقب ذلك بسرور ولا تألو جهدها لانقاذ ابنها ونفخ روح الحياة في نفسه الخامدة

ماكانت تهتم بذلك قبل الآن وتسعى في ايقاظه من ذلك الخمول فقد كان عاجزا خاملا لا يشعر بالحاجة الى سؤال الوزراء عما يفعلونه أو يدبرونه من الامور

لم يسبق لصبيحة أن اهتمت بشأن ذلك العاجز المسكين وأن ترجع اليه في الشئون الخطيرة ، أما الآن فانها تشعر بعد أن وقعت

الواقعة ورأت اقتراب العاصفة التي تكاد تقتلع عرش ابنها انه محتم عليها ان توقظ هشام من غفلته العميقة وقد تم لها ما أرادت فسعت في تنفيذ خطتها سرا دون أن تدعو محمداً المنصور يعلم فانها كانت تذهب صباح كل يوم لزيارة ابنها فى غرفته الخاصة وتورد له الاحاديث الطويلة والمباحث المهمة لتزيل ما على قلبه الغافل من صدأ المطالة والجمود

تعبت فى سبيل غرضها وسهرت الليالى الطوال ترتب الدروس المؤثرة التي تحرك النشاط فى هذا الدماغ العاطل ، فشقت وتألمت وكدت ، لكن مساعيها أثمرت وظهرت لها نتائج خطيرة ذات بال ، فقد حدثت معجزة فى بيت الزهراء . استيقظ هشام من نومه . استيقظ الخليفة المنهمك فى أذواقه من تلك الغفلة ، دبت فى نفسه عوامل الحياة وأراد أن يدخل المعترك ويشترك فى الحكم وأن يفهم ويشعر وتكون له ارادة وسلطان

استمرت صبيحة تلقى على ابنها دروس الانتباه واليقظة حتي استفاق من سبات غفلته وتذوق طعم الرياسة وحلاوة الامر والنهى بدرجة استرعت انظار الملتفين حوله بما فيهم المنصور ، وهو أكثرهم دهشة وأشدهم حيرة وقد علم ان هذه المعجزة الباهرة انما أثر من آثار صبيحة

صار الخليفة الان يشدد التفكير ويبحث وينقب ويطلب

الايضاحات اللازمة عن حساب بيت المال ووجه الى المنصور أسئلة دقيقة ما كانت لتخطر له بال حتى انتهى به الامر الى أن يعامله بفتور وبرود

لم يكلف المنصور نفسه عناء البحث عن سبب ذلك . كيف يسأل عن السبب وهو لا يرى مولاه الخليفة ولا يتقابل به الا بحضور والدته صبيحة ؛ أظلمت الدنيا فى وجهه وشرع يتلمس سبيلا لمقاومة الخطر فصال صولة فى ميدان الكفاح انتهت بطرد وابعاد بعض من اشتهر فى اخلاصهم من موظفى قصر الزهراء ولقد غضبت صبيحة لهذه الصدمة غضبة مضرية، كانت سبباً في اشتداد عزيمتها وزيادة همتها فأعملت فكرها لتنتقم لنفسها من هذا الغريم الشديد البأس واهتدت اخيراً الى فكرة سديدة فاستدعت بعض عبيدها المحررين وكلفتهم بالتوجه الى جهات مختلفة من الاندلس وافريقيا ومراكش لأفهام الشعب بمركز خليفتهم واذاعة خبر ضعفه وطموح المنصور الى مقام الخلافة ، فراجت اشاعتهم وانتشرت فى طول البلاد وعرضها ومنها علم الناس ان خليفتهم وقع فى أسر ظلم معنوى وانه راغب فى التخلص من هذه القيود ليحكم شعبه على سنن العدل ومناهج الانصاف لولا حيلولة المنصور بينه وبين مايريد

أدى رجال صبيحه ما كلفتهم به بأمانة واخلاص فاجتازوا

جبل طارق الى افريقية وتمكنوا من اكتساب مودة ومظاهرة والى مراكش لهم وهو يومئذ زيري بن عطية الشهير ، زعيم قبيلة الزيرين وما كاد يسمع بهذه الحوادث ويعلم ان الخليفة تحت أسر المنصور واستبداده المعنوى حتى احتدم غيظا وشرع فى تجريد قوة من رجاله ليرفع لواء العصيان والتمرد فى وجه المنصور ، انتصاراً الخليفة البلاد ولكن كان يعوزه المال لتنفيذ العمل ، فسرت صبيحة بهذه النتيجة وبادرت باسعافه

كانت خزينة الدولة فى دائرة خاصة داخل قصر الزهراء وبها من الأموال ما يقدر بنحو ستة ملايين دينار فسحبت الاميرة من المال مبلغاً قدره ثمانون الف دينار وضعته فى مائة جرة مختومة أفامها بالعسل ، دفعا للظنون والشبهات ، ودفعت هذه الجرار الى رجال أمناء لتوصيلها الى مكان معين وبذلك تمكنت من ايصال المال الى مراكش بامان وسلام

كانت صبيحة تعلم قدر والى مراكش وتعلم أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مقاومة عدوها المنصور وبذلك لم تأل جهداً في مساعدته . على أن خبر هذه المساعدة اتصلت بمسامع المنصور ، فافزع في روعه لانه لم يتوقع حدوثها وكأنى به يقول هل للخليفة علم بذلك ؟ والا كيف تمكن واخرج المال من أبواب القصر ؟ اشتدت حيرته واضطرمت احشاؤه بنيران الغيظ والكمد وأصبح ينظر

الى افق المستقبل فيراه متلبدا بسحب الاكدار وغيوم الاضطرابات فهل هو الآن امام عاصفة قريبة تقتلعه من مركزه ؟ كل هذه أمور فكر المنصور فيها مليا وبعد طول البحث واجهاد الفكر استدعى وزراء الحكومة ووكلاء الدولة لمجلس عام عقده فى قصره حيث أبلغهم بحدوث سرقة مبالغ كبيرة من مال الدولة وانه علم بعد البحث والتنقيب أن السرقة تمت بدلالة نساء من قصر الخليفة وعلى أثر دهشة الوزراء بذلك اقترح عليهم نقل الخزينة الى دائرة أخرى بعيدة عن مكانها الحالى فأقره المجتمعون على ذلك . وبينما كان الرجال المكلفون بتنفيذ الاقتراح على وشك نقل الاموال المودعة بالخزينة ، دخلت عليهم صبيحة وصاحت فيهم تقول : « ماهذا الجرأة : كيف تقدمون على ارتكاب مثل هذا الامر دون اذن الخليفة . انى آمركم ألا تمسوا الخزينة لانه غير راض عن نقلها الى مكان آخر »

لم يجد اتباع المنصور بدا من اطاعة الامر أما الملك الكريم أى المنصور فاشتدت حيرته وزادت هومه حينما بلغه الامر ولكن كتمه فى أعماق نفسه مكرها مرغما والا فما الذى يستطيعه وكيف يخالف امر الخليفة جهاراً ويرفع لواء العصيان فى ظروف قاسية لاتسمح بأدنى خلاف بينه وبين العرش ، لاسيما وقد طرقت مسامعه الاشاعات التى اجتهدت صبيحة فى ترويجها بين عموم الشعب ؟

لا يعرف الناس شيئاً عن هشام ولا يذكرون الا اسمه ولكنهم مازالوا يقدسونه في نفوسهم لانه ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن وسليل الاسرة الاموية . اذن ليس في الامكان اظهار التمرد جهاراً بياناً فما هو الطريق المؤدي الى تحويل مجرى الحوادث ؟ هل يقبل المنصور على نفسه الانكسار والخضوع بعد ان وصل بكده وبسعيه اوج العز والاقبال ؟ ايخفض الان جناحيه بعد ان كان يبسطهما لحماية سواه ؟ كان لا يحني رأسه ولا يرضى بالمذلة يوما ما . كان سلطان الماضي وهو الآن امير الحاضر فيجب على المستقبل ايضاً أن يطيعه . كيف يرضى المنصور ، ذلك البطل الذي رفع لنفسه لواء نصر دائم الخفقان في طول البلاد الاسلامية من أقصاها لاقصاها أن يذهب ضحية حيلة سياسية اتتها صبيحة كيف يستطيع صبراً على الاندحار بعد تقدم دام عشرون عاما كان عليه ان يواجه الخليفة بمفرده . ان هشاما لينحني امام وزيره اذا تقابلا على حدة دون ان تكون معه والدته ، تعضده وتظاهره . كان المنصور يعلم موضع الضعف من مولاه الخليفه ويعلم انه لا يستطيع ان يقابله ببرود وان يشدد عليه النكير الا اذا كانت معه الاميرة . اما اذا لم تكن هي بجانبه فكل عزم الى ضعف وكل شجاعه تنقلب الى جبن وانهزام وكانت صبيحة تعلم هذا الامر وترى أن ابنها لا يستطيع الثبات امام نظرات وزيره الحادة ولا يتمكن من الدفاع عند

مايسل عليه لسان طلاقته وسلاح بيانه ولذا كانت تخشى عاقبة تلاقيهما على انفراد وتخاف ان ينهدم بناء سياستها رأسا على عقب فى لحظة واحدة انما المنصور سعى ، واجتهد حتى توصل بمعونة رجال القصر أنفسهم الى مقابلة مولاه مقابلة سرية دون أن يعلم به أحد . كانت الاميرة صبيحة ملكة ذات سياسة وتدبير حنكتها الظروف والايام وزادتها التجارب خبرة فى الحياة وانما لم تكن سعيدة الحظ مثل المنصور ولذا كتب عليها الانحدار والفشل فى نهاية الامر

عند ما مثل المنصور بين يدي الخليفة لم يعبأ بما نال مولاه من الدهشة والاضطراب بل ابتدأ الكلام بما يريده من القول بسلاسة وطلاقة اشتهر بها حتى أثر على الخليفة رضيق دونه المذاهب فنسى أنه الخليفة وأنه صاحب النهى والامر وأن فى يده قوة غير محدودة ونسى تعليمات والدته ووصاياها أمام نظرات المنصور وأمام سحر بيانه وطلاقته ولم يتردد فى الاعتراف بعجزه (١) عن الحكم وتدبير الملك وأنه سيتنازل له عن كل سيطرة وسلطان ولا يتداخل فى شئون البلاد وأنه يرضى بنقل الخزينة خارج قصره اذا شاء وزيره المنصور . لم يكتف المنصور بهذا الاقرار بل انتهز هذه الفرصة واستدعى بعض وكلاء الدولة

---

(١) دوزى

وأشهدهم على هذا الاعتراف بعهد موقع عليه من الخليفة ومدون فيه ما تعهد به لوزيره شفوياً (١) وقد أمضى عليه الوكلاء لاثبات شهادتهم

حدث هذا الامر فى العام السابع والثمانين بعد الثلاثمائة من الهجرة وبهذه الحادثة نال المنصور أكثر مما كان يتمناه ويحلم به بسهولة لاتخطر على بال

أعلن العهد بعد ذلك وعلم الناس بخبره فأصبح من العبث التمرد والعصيان فى سبيل سلطان عاجز عن الحكم ، يعترف بلسانه أنه ضعيف فاتر العزيمة ، يكل أمور الدولة ومهام السلطنة الى وزير صادق هو المنصور — لم يكتف بهذا الانتصار بل أراد أن يظهر للناس أن خليفتهم وقع على العهد باختياره وارادته وأنه لايوجد ثمت خلاف أو نفور بينهما ، فاستصوب أن يخرج اليهم بجانب الخليفة راكبا فرسه في موكب عظيم لهذا الغرض وقد تم له ما أراد . ما الذى يستطيع أن يعمله الانسان لاسير لايشكو من أسره ، يعيش باختياره تحت النير ، لحاكم يعترف بعجزه عن الحكم ، لسلطان لايتأثر من التنازل عن نفوذه واقتداره لغيره ، لخليفة لايرى بأسا من الخروج الى شعبه غداة اعترافه المخجل . اللهم لاشئ سوى الأسف والتألم ولقد كان من حسن حظ

(١) ابن خالدون

المسلمين ان وجد فى عصر حاكم عديم الحس مثل هشام . وزير مقتدر مثل المنصور ليستبد بأمور الدولة فلو بقى زمام الحكم فى يد الخليفة لما تردد من فتح أبواب قلاعه لامراء الفرنجة وأن التاريخ لا ينسى قوله للعصاة وهو فى محبسه بعد وفاة المنصور « انقذونى وأنا أعدكم حتى بالعرش » (١) فهل هناك (٢) أمل فى انقاذ حاكم هوى بنفسه الى هذه الدركة ورضى بأن يشرب كأس الهوان حتى الثمالة لم يكتب المؤرخون شيئاً عن حالة الاميرة عند سماعها باعتراف الخليفة وماذا عساها أن تقول فيمن لا يخجل من ترجيح الاسر على الحرية بعد سعيها المتواصل فى سبيل ذلك فاذا استطاعت أن تعمل شيئا بعد ذلك فلمن ؟ هل لا بنها القائل بنفسه (لا أريد ان أحكم فى بلادى) ان دناءة ابنها كان انكساراً ثانيا لا آمالها . لم تكد جراحها التى أدماها المنصور تلتئم حتى أصابها ابنها بجرح آخر فى صميم قلبها ادمى احساسها الوالدى .

مع كل ما مر بها من الآلام وما عانته من المتاعب لم تشأ ان تريح نفسها حتى فى ايامها الاخيرة . انهدمت قصور آمالها وضاع نفوذها وانخفض جناحها ولكنها مع ذلك لم ترض ان تقبض يد همتها عن شعبها ، اهالى قرطبة المحبوبين منها .

---

(١) دوزي (٢) الامير علي

همة صبيحة أكبر من أن تكل ونفسها العالية لا ترضى بحياة العطالة والكسل لم تتداخل فى شئون الادارة ولكنها خدمت أمتها من طريق آخر وعملت على سعادتهم ورفاهتهم من سبيل غير سبيل السياسة ، فقد بذلت ما فى وسعها لانشاء المساجد والمستشفيات وبناء المدارس والملاجئ وبينما كان المنصور يدير حركة البلاد بمهارة وحذق ويختم حروبه بالنصر والظفر ، كانت هى تحفر الجداول والعيون وتنشىء القناطر والجسور وتجتهد في اكتساب حسن الاحدوثة وجميل الذكرى بين قومها ، ان أعمالها النافعة وحسناتها العديدة أدهشت حتى جيرانها أمراء الفرنجة الذين لم يتمالكوا من اعظامها واجلالها والاعتراف بمالها من فضل وخير فأقاموا الحفلات بشرف ذكرها عند اتمام طريق مائى مهم وقد ركزوا عليه لوحة لتخليد ذكرها بهذه العبارات

« بنى هذا الطريق المائى بهمة الاميرة صبيحة أم أمير المؤمنين الخليفة هشام جزاها الله خيراً فبمروءتها وفضلها لم تحرم ولايتا (السيجيا وكارمونا) (١) من الماء » أما المنصور فقد وجه همته الى رفع شأن الاندلس بالغزو والحروبات فاستتب الامن داخلا وارتفع شأن البلاد خارجا وأصبح هو حاكمها المعروف بالشجاعة والكرم والمتصف بالعدل وحسن الادارة . وفى العام

(١) كوند

الثانى والتسعين بعد الثلاثمائة خرج المنصور غازيا للمرة الثانية والخمسين (١) لقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم من ولاية قشتالة وقد أبدى العاصون مقاومة كبيرة واشتد القتال حتى اضطر ابن أبى عامر للوثوب الى الصفوف الامامية (٢) مستبسلا والسيف بيده لبث روح العزم فى أفراد جيشه وبعد كفاح شديد أحرزوا النصر ولكن بعد أن أصيب قائدهم المنصور بجراح بليغة ، استشهد على أثرها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ودفن بمدينة سليم حسب وصيته

مات محمد المنصور وبموته فقد الاندلسيون ركنا من أركان شوكتهم ، توفى رجلهم العظيم وبوفاته انصدع بنيان اتحادهم فيا لهول المستقبل المخيف ، المستقبل المظلم الذى يهدد كيان الاندلس لبسوا عليه ثياب الحداد وشقوا الجيوب كأنما كان حزنهم وحدادهم على نحس طالعهم الذى بدا فى أفق السياسة . لم تعش صبيحة كثيرا بعد المنصور فقد توفيت فى العام الثامن والتسعين (٣) بعد الثلاثمائة ، أى بعد تلك النكبة بستة أعوام لقد تصالحا قبل وفاة المنصور ولكن صلحهما كان ظاهريا اقتضته الظروف والا فان

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا

(٢) ابن خلدون

(٣) قاموس الاعلام

الدموع التى ذرفتها قد جعلت بينهما هوة من الآلام يصعب اجتيازها فان الاعوام الاخيرة من حياتها مضت بين جدران النسك والعبادة وقد كان لموتها صدى حزن عميق في نفس الشعب لا يقل أثراً عن حزنهم لدى موت المنصور وقد رثاها كثير من الشعراء وفيهم ابن دراج حيث شبهها بنجمة الاندلس. حقاً إن (صبح) كانت من أشد النجوم تألقاً فى سماء الاندلس ،كان هناك أمل فى أن تحيا الاندلس حياة رغد ورفاهة طول حياتها أما وقد أفل نجمها ولم يبق أثر لسلطان المنصور ولا بأس الحكم ولا شوكة عبد الرحمن ، فلم يبق أمام الاندلس سوى السقوط والانحدار لماذا ؟ لان الخلافة انتقلت الى يد هشام ، ذلك الخليفة الجبان العاجز الذى كان الاندلسيون يخشون حكمه ،وليس هيبة منه وانما خوفا من عجزه وضعفه .

لم تر صبيحة بعينها خاتمة قرطبة ، تلك الخاتمة السوداء التي تهز حتى اليوم أوتار القلوب فى بلاد الاسلام بضربات الحزن والالم . لو قدر لها أن تعيش بضعة أعوام أخرى لترى تقسيم عاصمتها لانهمرت عيناها بالدم بدل الدموع .ماتت دون أن ترى شيئاً من ذلك ماتت فى بيت الزهراء وهي تنظر الى نجمة تلمع على صفحة حوض من أحواض حديقتها الزهراء فى مساء يوم لطيف حزين مؤلم ، وقد كان آخر المشاهد انطباعاً فى نظرها ، منظر تلك النجمة التى تستحم مرتعشة فى أحواض بيت الزهراء

الخاتمة

كتب موسى بن نصير والى المغرب ، الى الخليفة عبد الملك ابن مروان، يصف له الاندلس ترغيباً فى فتحها ، فقال :

« الاندلس جنة فيحاء تشابه الشام بحسن موقعها واليمن باعتدال مناخها والهند بأزهارها ونباتها ومصر بخصوبتها ونمائها والصين بأحجارها الكريمة ومعادنها النفيسة » وأعقب ذلك خروج طارق بن زياد لغزوها وتحت امرته اثنا عشر ألفاً من المجاهدين وان هى إلا أيام قلائل حتى تم فتحها . مضى على هذا العهد عصور ثلاث تمكن الفاتحون أثناءها ، من ايقاظ أمة جاهلة خامدة وأخذوا بيدها الى مناهج العلم والعرفان تحت أشعة النور الاسلامى ، فلم يمض الا القليل حتى اعتلى الاندلسيون ، اعتلت تلك الامة التي كان القساوسة تسوقها كالاغنام ويذيقها الحكام صنوف العسف وألوان الاضطهاد ، وأصبحت بعد زمن وجيز مطمح أنظار أوربا وموضع الدهشة والاعجاب من أهلها

دهشت أوربا من مدنية اسبانيا ثم أخذت تقترب منها على مهل (١) وتردمناهل علمها وعرفانها وحياض مدنيتها ارواء

(١) رينان

لظمئها وبعد فتح الاندلس وجه العرب همتهم الى عمرانها وزينتها ، وكانت الحروب قاصرة إما على دعوة الامراء المسيحيين القاطنين في شمالها الى الهداية واما على رد هجماتهم من حين لآخر . إن المسلمين الشغفين بالامور الزراعية شغفهم بالحروب صيروا الاندلس حديقة جميلة (١)

الصناعة والتجارة ، العلم والعرفان ، الشهامة والمروءة كل هذه مزايا كان مسلمو تلك الايام يتهافتون على التحلى بها واكتسابها أما أخلاقهم الحسنة وشرف نفوسهم فكانت عالية تفوق أخلاق المسيحيين حسناً حتى أن أعداءهم ، أمراء الشمال كانوا لايستنكفون من مداواة مرضاهم ومجروحيهم فى البيوت الاسلامية بمعرفة أطباء المسلمين ارتكانا على مروءتهم وشهامتهم

فى تلك الايام وقد اتسعت دوائر العلوم والفنون ارتقت الامة تبعاً لذلك وأصبحت المروءة وعزة النفس غريزة فى نفس كل مسلم . ان الخصال الحميدة التى كان يتصف بها طائفة الفرسان فى أوربا ، تلك الخصال التي تقرأ وصفها فى كتب الفرنسيين فنعجب بها ، هى خصال المسلمين الحقيقيين ولو علمنا مقدار ماكان يبذله المسلمون فى تلك الايام من الاحترام والاعتبار للمخدرات الاسلامية بل لكل النساء مسيحيات كن أو مسلمات (٢)

---

(١) سلفستر (٢) روح الاسلام للامير على

لو علمنا مقدار احترامهم واعتبارهم لهن ثم نظرنا الى حالتنا اليوم فلا أدرى كم يكون الاسف مراً أليما

عنـد ماحاصر والى قرطبة مدينة (توليدو) عام ١١٣٩ ميلادية كانت الملكة (برانجر) محصورة في قلعة (آزاقا) داخل المدينة. وعند ماهجم الوالى بعساكره على المدينة يريد فتحها أرسلت الملكة تقول:

« ليس من الشهامة الاسلامية محاصرة امرأة فى مدينة والهجوم على القلعة التى هي بها » فاستصوب الوالى رأيها وغض النظر عن الهجوم وإنما طلب أن تظهر نفسها لهم من احدى شرفات قصرها وبمجرد اظهار نفسها لهم قدم الوالى احترامه وعاد بعسكره الى قرطبة بعد أن اعتـذر لها فقل لي بربك ألا تستحق أن تضاف هذه الحادثة الى سجل الشهامات والمروءات؛ وهل تقل درجة عن أعمال (بايارا) و (سيدنى)؟

سمع محمد المنصور بعد رجوعه عن غزوة (قومبوستال) أن امرأة مسلمة محبوسة داخل القلعة فأمر باحضار ملك النافار أمامه ليقدم المعذرة على هذا العمل الفظيع وهو على ركبتيه فحضر الملك وطلب العفو والمعذرة جاثيا على ركبتيه (١) وبعد أن تم تخليص المرأة المسلمة على هذه الصورة عاد بجنوده الى العاصمة

---

(١) لاذ بول

كان الزمان، زمان عظمة وقدرة وجلال وكانت الاخلاق الاسلامية على أصلها لم يتطرق اليها عوامل الضعف وبذور الفساد وكان المسلمون أصحاب القوة والسطوة. وكانت الايام أيام نور وخير ونماء وكانت الامة المحمدية أمة العلوم والصناعات وصلت مدنية الاندلس أيام عبد الرحمن وابنه الحكم وفي عهد صبيحة والمنصور الى ذروتها وغايتها حتى أن اسبانيا لم تر قبل أو بعد هذا العهد مثل ما رأته في أيام هؤلاء الابطال (١) الزراعة والصناعة والتجارة وزخرفة الذهب والفضة والنسيج والحياكة لم تكن في قرطبة فقط بل كانت منتشرة في غرناطة واشبيلية ومرسيه. وقد كانت هذه المدن أشهر من نار على علم في صناعة الاسلحة

كتب (دون بدرو) في وصية له في القرن الرابع عشر الميلاد، يقول: بين المخلفات التى اتركها يا بني سيف مصنوع في اشبيلية محلى بالنقوش الذهبية ومرصع بالاحجار الكريمة فأوصيك بالمحافظة عليه» أما اشتغالهم بالصنائع النفيسة وفي العمارات والعلوم الفلكية فقد اوقع اوروبا في مهاوى الحيرة والاعجاب

سفراء اوروبا وملوكها وملكاتها الذين أموها للزيارة كانوا يفتتنون بأبهة قصور عبد الرحمن ومافيها من آلات النعمة ورياش

---

(١) ريتان

الترف . لم تكن قرطبة زينة الاندلس فحسب بل كانوا يعدونها أعجوبة العالم (١) لم يبق انسان لم تدهشه المدارس المنشأة في عهد الحكم الثانى وما تجلى فى عصره من مظاهر العلوم والفنون (٢) لم يبق انسان فى ذلك الزمن لا يعرف القراءة والكتابة أما كفاءة المنصور وقدرته وعدله فقد سار بذكرها الركبان حتى أصبحت اسبانيا من أقصاها الاقصاها ترتجف فرقا من صولته وبأسه يذكرون عنه أنه في غزوة من غزواته لاخضاع احدى المدن الثائرة ، نسى أحد الجنود وكان من حملة اللواء لواءه فى المعسكر أمام المدينة وبعد انتهاء الغزوة وعودة المنصور بجنوده ظل اللواء فى مكانه منسيا وأخذ الاسبانيون يرمقون اللواء ولا يستطيعون الوصول اليه خوفا من عودة المنصور بجنوده ولم يتمكنوا أخذه الا بعد مضى أيام عديدة واطمئنانهم من عدم رجوع الجيش

اما سياسة صبيحة ومهارتها فى الاحكام وآثار الرحمة والشفقة التى كانت تبديها للفقراء والمحتاجين وبذل ما فى وسعها لعمران المملكة بانشاء الجسور وحفر الترع وعيون الماء وتأسيس المدارس والجوامع فهذه امور مسجلة بالفخر والثناء ليس فى التواريخ الاسلامية وحدها بل فى التواريخ الافرنجية لاسيما ما كان متعلقا منها بتاريخ اسبانيا

---

(١) لوبون (٢) ابن خلدون

إن ظهور صبيحة فى مثل هذا العصر المشرق المنير برهان كاف على فضلها وجميل مزاياها . لو اردت ان أحصى الشهيرات من نابغات الاسلام فى ذلك العصر لاحتاج الامر الى عدة صفحات

كانوا في هذا العهد شغفين بالعلوم والمعارف حتى انهم جميعاً، كباراً وصغاراً ، رجالا ونساء، وقفوا حياتهم في سبيل العلم والنور فى ذلك العهد لم يكن للرجال فضل على النساء فى العلوم والفنون بل ان النساء كن المرشدات الملقنات وكان الرجال يستفيدون من هذا الارشاد اىما فائدة . كان الرجال يخدمون نساءهم فى الاندلس لاقتدارهن وذكائهن وفضلهن وانهن لجديرات بذلك (١)

هذه هي الاندلس فى عصورها الثلاثة اما وقد ماتت صبيحة وظل هشام على العرش كما يريدويهوى فقد ابتدأ أساس السلطنة في التزلزل وتطرقت اليه عوامل الفساد . أراد كل انسان أن يستفيد ويعمل لنفسه على حساب هذا الخليفة العاجز وفى النهاية دبت عوامل النزاع والشقاق بين عائلته ووزرائه وأمرائه وتابعيه وعصفت عواصف الفتن والدسائس في بيت الزهراء وصار الخليفة العوبة بينهم يجلسونه على العرش ويخلعونه منه من حين لآخر وصارت غرفة العرش مسرحا يتقاتلون فيه

(١) روح الاسلام للامير

ويتنازعون فى أرجائه وفى مدة وجيزة جلس على العرش عشرون خليفة على التوالى بسرعة يصعب على الانسان تمييز المدة التى يستغرقونها بين الجلوس والخلع وبين الارتقاء. وولى ذلك ظهور القلاقل واندلع لسان اللهيب الى أطراف الاندلس قاطبة فاستقل كل وال بولايته ثم تشاحن الولاة فيما بينهم وتقاتلوا وظهرت على أثرها المذابح فتخربت المدارس والمكاتب وانهدمت المساكن والقصور ثم التجأ بعضهم الى أمراء الفرنجة وطلبوا معونتهم ولم يمض الا اشهر قلائل حتى استولى العدو على نحو عشرين مدينة وقلعة (١) أما بيت الزهراء وقصر الظاهرة فأصابهما ما أصاب غيرهما من الخراب والدمار وأصبحا في اربعة أيام أثراً بعد عين احترقا ولم يبق من أنقاضهما الا الرماد وتعاقبت في قرطبة فرق وأحزاب وشيع فمضى ذلك العهد كالاحلام السارة التى يراها المرء فى منامه ولم يبق من آثاره الا حسرة فى النفس نرددها من حين لآخر.

بينما كان محمد المنصور جالساً فى قصر الظاهرة ذات يوم نظر الى أطرافه بحزن وتأوه يقول: «أيتها الظاهرة التعسة أي يد ستشعل النار فى أطرافك وأى حرص سيسبب خرابك ودمارك» لم يمض على قوله زمن كبير حتى أحرقتها أيدي أحزاب مختلفة فذهبت ضحية الفتن (٢)

---

(١) الامير على (٢) ريناں

فهل خطر مثل ذلك على بال صبيحة ايضاً من يدرى ربما تأوهت مثلما تأوه المنصور وربما قالت تناجى نفسها : « أي يد ظالمة سوف تتحكم فيك ياقصر الزهراء . ويا نجمة الغروب في أى الاحواض تعكسين شعاعك الضئيل وقت حصول هذه الفاجعة ؟ » ولكن لا لا . انا لا أريد أن أحدثكم بمصائب الاندلس ولا أريد أن أدمى جراحكم بأحزانها . لا استطيع ذلك لانني لا املك من الكفاءة او العرفان ما يؤهلني لدخول هذا الميدان انما اريد ان أقول ان أبهة الاندلس وبهرجها ماتت وانطفأت بموت الاميرة صبيحة .

بعد أن مر على قرطبة عاصمة الاندلس المشرقة ازمان خاضت فيها فى الدماء والاحزان ، لم يبق للسلطنة ثمت نفس أو روح فانطفأت انوارها فى قرطبة ولم يظهر فيها قبس من الضوء بعد ذلك ، وانما ظلت عائشة لجمهورية اشبيلة .

وظهرت بعض الانوار فى ربوع غرناطة ولكن لم يجد ذلك أى نفع لان بذور التفرقة كانت قد نمت في نفوس المسلمين وثمار المصائب كانت قد أينعت (١) فأجبروا على ترك الاندلس بعد حكم دام ستمائة عام

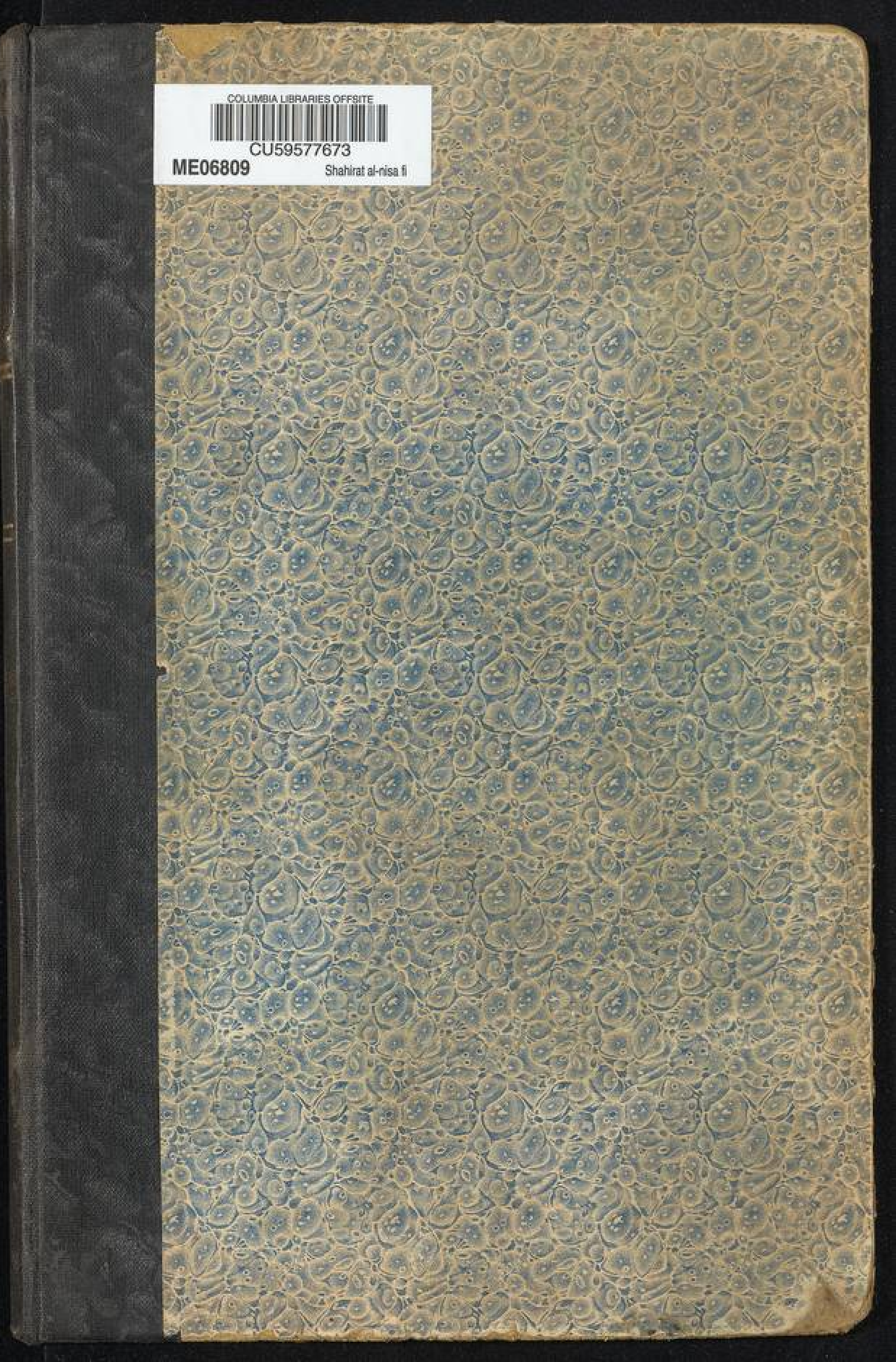
عند ما سودت هذه الصفحات من ترجمة حياة صبيحة لم

أتمالك نفسى من الخروج عن الصدد ولكن كان لزاماً على اجمال ادوار ثلاث ، كنت أستطيع ان أهمل هذه الادوار ولكن كان لها تماس بشخصية صبيحة ومحيطها ولذا لم أبال من قيدها بكل فروعها وتفصيلاتها فالقصة وان طالت الا انى اؤمل ان قرائى وقارئاتي لم يتطرق اليهم الملل اثناء تصفحها .

لا اقصد ان اكتب تاريخاً وانما الغرض الذى أرمى اليه هو النهضة النسائية فى عصرنا هذا وهذا الامر لا يأتى الا من طريق العظة والعبرة فسعيت جهد استطاعتي للوصول الى هذه الغاية والله اسأل سواء القصد .



﴿ محتويات الجزء الثاني ﴾



COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59577673
ME06809
Shahirat al-nisa fi